ورقة ثقافية

٦

... وتذكروا من الأندلس

الإبادة

بقلم

أحمد رائف

ديوان المطبوعات الجامعية

بسم الله الرحمن الرحيم



اعيد طبع هذا الكتاب على مطابع ديوان المطبوعات الجامعية
بترخيص من الناشر الاصلي

© ديوان المطبوعات الجامعية : 04 - 91
Codification 4-16-2884

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله
وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ﴾

صدق الله العظيم
فصلت / ٣٣

... وتذكروا من الأندلس الإبـــادة !

ورقة ثقافية
٦

وتذكروا من الأندلس الإبادة !

بقلم : أحمد رائف

إهـــــداء

إلى زوجتى العزيزة ماجدة أمين ،
أم البنين والبنات :
فاطمة الزهراء .
أمـــيـمـــة .
محمد شـريف .
أمـــيرة .
رُفـــيدة .
إســـلام .
أقول لكم اقرءوا هذا الكتاب ،

وتذكروا من الأندلس الإبادة !
وأن أسلافكم المسلمين قد فضلوا الشهادة على ترك الإسلام .
وماتوا ولم يتخلوا عن دينهم ، وتمسكوا به حتى لقوا ربهم .
وأنكم جيل تحقيق القرآن .
وسوف تشهدون مصر الإسلامية إن شاء الله عما قريب .
﴿ اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾

صدق الله العظيم

أحمد رائف

مدينة نصر ١٩٨٧/١/١

وحتى لاتصبح كل بلاد المسلمين أندلساً !

بقلم : صالح ناز كاظم

● بعد أن تقرأ هذه الورقة « وتذكروا من الأندلس : الإبادة ! » لأحمد رائف ، لن تملك سوى أن تقول : « ماأشبه الليلة بالبارحة » ، أو « ماأشبه الليلة بالفاجعة ! » وسوف تراجع مع أحمد رائف حوادث التاريخ لتراه يلف ويدور ، وسنة الله الخالدة : ﴿ إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم ﴾ أبداً ماثلة آية لأولى الألباب . فالمسلمون لم يفتحوا ثغراً إلا بذكر الله ، ولم تسقط ثغورهم الواحد تلو الآخر إلا بالغفلة التى أنستهم الله فأنساهم أنفسهم فتغلب عليهم أهل الباطل وكانوا أداة عقابهم .

●

بدأ أحمد رائف كتابة هذه الورقة منذ شهور قلائل ، لكن الحقيقة أنه كان يعيشها طيلة عمره . اتفقنا فى منتدى « ورقة ثقافية » أنه « صاحبها » فهو المؤهل بتخصصه فى علم التاريخ وقراءاته الواسعة فى تاريخ الأندلس بالذات ، مع قلمه الفنان وحسه الدرامى ، أن يكتب للمسلم المعاصر قصة ضياع الأندلس بهدف جديد . قصة الأسباب وراء ذلك الضياع ، وماذا يكون قد ألمّ بمسلمى الأندلس فى معترك الأحداث وتشابك الخيوط . وقلنا : كلنا يعرف أن الأندلس حكمها الإسلام الحنيف ثمانية قرون ، وكان لنا فيها علم وحضارة ومدنية ومجد تليد . وكلنا يعرف ، بشكل أو بآخر ، أن ثمة حروباً بين الطوائف قد أضعفت مسلميها . نعرف محاكم التفتيش ، و نعرف أن أهل الأندلس المسلمين قد أرغموا على الردّة أو القتل . نعرف ونعرف ونعرف ، لكننا بعملية إعماء مقصودة أدرنا ظهورنا للتفاصيل الحارقة للأكباد ، وابتسمنا فى بلاهة للتواشيح الأندلسية ، وقصص الغرام التى كانت تدور بين الملوك والجوارى الحسان ، أو بين بنات الملوك والشعراء . وأسقطنا من ذاكرتنا عن عمد : « الإبادة » التى

نزلت بسكينها فتم محو شعب نابض بأكمله ، وأصبحت الأندلس مرادفاً لرومانتيكية مبيدة للعبر ، وكأن « الإبادة » قد استمرت لتقطع عن المسلمين حتى فرص التعلم من التاريخ لإنقاذ الحاضر ، الذى نراه يحفر لنفسه مجرى يقوده إلى نهاية تتضاءل إلى جوارها فواجع الأندلس .

●

لم تكن الفكرة أن يعيد أحمد رائف كتابة تاريخ محض محفوظ فى بطون المراجع والدراسات والكتب ، ولكن أن يَبسط أمام القارىء تفاعل هذا التاريخ مع ذاته الإسلامية ، ويتأمل بفكره ورؤاه مسلسل الحوادث بغرائبه ومفارقاته وانحرافات منطقه ، مستندا فى تحليله إلى المعيار القرآنى المؤكد للسنن الإلهية الثابتة ، والبعد الغيبى . وحافزه الأول من وراء الجهد شواهد فى أحوال المسلمين نعاصرها ويبرزها لنا أحمد رائف مشيراً إلى أنها تكرار مر لما حدث فى الأندلس منذ قرون .

فالصرخة التى يطلقها أحمد رائف : « تذكروا الإبادة ! » هى من أجل ألاَّ تصبح كل بلاد المسلمين أندلساً . وكم فى تاريخنا من « أندلسيات » فى هذا الإطار : الهند التى استولى عليها الإنجليز ثم الهندوس ، الولايات الإسلامية التى استولت عليها روسيا القيصرية ، ومن بعدها روسيا السوفييتية ، أندونيسيا والفليبين وتايلاند التى يبتلعها التنصير ، ومعها بلاد الإسلام فى إفريقيا التى تتلاشى ، حتى قبل أن نعى أنها كانت جزءاً من وطن الإسلام ، وبلغاريا وألبانيا حتى اغتصاب فلسطين وتمزيق لبنان ... إلخ !

●

ولقد اتبع أحمد رائف منهجاً فى أسلوب هذه الورقة يمزج بين سرد متعاقب للأحداث ، ملخصاً الحقب ، ومختزلا السنين للإمساك بجوهر العظة ، ومشاهد هى لوحات متخيلة لما كان يمكن أن تكون عليه اللحظات الأخيرة فى حياة الشخصيات الرئيسة فى غرناطة ليلة تسليمها للنصارى ، لتنكس الأهلة منذ ذلك الحين وترتفع مكانها الصلبان على المآذن والأبراج

والقلاع ! وأول هذه الشخصيات : الملك ، وصاحب الشرطة ، والفارس المجاهد الذى يرفض أن يرى يوماً يُذل فيه المسلمون !

ولم يكن أحمد رائف شاهد ذلك العصر ليرسم اللوحات هكذا بتلك الدقة ، لكن كفاه أنه وعى التاريخ ، ووعى عصره ، وأعارته تجاربه بعد هذا كله فرشاتها ليرسم بشفافية مانحسب أنه قد حدث دون اختلاف كبير .



مقدمة المؤلف :

الملاحة فى بحار النار والزيتون

الأندلس بلاد يسكن فيها قلبى ، وتعيش دائما فى وجدانى ، ولاتفوتنى ذكراها ساعة من ليل أو نهار مادمت مستيقظا ، وقد يأتينى طيفها فى حلم ليلة ، وأود لو أحج إليها كل عام ، ولكنى أخشى على نفسى دائما من لحظة اللقاء . قرطبة ، إشبيلية ، طليطلة ، برشلونة ، غرناطة ، الجزيرة الخضراء ، مرسية ، رندة ، سرقسطة ، لشبونة ، شلب ، مالقا،بلد الوليد ... وغيرها وغيرها ، حبات فى عقد من اللؤلؤ الثمين ضاع من صاحبه فى بحار الزمن المخوّفة ، وجن صاحبه حسرة عليه عندما فقده ، وجاء الورثة السفهاء ، فصارت المأساة قصة يتسلون برواياتها أحيانا أمام المدفأة فى ليالى الشتاء . وتعاقبت الأجيال وبعدت الشقة ، وصارت ذكرى غامضة فى ضباب القرون . وتغيرت معالم كل شىء ، وانشغل الناس بمصائب أدهى وأعظم من ذلك العقد الثمين الذى ضاع منذ زمن بعيد .

● ● ●

سافرت كثيرا وضربت فى الأرض أطوف بالبلاد ، وأقترب فى رحلاتى من شواطىء الأندلس ، ولا أجد الشجاعة فى النزول إلى ساحتها ، ففى القلب رهبة شديدة من زيارة مكان صنعه الآباء وفتحوه وأقاموه ، ثم ذلوا وهانوا وطردوا ، وهناك العرض السليب ، والكرامة الضائعة ، والهوان الذى تمرغ الأسلاف فيه قرونا يتميزون غضبا . يتلفتون يمنة ويسرة فلا مغيث ولاناصر ، ولاملجأ من الله إلا إليه .

وفى يوم وجدت نفسى فى المغرب مع الأهل وبعض الأصدقاء فى رحلة لم يقدر لها ، ولكنها جاءت على قدر .

وعند قبر يوسف بن تاشفين هبت رياح الأندلس وملأ شذاها أنفى ، وأطفالى من حولى يعجبون ، وأنا أقف خاشعا أمام بطل الزلاقة وهازم ألفونسو السادس ، ومؤسس دولة المرابطين ، وزاد من خشوعى قبره البسيط ، فى زاوية مهملة ربما لايشعر بها أحد ، ولافتة صغيرة تحمل اسمه ومتى مات .

ولا أحد يعرف على وجه التقريب متى ولد .

ولعل قبره صورة لحياته الزاهدة المتقشفة التى اشتهر بها .

فرغم ملكه للمغرب ، واجتيازه العدوة إلى الأندلس بجيوشه الجرارة إلى الزلاقة ، وهزيمته جيوش قشتالة ، ثم قضائه بعد ذلك على ملك الطوائف ، وتوحيد الأندلس فى دولة قوية مهيبة عاصمتها مراكش .

ولكنه عاش حياة بسيطة حتى مات .

فقد ظل فقير الملبس والمأكل ولم تغيره الدنيا ، ولم تشده إليها ، ولم تقدر عليه ، ثم ترك ملكا عريضا ضيعه من جاء بعده .

وهذه سنة الدول ودرس التاريخ .

● ● ●

حملتنا السيارة أنا والأطفال وأمهم إلى « أغمات » وهم فى دهشة ، وقالت صغراهن ، وكانت أميرة حين ذاك :

- هل قطعنا هذه المسافة الطويلة لنزور المقابر ؟

وصرت أصف الطريق للسائق المغربى ، وهو طريق أقطعه لأول مرة ، ورغم هذا فقد حفظته من سطور الكتب ومجلدات التاريخ .

ولم نستدل على قبر المعتمد بن عباد أكبر ملوك الطوائف فى إشبيلية ، الذى نصحه مستشاروه بعدم الاستعانة بيوسف بن تاشفين ، حيث لاضرورة لكى يأتى لمساعدتهم فى حرب ألفونسو السادس ، وأنه إذا جاء لن يغادر حتى يملك الأندلس فقال لهم قولته الشهيرة :

- رعى الجمال خير من رعى الخنازير .

ويقصد بهذا أن الخضوع لملك مسلم خير من اتباع الملك القشتالى .

ولكنها فورة مسلم فى لحظة صدق خبت بعد الانتصار فى المعارك وعند تقسيم الغنائم ، التى تعفف عنها يوسف بن تاشفين .

وأدرك ابن تاشفين أن مشكلة الأندلس هى دول الطوائف .

وقرر القضاء عليها وإقامة دولة قوية تصمد أمام الممالك النصرانية .

وعرض هذا سلما عليهم فأبوا ، فحاربهم وانتصر عليهم .

وجاء ابن تاشفين بالمعتمد وغيره أسرى إلى « أغمات » وبقوا فى السجن حتى ماتوا ، وكان فى رأيى بهم رحيما شفيقا ، فقد كانت عقوبتهم القتل بمفاهيم ذلك العصر ، وهو الأمر الذى يتناسب مع جرمهم فى تفتيت المسلمين .

● ● ●

وكدنا نعود أدراجنا ، فليس هناك من يعرف المعتمد بن عباد .

وفكرت أن أذهب إلى قسم الشرطة القريب لأسأل عن مكانه ، وقد وصلت إلى المكان بالدقة التى وصفت لى فى الكتب .

ثم ظهر شيخ هرم فسألته فقال :
– هناك سيدى عباد .
وقلت له هو من نبحث .

ووصف لنا الطريق ، حيث مقامه تحت قبة يرقد تحتها هو وزوجه اعتماد الرميكية ، التى شاركته نعيمه وبؤسه ، وقد سجل هذا على القبر .

وكانت هناك قبور ثلاثة ، واحد للمعتمد ، وآخر لزوجه اعتماد ، وثالث صغير لابنته بثينة ، وشعر قد كتب ، قاله بعض الذين زاروه فى تلك الأثناء .

وصار قبره مزارا يقصده الناس للبركة والدعاء .

كما صار فى أذهان الناس شيخا مباركا له كرامات ، رغم أنه قد عبث بقضايا المسلمين ومستقبل الأندلس .

على عكس قبر يوسف بن تاشفين الذى لايكاد يشعر به إنسان ، وربما ضاع تاريخه فى غبار الدروب الضيقة التى تحيط بالمكان فى تلك الزاوية البعيدة من أطراف مراكش . أما المعتمد فمقامه حونه الخضرة والزروع والبساتين والماء الدافق ذو الخرير ، والجبال البعيدة وقد غطتها الثلوج فهى تعكس نورها على المكان فيبدو فضيا رائعا قد غشاه الجمال والجلال .

والمعتمد مظلوم مهضوم الحق فى نظر المؤرخين ، عومل بقسوة لا يستحقها . ونسوا أن ابن

تاشفين كان به رحيما عندما سجنه مدى الحياة فى جريمة عقوبتها القتل ، واستخدم حقه « الدستورى » فى العفو .

ولكن شعره الرقيق وخياله الخصب ومأساته المروعة فى ضياع الملك والسلطان جعلت على الأعين حجابا يغطى الحقائق فى عالم مغرق فى الأوهام ، وإن ضاعت منه فهو يبحث عنها .

● ● ●

يجب أن لاتنسينا عواطفنا حقائق التاريخ ، وينبغى أن نعى الدروس التى قدمها لنا التاريخ الإسلامى بعاطفة لاتذهب العقل ، وعلينا أن نقرأ قصة الأندلس ، أو الفصول الأخيرة من هذه القصة – على ماتثيره من عواطف وتأثر – بنظرة عاقلة مستبصرة ، فقد فرط المسلمون فى دينهم عبر قرون لعوامل شتى ليس هذا مكان تحليلها ، ولكن دراسة التاريخ الإسلامى هامة وضرورية للدعاة الذين آثروا الإسلام دينا ، وينوون وضع لبنة ولبنات فى صرح الإسلام الذى يوشك أن يكون . وأعظم فصل فى تاريخ الإسلام هو قصة الأندلس الذى ضاع منا أو أضعناه ، وعلينا قراءة هذا الفصل بإمعان ، وعلينا أن نتعلم الملاحة فى بحار النار والزيتون . وأن نتخلص من واقعنا المؤلم فى أقرب فرصة ممكنة ، فنحن نعيش قصة أسلافنا فى عصر الضعف والانحلال ، ولكن فى هذه الأيام والعياذ بالله هناك أكثر من أندلس تضيع !

ففى ألبانيا المسلمة يؤدى المسلمون شعائر دينهم سرا وخوفا من صاحب الشرطة ومن الحكم القشتالى الذى نزع شعار الصليب ورفع لواء شيطانيا أقحوانى اللون . ينكر الله سبحانه وتعالى ، ويعود بالناس إلى عصر سحيق قد تركته البشرية منذ زمن بعيد ، وقد تربع الوثن على هيئة طاغية قد صن[illegible] أقامه على تل من جماجم المسلمين ، وهناك فى ألبانيا وقعوا معاهدة التسليم وهم يمرون ببرنامج الإبادة الذى مر به أسلافهم من قبل فى غرناطة الشهيدة .

ومايحدث فى يوغوسلافيا هو نفسه مايحدث فى ألبانيا !

وقبرص الإسلامية تحتضر وصاحبها يستنجد بسلاطين بنى مرين فى العدوة الأخرى من البحر بلا مجيب ، وليس هناك غير كلمات العطف والرثاء ، وشجب مايفعله القشتاليون فى قبرص الإسلامية ، وسوف تعرف تفاصيل هذا كله فى هذه الورقة التى بين يديك . لقد اختلط ماضينا بحاضرنا بعد أن انفصلت بدايته المجيدة عن ماض قريب وحاضر قائم يحدث فيه اليوم ماكان يحدث منذ قرون .

مازلنا نعيش هذه الأيام فى غرناطة بعد توقيع معاهدة التسليم وفى انتظار الإبادة ، والمخطط يسير بنفس الخطوات التى سار بها فى الأمس القريب .

ولايزال ملوك بنى الأحمر يحكمون البلاد الإسلامية ، بأحقادهم وإحنهم وحرصهم على الحكم والعروش ، ويلعبون بمستقبل البلاد والعباد . والقشتاليون يكسبون كل يوم أراضى جديدة ، ويوقعون العداوة والبغضاء بين حكامنا من بنى الأحمر .

وتنطلق صيحات المصلحين والدعاة المسلمين فلا تكاد تبين وسط جوقة صاخبة قد استأجرها القشتاليون ليغطى صوتها أنين المجروحين والمنكوبين الذين ضاعت ديارهم ، وغاب عنها صوت الأذان

ابتلعت « قشتالة » الجمهوريات الإسلامية الست فى جنوب روسيا ، وتحولت المساجد بها إلى متاحف ، يفتحون أبوابها لأبناء الأندلس الزائرين،والذين لم تستسلم بلادهم بعد ليروا عدل القشتاليين وسماحتهم ، وأن من يدخل فى صلحهم لن يخسر شيئا ، وسيظل على عقيدته ودينه وهو حر فى كل مايريد ويفعل ، والويل كل الويل لمن يصلى أو يصوم أو يقرأ القرآن !

أخذ القشتاليون فلسطين ، وهم يبيدون المسلمين بها ، بينما سائر الولايات الإسلامية الأندلسية تبدى ألمها وأسفها ، والدور قادم عليها وإليها رضيت أم ابت !

أفغانستان المجاهدة الصامدة خلف جبال « البشرات » المحيطة بغرناطة ، ترسل صيحتها وتستغيث ولامغيث ، ونابالم القشتاليين يحصد النساء والأطفال والشيوخ ولايفرق بين صغير وكبير فى جبال الهندوكوش ، وحول قندهار !

وملوك بنى الأحمر يتواثبون كالقردة المدربة لنزع التيجان والعروش من بعضهم البعض ، وهذا غاية مبلغهم من العلم والعمل .

وتركيا المسلمة التى كان سلطانها هو الصخرة التى تحمى بناء الإسلام فى هذه الأيام الكالحة الغبراء اجتمع عليها القشتاليون ومن خلفهم البابا ، واستغلوا ضعف الخلافة والسلاطين ، وأرغموهم على معاهدة التسليم وبدءوا معهم حرب الإبادة والتنصير !

ونسمع فى هذه الأيام صيحات الجهاد تدوى من خلف جبال « البشرات » الغرناطية مأوى المجاهدين والشهداء ، وهم يستعدون فى تصميم لاستعادة تركيا الشهيدة من سلطان القشتاليين وعملائهم .

وهناك فرق الأحبار والرهبان تملأ إندونيسيا ومعها أكياس الذهب ، وخلفها جيش من الخبراء يقوم على بناء المدارس والمستشفيات ، ثم يرفع صليب « شانت يعقوب » فوق كل مسجد كما ستقرأ فى الصفحات .

والبابا ينزل من عليائه ويزور إفريقية،وتنشر كل وكالات الأنباء أن زيارته لإفريقية ليحول بين الإفريقيين والاتصال بإخوانهم مجاهدى غرناطة فى جبال البشرات .

● ● ●

لم يعد أمام المسلمين من سبيل إلا واحدة واضحة .

يجب التخلص من حكم بنى الأحمر فى كل بلاد المسلمين .

ويجب القضاء على دول الطوائف التى زخر بها عالم الإسلام اليوم .

والجهاد هو الطريق إلى الجنة ، أو إلى حياة كريمة عزيزة أبية ، فى بلاد لها كرامة وكبرياء تستمد وجودها من دينها وشريعة ربها .

ويتجمع كل المجاهدين تحت راية واحدة غايتها واضحة وسبيلها مفهومة .

ولن يعود لجيش قشتالة تأثير كبير أو صغير .

فأهل غرناطة يستطيعون الصمود أمام الحصار .

ولاينبغى عليهم الاستسلام .

والموت عند الأسوار خير من حياة الذل والعار .

صارت بلاد الإسلام غرناطة كبيرة ، والقشتاليون يحيطون بها من كل مكان . وصاحب الشرطة ينقل أخبار المجاهدين من غرناطة إلى قشتالة فى إيقاع منتظم رتيب ، وهو يخدع ملوك بنى الأحمر من حكامنا ليستجيبوا لنداء القشتاليين . وهى ملاحة فى بحار النار والزيتون ، لن تفهم ألغازها حتى تنتهى من قراءة هذه الورقات ، ولن تهتم بصاحب الشرطة وتذبذبه بين الكفر والإيمان ومطاردة المجاهدين .

وعندها لن يحتار المجاهدون فى الاختيار .

فليس هناك إلا إحدى الحسنيين ، إما شهادة كريمة أو نصر مؤزر .

أ . ر .

لكل شيء إذا ماتم نقصان !

فجائع الدهر أنواع منوعة   وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يهونها   وما لما حلَّ بالإسلام سلوان
دهى الجزيرة أمر لاعزاء له   هوى له أحد وانهد ثهلان
فاسأل بلنسية مابال مرسية   وأين شاطبة أم أين جيَّان
وأين قرطبة دار العلوم فكم   من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وماتحويه من نزه   ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كنَّ أركان البلاد فما   عسى البقاء إذا لم تبق أركان
تبكى الحنيفية البيضاء من أسف   كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية   قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما   فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكى وهى جامدة   حتى المنابر ترثى وهى عيدان
أعندكم نبأ عن أهل أندلس   فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم   أسرى وقتلى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع فى الإسلام بينكم   وأنتم ياعباد الله إخوان

أبو الطيب الرندى
لم يشهد سقوط غرناطة

لمحة من تاريخ غرناطة الإسلامية ومقدمات الضياع والسقوط والإبادة

غرناطة جنة الاندلس :

كانت غرناطة هى أجمل بلاد الأندلس على الإطلاق .

فقد حباها الله بموقع جميل فريد ، رائع الوصف والحسن .

وهى تسكن فى واد عميق يمتد منحدرا من الشمال الغربى لجبال « سيرا نيفادا » ، وتحيط بها الآكام والغابات العالية من الشرق ومن الجنوب .

ويجرى نهر شنيل فى جنوبها كأنه يحدد معالمها فى وداعة وجمال ، وهو ينبع من الجبال التى ذكرنا ، وهو يلتقى بنهر « حَدُّره » الذى يخترق المدينة من الشرق حيث تقبع الحمراء ، ثم يتصل بنهر شنيل عند القنطرة الأندلسية القديمة .

وكانت شطآن هذه الأنهر تفيض بالخضرة والحدائق والجمال ، وخصوصا عندما يأتى الصيف وتذوب الثلوج .

وتشرف غرناطة من الناحية الجنوبية على سهل بعيد شاسع ناضر الخضرة وافر الخصب . وكانوا يطلقون عليه اسم « المرج » أو « الفحص » .

وكانت المدينة غارقة فى البساتين والحدائق بوفرة وكثرة لم تعرف فى بلد آخر من بلاد الدنيا فى ذلك الوقت .

وكانت تتبع غرناطة أكثر من ثلاثمائة قرية عامرة بالمحاصيل والحبوب ، وكلها مناطق آهلة تعج بالسكان ، وقد وفد إليها كثير من المهاجرين الذين استولى النصارى على بلادهم وأرضهم .

ويقدر عدد سكانها فى تلك الأيام بأكثر من ألف ألف نسمة .

وصف ابن الخطيب لغرناطة

ويقول ابن الخطيب فى كتابه «الإحاطة فى أخبار غرناطة» :

«ويحف بسور المدينة المعصومة بدفاع الله تعالى ، البساتين العريضة المستخلصة ، والأدواح الملتفة ، فيصير سورها خلف ذلك كأنه من دون سياج كثيفة ، تلوح نجوم الشرفات البيض أثناء اخضراره ، فلا تتعرى فى جنباته من الكروم والجنات جهة . وأما المرج الشهير أو الفحص فقد كان بسيطا رائع الخضرة ، يشبهونه بغوطة دمشق ، وتخترقه الجداول والأنهار ، ويغص بالقرى والجنات ، ويهرع إليه الرواد فى ليالى الربيع والصيف ، فيغدو مسرح الأسمار والأنس .

وكانت المدينة ذاتها نموذجا بديعا للعمارة الإسلامية ، تغص بالصروح والأبنية الفخمة ، وتتخللها الميادين والطرقات الفسيحة . وكانت مدينة الحمراء أو دار الملك أروع مافيها ، تطل على أحيائها فى سمت من القبلة ، تشرف عليها منها الشرفات البيض ، والأبراج السامية ، والمعاقل المنيعة ، والقصور الرفيعة تغشى العيون وتبهر العقول»[1]

وقد بالغ المؤرخون والكتاب فى وصف حسنها وجمالها وروعتها .

هذه هى الأرض والطبيعة والمناخ .

أما السكان فلهم قصة أخرى .

---

(١) عن الاحاطة نقلا من كتاب نهاية الأندلس لمحمد عبدالله عنان ص ٢٤ مطبعة لجنة التأليف سنة ١٩٦٦ .

غرناطة قبل المرابطين وحتى ظهور الموحدين .

كانت « غرناطة » فى أول عهدها قرية صغيرة تابعة لمدينة « إلبيرة » ثم أخذت مكانها مع الأيام شيئا فشيئا ، ومن ثم صارت قاعدة كبيرة من قواعد الجنوب فى الأندلس عندما انهارت الخلافة الأموية بعد أبناء المنصور بن أبى عامر ، واستولى عليها زعيم كبير من زعماء البربر هو زاوى بن زيرى وجعلها قاعدة لملكه وكان ذلك مع بداية عصر الطوائف .

ثم ظلت محل صراع بين المتغلبين من البربر والعرب ، حتى عبر البحر يوسف بن تاشفين وقضى على دول الطوائف .

وصارت كل بلاد الأندلس تابعة لحكم المرابطين بما فى ذلك غرناطة .

وعندما غلب الموحدون على المرابطين فى إفريقية وبلاد المغرب عبروا البحر واستولوا على قواعد الأندلس قاعدة بعد الأخرى ، وكانت غرناطة هى آخر القواعد التى سقطت فى أيديهم .

وكما حكم غرناطة أمراء اللمتونيين وسادتهم أيام المرابطين ، صار حكامها الجدد من بنى عبد المؤمن مؤسس الموحدين ، أو من قرابته وبنى عمومته .

وظل الحال على هذا المنوال حتى ظهرت الانتفاضات والثورات ضد الموحدين من أنفسهم ، فقد كان منهم من خرج يدّعى حقا فى الإمارة والخلافة ، وثار من « مرسية » واحد باسم العادل ، ومعه ولاة إشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة من إخوته ، وتآمروا على الخليفة فى مراكش ، ونجحوا فى قتله غيلة .

وعبر العادل إلى المغرب ليجلس على كرسى الخلافة .

ولم يمض زمن يسير حتى خرج عليه أخوه أبو العلاء إدريس والى إشبيلية ودعا لنفسه ، وتسمى بالمأمون ، وتآمر على أخيه العادل حتى قتل غيلة .

ولكن أهل مراكش لم يبايعوا له ، وأقاموا مكانه ابن أخيه يحيى بن الناصر .

وغضب المأمون وتحالف مع فرناندو الثالث ملك قشتالة ، الذى رسموه قديسا عندما استولى على إشبيلية فيما بعد ، وقدم المأمون عددا من البلاد والحصون الأندلسية ثمنا للحلف والمساعدة . وأمده فرناندو الثالث بالفرق العسكرية ، وانتصر على يحيى بن الناصر ، ودخل مراكش منتصرا .

وكان الأندلسيون فى غرناطة وفى سرقسطة وفى سائر القواعد الأندلسية يتميزون غضبا من تحالف المأمون مع فرناندو الثالث . فقد مضت سنون كثيرة نسى الناس فيها تلك السنة السيئة التى وضعها أمراء الطوائف فى التحالف مع النصارى ضد إخوانهم من المسلمين .

انهيار الموحدين وظهور ابن هود الجذامى فى الأندلس وبنومرين فى المغرب

وظهرت دعوة جديدة فى أرض الأندلس تدعو إلى التخلص من الموحدين والنصارى فى وقت واحد ، فالموحدون قد انشغلوا بخلافاتهم ، ونسوا أفكارهم الرفيعة ومبادئهم السامية ، وأتوا من الأعمال خلاف ماكانوا ينادون به ويدعون إليه ، ولم يعودوا يختلفون عن غيرهم ممن كانوا ينتقدونهم من قبل ، لهذا لقيت دعوة محمد بن يوسف بن هود الجذامى صدى فى نفوس أهل الأندلس .

وكان هذا الرجل سليل بيت رفيع ، ولكنه متواضع بسيط رقيق الحال عندما بدأ دعوته .

وكاتب الخليفة العباسى المستنصر بالله ، وتلقب بالمتوكل على الله ، وصار ينتزع القواعد الأندلسية قاعدة بعد الأخرى .

ثم خبت دولة الموحدين التى حفظت الإسلام سنين فى هذه البلاد ، وكان انحلالها واختلاف أمرائها السبب الرئيس لذلك .

وقامت على أنقاض الموحدين دولة بنى مرين ، بينما ابن هود يتوسع ويمكن لنفسه ويحارب النصارى والموحدين فى آن واحد .

وفى هذا الأتون المضطرم سقطت « ماردة » فى يد ألفونسو التاسع ملك ليون ، ومن بعد « ماردة » سقطت « بطليوس » ، واندفع فرناندو الثالث ولد ألفونسو وملك قشتالة – فى الوقت نفسه – فى انتزاع مايمكن انتزاعه من أرض ابن هود ، فسقطت « أبدة » ، ثم كانت المصيبة الكبرى التى فاقت سقوط طليطلة فى زمن أمراء الطوائف على يد ألفونسو السادس وهى سقوط قرطبة ، التى دخلها النصارى وحولوا مسجدها الجامع إلى كنيسة .

وتوفى ابن هود على أثر حادثة غامضة ، وهو يحاول استرجاع جارية نصرانية رائعة الحسن من وزيره ونائبه الرميمى . وتولى بعده ابنه المتوكل .

وانتهز الفرصة « خايمى » الأول ملك أراجون فغزا بلنسية ، ثم استولى على الجزائر الشرقية .

ودخل النصارى « مرسية » صلحا ، وسقطت قواعد الأندلس الشرقية واحدة بعد الأخرى ، وكان هذا نفس ماحدث فى القواعد الغربية فى تفصيل مرير .

قيام مملكة غرناطة الإسلامية وأهميتها آنذاك

فى هذه الظروف التى أحاطت بالمسلمين فى ذلك الوقت قامت مملكة غرناطة كحصن وملاذ للمهاجرين من القواعد المنكوبة التى استولى عليها العدو . فعندما ضعفت دولة الموحدين فى آخر أيامها ، وخرج محمد بن يوسف بن هود للقضاء عليها ، خرج زعيم آخر يتسمى بنفس الاسم هو محمد بن يوسف المعروف بابن الأحمر ، واستولى الرجل على « جيان » و « بسطة » و « وادى آش » والحصـ[illegible] ، ثم « شريش » و « مالقة » و « قرمونة » .

ثم استولى على غرناطة فى تفصيل طويل مرير .

ومن ثم صارت بعد ذلك حاضرة ملك بنى الأحمر آخر ملوك الإسلام فى الأندلس .

ولايخفى على أحد أن كل القواعد والمدن الأندلسية الأخرى قد سقطت فى يد النصارى و لم يبق على الإسلام غير مملكة غرناطة التى استطاع ابن الأحمر أن يحتفظ بها من بين هذا الخضم من الفوضى والدماء وضياع الأخلاق والمبادىء وغياب معانى الإسلام .

فقد كان الملوك الأندلسيون يعقدون الصلح مع ملك قشتالة أياً من كان ، ويدفعون له الجزية ، ثم تسنح للملك القشتالى سانحة من ضعف أو فرصة ، فيستولى بقواته على المدينة المنكوبة ويعمل فيها السيف ويحول المساجد إلى كنائس ، أو يكتفى بالأخيرة حسب مزاج الملك القشتالى الموجود . هذا والمسلمون لايتعظون مما يرون ، وهو يتكرر بنفس تفاصيله كل بضع سنوات وتتناقله الأخبار هنا أو هناك .

و لم يكن لشعب غرناطة - الذى تكون عبر سنين السقوط والذل والهجرة من مدينة إلى أخرى بحثا عن الإسلام أو هربا من التنصير - من أمل فى غير غرناطة ومحمد بن الأحمر . فينبغى لهذه القاعدة الإسلامية أن تحتفظ بتراث الإسلام التليد . وينبغى لأهل العقل والدين أن يهاجروا إليها وأن يستوطنوها ، لهذا زخرت المدينة بأهل العلوم والفنون والفقهاء والأدباء ، وخيرة المقاتلين فى كل بلاد الأندلس .

فكأن هذا المجتمع الأندلسى الغريب قد عصر عصرا ، وصار ذوبه مملكة غرناطة الجديدة ، والظن أن هذا هو السبب الرئيسى فى أن غرناطة قد قاومت السقوط أكثر من قرنين ونصف من الزمن .

دخل محمد بن الأحمر غرناطة فى أبريل سنة ١٢٣٨ م إلى المسجد الجامع وأمَّ الناس لصلاة المغرب فى آخر يوم من رمضان ، وكان يرتدى خشن الثياب .

وخرج أبو عبد الله الصغير حفيده من غرناطة فى يناير سنة م فى الفجر على الخيل المطهمة المسرجة بالذهب والفضة .

محمد بن الأحمر مؤسس غرناطة

لم يكن ابن الأحمر قديسا ، بل كان كسائر ملوك عصره ، لايعرف أحد كيف يفكرون على وجه التحديد ، ولايمكن لمؤرخ أن يحلل نوازعهم ويفهمها على الوجه الصحيح ، فهو نفسه الذى أراد أن يستبقى غرناطة كتراث يبقى للمسلمين فى هذه المدلهمة الغاشية ، التى ليس لها من دون الله كاشفة ، وإذا بنا نجده هو نفسه يتدخل لمساعدة فرناندو الثالث فى غزو « إشبيلية » .

فعندما نزل القاضى ابن محفوظ – من زعماء البرتغال الإسلامية آنذاك – عن مدينة « طبيرة » و « العلى » و « شلب » و « الخزانة » و « مرشوشة » و « بطرنة » و « الحرة » للنصارى عام ١٢٤٧ م ، إذ بنا نجد ابن الأحمر يساعد فرناندو فى الاستيلاء على « قرمونة » أهم الحصون الأمامية لولاية « إشبيلية » ثم يقنع أصحاب الحصون الأخرى ، التى لاتقع تحت سلطانه ، بالتسليم لفرناندو .

سقوط إشبيلية المسلمة ودور ابن الأحمر

وحشر لفرناندو جيوشه من البر والبحر حول إشبيلية الشهيدة فهم يوزعون .

والأسطول الصليبى يملأ الوادى الكبير ، والأمراء والأشراف والأحبار والفرسان يجتمعون فى البر من كل بلاد الصليب أمام إشبيلية .

ومن ورائهم يقف ابن الأحمر بقواته تنفيذا لتعهداته مع فرناندو ، وانتقاما من أهل إشبيلية المسلمين الذين رفضوا الد[illegible] طاعته ، وسقطت إشبيلية بعد حصار استمر عاما ونصف عام ، وأزيلت منها معالم الإسلام فى أيام ، كما تقضى بذلك التقاليد القشتالية .

تسليم المدن الإسلامية دون قتال .

وسقطت إثر هذا تباعا « شريش » و « شذونة » و « قادس » و « شلوقة » و « غليانة » و « روضة » و « أركش » وميناء « شنتمرية » وكل القواعد بين « إشبيلية » ومصب الوادى الكبير . وتسابق الأمراء المسلمون فى تقليد ابن الأحمر وتسليم مدنهم للنصارى وفقا لأحسن شروط كما يتصورون،وحقنا للدماء كما يتوهمون ، وإبقاء على القرآن يتلى فى البيوت ؛ ورغم هذا فقد كان الفرسان من المسلمين يهربون إلى غرناطة على أمل الانتقام .

شعب مسلم بلا نصير وحكومة خائنة بلا ضمير .

هذه هى لمحة من الظروف التاريخية التى صاحبت تكون المجتمع الغرناطى المسلم فى زمن محمد ابن الأحمر .

ولعلنا نلحظ أنه فى أواخر أيامه قد وقف تحالفاته ومساعداته للنصارى ، أكان السبب فى هذا أن مصالحه لاتتفق مع هذه الخطط ؟ ، أم أن ضغط الشعب المسلم الذى تجمع من القواعد المختلفة هو الذى أرغمه على ذلك ؟ ، أم أن السبب هو مزيج من هذا وذاك ؟

خضع ابن الأحمر لسلطان بنى مرين فى المغرب،وأرسل إليهم يستجلب العون وقطع صلاته بالنصارى ، وصار الفقهاء يدورون بأمره على البيوت يذكرون بالجهاد ويبينون فضل الشهادة فى ملهاة عابثة ساخرة ، لايفهم مبتداها ولايعرف أحد منتهاها ، يسودها الارتجال ويعلوها ويذكيها الفساد والضياع ، الحكومة فى واد والشعب فى واد آخر .

الملك يوطد سلطانه بالطرق التى يراها صالحة لذلك ، والشعب يعد نفسه لحرب ضروس مع النصارى بلا قيادة مخلصة أو قائد حكيم يهب نفسه لقضية يدفع حياته ثمنا لها .

هذه كانت ظروف غرناطة وملامح حياتها الصعبة وظروف أهلها فى عالم قد فقدوا فيه الصديق والنصير .

كانوا يرسلون صريخهم إلى بلاد المسلمين سراعا ، ويقف شاعرهم وينشد القصائد المؤثرة ، يطلب فيها النصرة والمؤازرة ، فى مساجد القاهرة وتونس والقيروان ومراكش ، فيستمع الناس ويجهشون بالبكاء ، ثم يكففون دمعهم وينصرفون إلى بيوتهم ، ولايستجيب لداعى الجهاد غير نفر قليل يسير فقير ، يجد المشقة والجهد فى الحصول على أجرة السفر ، لينتقل بها عبر البحر ليجاهد النصارى فى مجتمع يظن أهله جميعا من الشهداء والصالحين .

ويذهبون فيفاجئون بالحقيقة المرة ، فمنهم من يبقى ومنهم من لايجد فائدة فيعود .

هل كان ابن الأحمر معذورا فيما فعل ؟

وكانت غاية ابن الأحمر أن يمكن لنفسه فى نواحى غرناطة بالتأثير على الأمراء وكل المتسلطين الخاضعين لحكمه ، ووجد فى الإسلام خير عون له على ذلك ، على الأقل بين جموع الشعب الغفيرة المتواجدة هنا وهناك.

ومن الغريب العجيب المثير للدهشة أن نجد رجلا كابن الخطيب مؤرخ دولتهم يكتب عنه فيقول :

« كان هذا الرجل آية من آيات الله فى السذاجة والسلامة والجمهورية، جنديا ثغريا ، شهما ، أيداً ، عظيم التجلد ، رافضا للدعة والراحة ، مؤثرا للتقشف والاجتزاء باليسير ، متبلغا بالقليل ، بعيدا عن التصنع ، جافى السلاح ، شديد العزم ، مرهوب الإقدام ، عظيم التشمير ، محتقرا للعظيمة ، مصطنعا لأهل بيته ، مضنا فى طلب حظه ، حاميا لقرابته وأقرانه وجيرانه ، مباشرا للحروب بنفسه ، تتغالى الحكايات فى سلاحه وزينة ديابوزه ، يخصف النعل ، ويلبس الخشن ، ويؤثر البداوة ، ويستشعر الجد فى أموره » .

ونقرأ الكثير ويصعب علينا فهم الدوافع وملامح الغايات ، ولعل طبيعة العصر فى تلك الأيام قد قتلت المثل العليا وجعلتها فى خدمة المصالح وتثبيت العروش والممالك . ولعلنا نعذره فيما فعل ، ذلك إن نحينا جانبا - وهو مالا نقدر عليه - مبادىء القرآن وتعاليم الإسلام .

ومات ابن الأحمر بعد أن جاوز الثمانين من عمره ، وقد ترك ملكا يحمل فى طياته كل بذور الشقاق والخلاف التى أضاعت كل بلاد الأندلس عدا غرناطة آخر معاقل الإسلام . ولا أظنه كان معذورا فى كل مافعله من تحالف مع النصارى ، ومساندة بالرأى والمال والسلاح فى القضاء على قواعد الإسلام ، مهما كان الدافع والهدف .

المدجنون والتجار والفرسان والشعب

كان يعيش فى هذه البلاد طائفة المدجنين ، وهم الذين أبقوا على بقايا الإسلام فى نفوسهم ، واحتفظوا ببعض من تعاليمه ، وتسموا بأسماء صارت تفارق العربية رويدا رويدا ، يبيعون ويشترون من النصارى ، حسب ماانتهى إلى أيدينا من صكوك البيع والهبة ، والتى لاتزال محفوظة فى بعض المكتبات ، وفى كثير من الكنائس والكاتدرائيات .

وكان هؤلاء يضمرون الإسلام ولكن ليس بالقدر الذى يجعلهم يستشهدون فى سبيله ، وكانوا يودون لو انتهت تلك الحروب والمهالك والفتن ليخلد الجميع إلى الراحة والدعة .

وكان يعيش فى هذه البلاد كذلك طائفة التجار باختلاف أصنافهم واختصاصاتهم ، وكانوا يودون لهذه الحرب أن تبقى ، فهى سر قوتهم وثروتهم ، فمن خلالها يبيعون ويشترون ، وتكثر أموالهم ، وهم متسامحون متساهلون ولكنهم أكثر تمسكا من الفئة الأولى ، وهم إلى الإسلام أقرب رغم حرصهم على المال وجمعه .

كما كان يعيش فى هذه البلاد أصحاب الحرف الصغيرة وصغار الباعة والتجار ، وهؤلاء

متمسكون بقواعد الدين ، يحافظون على الصلاة ويحرصون على أحكام الإسلام ويمثلون عددا كبيرا وقطاعا له أهميته .

وكان هؤلاء هم الورقة الرابحة التى يستخدمها الملوك والحكام عندما يلوحون بورقة الإسلام .

وكذلك كان يعيش فيها طبقة رفيعة من الفرسان الذين أتقنوا فن الحرب والقتال ، ومن يستخدمون فى مجابهة النصارى وقتالهم ، وكان عدد هؤلاء يزداد مع مر السنين والأيام . وهؤلاء هم طبقة المجاهدين الصادقين .

وقد كان بين هؤلاء عدد ليس بالكثير، يحترف الحرب ويبيع فنه وقدرته على القتال لمن يدفع أكثر ، ومن بين هذه القلة كانت البطانة الحقيقية لملك يريد الاحتفاظ بعرشه بالطريقة التى يريد ، أو لمتوثب فتنة يرى فى نفسه كفاءة وقدرة لصنع حرب جديدة وعرش جديد .

وهكذا كان عالم غرناطة فى تلك الأيام ، عالما غريبا قد اختلطت فيه المفاهيم ، وامتزجت القيم غثها وثمينها ، والنصارى يطبقون عليه فيخنقون أنفاسه ، وهو يحاول جاهدا أن يشق طريقا إلى الحياة ، وإلى التطبيق الحقيقى للقرآن ، ورفض كل الفتاوى الهزيلة المريضة التى غيرت الأحكام والمبادىء وصنعت إسلاما جديدا غريبا فى نفوس الناس . فقد كان هناك بجوار المجاهدين بالسلاح مجاهدون آخرون يرسمون صورة مثلى نقية لما ينبغى أن يكون عليه الحال .

محاولات طلب النجدة من العالم الإسلامى

وكان يعيش فى هذه البلاد الإسلامية آنذاك قلة يسيرة من العلماء والأدباء ، قد وهبوا حياتهم وأنفسهم من أجل شرح القضية الأندلسية لسائر أقطار المسلمين فى كل أنحاء الأرض ، فهم يتجشمون مئونة السفر ونفقته التى كانت كثيرة فى تلك الأيام لعمل سفارات ناجحة لعلها تجذب إلى هذا البلد الذى يحتضر جيوشا جديدة يدفعون بها غائلة العدو عن ديارهم المنهكة التى أوشكت على السقوط .

وقد روت لنا كتب التاريخ أخبار هذه الطائفة ، ومشقة ماقاموا به من جهد فى طلب النصرة والمؤازرة ، ورأينا فشلهم فى كل سفارة ، وضياعهم فى كل حاضرة من حواضر المسلمين .

كان الحكام يقولون لهم كلاما غير مفهوم ، ويقدمون لهم وعودا معسولة ، وبقية الشعب ممن يسمعون أخبار المأساة من السفراء يرفعون أيديهم بالدعاء وأصواتهم بالبكاء . وكان غاية مايقدمونه أن يجمعوا نفقات الرحلة ليستطيعوا العودة إلى ديارهم فيدبرون أحوالهم قبل السقوط المزمع أن يكون .

ولعل من جاوز هذا هو السلطان المملوكى المصرى « جان بلاط » الذى خافه فرناندو فأرسل له سفارة تهدئة ، ورد عليه السلطان بسفارة أخرى تهدده ، ثم نسى كل واحد منهما ماكان وانشغل بما هو فيه .

الغلبة فى الشرق والانهيار فى الغرب

كان ماتبقى من عالم الإسلام فى الغرب يوشك على السقوط . بينما أخذت إمبراطورية عظيمة مكانها فى شرق الأرض لحماية الإسلام ، وشقت طريقها فى الوجود بفيالق جبارة ، وهى تسحق فى طريقها بخيلها بلدانا كثيرة ، وتبدد مع الغرابة والعجب جيوشا للإسلام لها قوة ومنعة ، وياليتهم اتحدوا جميعا وأخذوا مكانهم إلى الغرب ، حيث الصليب الذى يرفع فوق المآذن ، والمساجد التى تتحول إلى كنائس .

وسنعود إلى ذكر الإمبراطورية العثمانية ، وهى التى نعنى فى موضع آخر .

غرناطة تواجه المحنة وحدها

وهكذا وجد شعب غرناطة المسلم نفسه وحيدا فريدا قد اجتمع حوله أعداء أقوياء ، وتركه أصدقاء سفهاء يواجه محنته وحده ، وقد يرسلون إليه عبر البحر بالفتاوى المجهدة التى تزيد الأمر تعقيدا ومرارة .

هكذا كان الحال فى غرناطة الإسلامية ، بلد يوشك على السقوط فى يد النصارى ، وشعب يستغيث ولامغيث . وصار المجتمع الغرناطى صورة لبلاد الأندلس أيام تمزقها وحيرتها على مستوى الجزيرة كلها .

وقويت ممالك النصارى ، وجاء الوقت الذى توجه فيه ضربتها القاصمة .

تذبذب السيادة بين المسلمين والنصارى فى الأندلس

يبدو أن السيادة الإسلامية كانت طوال مرحلة التواجد الإسلامى فى الأندلس فى جانب المسلمين ، وبدأت كفة الميزان ترجح لصالح الممالك النصرانية بعد سقوط طليطلة سنة ١٠٨٥ م ، لأنها كانت أول مدينة أندلسية إسلامية عظيمة يستولى عليها النصارى بقيادة ألفونسو السادس ، الذى كان له دور سياسى ودينى كبير فى حرب الاستلاب النصرانى ، التى يمكن أن نقول بحق إنها بدأت بداية حقيقية بسقوط طليطلة .

وكان الصراع بين الإسلام والنصرانية يأخذ طابعا دينيا فى أصله ، وإن تحول فى كثير من الأحيان إلى حملات للسلب والنهب تحت شعار الدين ، وكان الحال نفسه بالنسبة للجانب الإسلامى ، وإن تغلب جانب الجهاد والحرص على إقامة الدين والدفاع عنه .

أمراء الطوائف ودورهم فى الانهيار وضياع السيادة الإسلامية

وكان الممكن أن يستمر التغلب ، وتدوم السيطرة للمسلمين فى هذه البلاد بعد معركة الزلاقة سنة ١٠٨٦ م التى تغلب فيها المسلمون على النصارى ، وتم توحيد البلاد الأندلسية فى حكم المرابطين باستثناء جيوب صغيرة وبخاصة فى الشمال الشرق ، ولكن المرابطين فوجئوا باختلاف الطوائف وأمرائهم ، الأمر الذى أضعف شوكة المسلمين ، فقد كان لزاما على يوسف ابن تاشفين وجيوشه أن يواجه عدوين شرسين : النصارى وفى جيوشهم كل فرسان الغرب

المسيحى ، بعد تعميمات البابوات بضرورة ذهاب الأمراء فى جيوشهم لعون المسيحيين ، ودول الطوائف التى كانت لها الجيوش الجيدة المدربة على أحسن درجة من التدريب . وهو الأمر الذى أضعف الجانب الإسلامى بشكل واضح ، وأثر على سير المعارك بشكل عام .

الحروب الصليبية فى الشرق وأثرها على المسلمين فى الغرب

واستطاعت البابوية أن تفتح للمسلمين جبهة فى الشرق ، ولعل صراع الحروب الصليبية فى الشرق الإسلامى لم يبدأ حقيقة إلا بعد معركة الزلاقة التى انهزم فيها القشتاليون .

ولعل فتح هذه الجبهة فى الشرق جعل الأمل فى إنقاذ مسلمى الأندلس ضعيفا جدا ؛ فقد كانت الحملات الشرقية الصليبية شرسة ومجهزة أحسن تجهيز ، بالإضافة إلى التمويل المالى لهذه الحملات الذى فاق قدرة المسلمين آنذاك . وشغل كافة الدول الإسلامية فى الشرق فى محاولة القضاء على الحملات الأوربية ، رغم محاولات التنسيق والتفاهم التى جرت بين صلاح الدين الأيوبى والسلطان أبى يعقوب المنصور ، ولكنها باءت بالفشل جميعها ، فقد ضعف سلطان الدين فى نفوس الملوك والسلاطين وكثير من عامة الشعب .

البابا يلقى بثقله للقضاء على الإسلام فى الشرق والغرب

وبعد معركة الزلاقة التى انتصر فيها المسلمون ، بدت سياسة القضاء على الإسلام فى الأندلس واضحة أشد الوضوح ، فقد ألقى البابا بثقله فى المعركة ، واستخدم نفوذه الدينى العظيم وأثره على أمراء الغرب ، واستطاعت فرقة من الكرادلة تنسيق الاستراتيجية العامة للمعارك .

فهناك قسم من الأمراء عليه واجب دينى وهو التقدم إلى إسبانيا لمساعدة القشتاليين ، وقسم آخر لمعارك الشرق .

لهذا لم يكن من الغريب أن نجد فى حصار المدن الأندلسية الكبرى فرسانا من فرنسا وبريطانيا والفلاندرز وسائر الممالك الأوربية على رأس قواتهم فى المعارك الشهيرة بين المسلمين والنصارى .

ولكن روح الإسلام الغالبة ، والمجاهدين المسلمين الذين ملأ قلوبهم الحماس والإيمان قد استطاعوا – رغم كل عوامل الضعف الكامنة فى المعسكر الإسلامى – الانتصار فى معركة « الأرك » بقيادة أبى يعقوب المنصور خليفة الموحدين فى سنة ١١٩٥ م ، وذلك بعد حوالى مائة عام من نصر الزلاقة المرابطى .

ولعل معركة « الأرك » الشهيرة كانت آخر زبالة فى المصباح الإسلامى بأرض الأندلس ، فبعدها لم ينتصر المسلمون فى معركة كبيرة أبدا حتى تم طردهم بشكل نهائى من هذه البلاد ، وإنهاء كل معالم الدين الإسلامى فى نفوس الناس ، وفى سائر مظاهر الحياة بالمجتمع الأندلسى .

وبدأ مصير الأندلس الإسلامية يهتز ، وتعاونت جميع العناصر على إنهاء هذا الوجود فى تلك البلاد . ولعلنا لاندرى على وجه التحديد من قام بالدور الأكبر فى نهاية الإسلام هناك . هل هم النصارى ؟ أم المسلمون ؟ أم الاثنان معا ، وكل قد قام بدوره خير قيام ؟

ولله الأمر من قبل ومن بعد !

وجاءت بعد معركة « الأرك » معركة « العقاب » سنة ١٢١٢ م وهزم فيها المسلمون هزيمة ساحقة تحت قيادة أمير الموحدين محمد الناصر بن أبى يعقوب المنصور أعظم خلفاء الموحدين

المسلمون يتقهقرون والنصارى يتقدمون

وبدأت الرؤية تبدو جلية بوضوح أمام كل العناصر التى يعنيها الأمر .

شمس الإسلام تغرب من إسبانيا .

وحرب الاستلاب المسيحية تأخذ مكانها المخطط المنظم فى استرداد هذه البلاد إلى حظيرة النصرانية .

والمسلمون فى شغل شاغل عن كل هذا ، واستطاع عدوهم أن يشغلهم وأن يفسد عليهم خططهم وتدبيرهم ، وأعانه على ذلك قوم آخرون يتسمون بأسماء إسلامية ، ويتواجدون فى المسجد أثناء أداء الصلوات .

وتوالى سقوط المدائن الكبرى والقواعد الإسلامية العظيمة واحدة بعد الأخرى ، وتم هذا على مرأى ومسمع من العالم أجمع ، هذا رغم الجيوش الإسلامية الجبارة فى الشرق .

عوامل إلهية تؤخر السقوط لأجل معلوم

كان من الممكن للأندلس الإسلامية أن تسقط فى يد النصرانية فى أعوام قلائل بعد معركة العقاب ، ولكن الذى حال دون هذا ظهور مملكة غرناطة فى تلك الآونة التى تلت ضعف الموحدين ، بالإضافة إلى الخلافات الشديدة التى ظهرت آنذاك بين الممالك النصرانية الممثلة للوجود الصليبى فى إسبانيا .

ولعل من أسباب شدة الخلاف ، شعور الجميع بقرب جنى الثمرة وهى سقوط الأندلس وانتهاء الوجود الإسلامى هناك ، وكل الممالك تريد أن تأخذ نصيبها من الأسلاب ، وقد أجلت هذه العوامل مجتمعة السقوط الأخير أكثر من قرنين ونصف ، جاهد فيها الشعب الغرناطى من أجل البقاء والحفاظ على تراث الإسلام ، فقد كان العدو أكبر وأعتى ، والمخطط أكثر شمولا ودقة فى القضاء على الإسلام هناك .

ظهور الجمعيات الدينية النصرانية

وقد كان الخلاف بين الممالك النصرانية فى الأندلس كبيرا ، ولكن ليس بنفس القدر الذى كان عليه الخلاف بين أمراء المسلمين فى القواعد المختلفة . وكان المسلمون يستعينون بالنصارى على إخوانهم ، ولم تتواجد هذه الظاهرة بنفس الدرجة فى الجانب المسيحى ، وقد ظهرت جمعيات

دينية متعصبة وقوية فى الجانب النصرانى ، صارت تقوم بالعمليات الحربية ضد المسلمين متأثرة بالخلاف النصرانى على مستوى الحكم ، بل كانت تعمل فى مخطط واحد يحدوها شعور دينى عميق أحدث فى المسلمين ضربات قاصمة ، وكان تأثيرهم أعظم من الجيوش النظامية .

وقد ظهرت هذه الجمعيات الدينية المسيحية فى شرق الأرض وغربها ، وأنتجت أنماطا خاصة كان لها أكبر الأثر على سير المعارك . ومنها على سبيل المثال وليس الحصر .

جماعة فرسان المعبد (الداوية) .

فرسان القديس يوحنا (الإسبتارية) .

ثم فرع جماعة فرسان المعبد فى مملكة أراجون أيام ألفونسو المحارب .

وقد انضم إليها الكونت ريمون برنجار أمير برشلونة المسيحى . وكان لها دور خطير ضد المسلمين فى الأندلس .

ثم اتفقت الأديرة والكنائس على عمل نظام عسكرى خاص فى منطقة شمال شرق إسبانيا أطلق عليه جمعية القديس يوليان ، وسميت بعد ذلك جمعية فرسان القنطرة .

ثم كانت أقوى الجمعيات الدينية المسيحية فى ذلك العصر بعد ذلك ، وماأطلق عليه « فرسان قلعة رباح » وقد أنشأها مجموعة من الأحبار والرهبان الورعين ، الذين جعلوا للصراع طابعا دينيا محضا ، بعيدا عن المكاسب الدنيوية والاستيلاء على الأراضى بغرض الثراء والرفاهية والسلطة ، بل كان كل هدفهم هو القضاء على الإسلام واستعادة هذه الأراضى لسلطان الكنيسة .

وتوالى ظهور فروع لهذه الجماعات فى كل بلاد إسبانيا المسيحية .

الجهاد الإسلامى الشعبى

وقد قابل ذلك - أو كان يواكبه - جماعات مختلفة من المسلمين المجاهدين المرابطين على الثغور حيث نقاط التماس المسيحية الإسلامية .

وتكونت هذه الجماعات من المهاجرين الذين وفدوا من سائر بلاد الشرق الإسلامى ومن بلاد الغرب ، ومن المدن التى غلب عليها النصارى .

وكانت تحدوهم مشاعر دينية عميقة ، ولكنهم كانوا فقراء ، لم يقدم لهم أحد يد العون ، إلا بعض التجار وأهل الثراء من المسلمين ، ولكن ليس بالقدر الذى كانت عليه الجمعيات الدينية المسيحية ، ولم يكن أثرهم بأى حال يقابل أثر جماعات الفرسان النصرانية ، التى كان لها دور كبير فى بعض الأحيان فى حسم المعارك ضد المسلمين .

وكان كل هذا انعكاسا للواقع السياسى والدينى فى العالم آنذاك !

فالبابا فى روما له أعظم النفوذ والتأثير على كل ملوك وأمراء المسيحية فى أوربا . والخليفة العباسى الذى يواجهه من الناحية الأخرى كان له أثر اسمى فقط ، ولم يكن له التأثير المطلوب فى توجيه المعارك وتوحيد الأمراء ، بل كان ألعوبة فى يد المتغلبين ومأأسهل قتله والإتيان بغيره ، ولم يكن ينظر إليه بنظرة فيها تقدير واعتبار إلا فى نفوس الجماهير الإسلامية المغلوبة على أمرها ، والبعيدة كل البعد عن مناطق التأثير والتغيير وصنع القرار .

شعوب لم تكن تملك إلا إفراز الجمعيات الدينية التى ترابط على الثغور ليس لديها المئونة والذخائر للمقاومة والجهاد . وسرعان ماتطأها سنابك خيل النصارى ، فى صورة من الجهاد المؤثر والاستشهاد البليغ .

النصارى يستعينون ببعض الأمراء المسلمين

كان الخلاف بين الممالك النصرانية من سمة هذا العصر ، وكانوا يستعينون بالأمراء المسلمين في حروبهم ضد بعضهم وبعض ، وكان يتم هذا ضمن خطط موضوعة ، ينسق بينها البابا والكرادلة ورجال الدين ، وكان الهدف من كل هذا استنفاد موارد الإمارات الإسلامية ، وتبديد جيوشها فى الحروب التى تؤدى فى النهاية إلى توحيد إسبانيا النصرانية فى مواجهة الوجود الإسلامى هناك .

وكان الخلاف بين الممالك الإسلامية من سمة هذا العصر أيضا ، وكانوا يتحالفون مع ملوك النصارى فى توطيد سلطانهم ، رغم أن هذا يخالف تعاليم الإسلام الواضحة المعالم فى القرآن وتفاصيل السنة النبوية .

ولم تكن تحكم هذه السياسة البالغة الخطأ استراتيجية واضحة المعالم ، بل كانت نتيجتها دائما ضياع أراض من الجانب الإسلامى ، ولم يكن هناك حكم يحكم بين الأمراء المسلمين ، يرجعون لحكمه ويأتمرون بأمره ، مثل البابا فى الجانب النصرانى .

وهكذا كان شكل الصراع بين المسلمين والنصارى !

أمة مسيحية تكونت فى إسبانيا فى غفلة من المسلمين ، تحكمها استراتيجية واضحة ، يتقدم لها بالمساعدة كل مسيحيى الأرض ، وعلى رأسهم البابا ، وهى تسير إلى تحقيق أهدافها قدما بخطوات واضحة ، فى هدف متفق عليه ، يؤثر فيه سلبا بعض الخلاف ، ولكنهم يكسبون دائما أراضى جديدة ، ويعرفون ماذا يريدون على وجه التحديد .

وأمة من المسلمين قد اختلطت أهدافها وتمازجت ، ولم تعد لها استراتيجية واضحة المعالم ، وغاية ماتفعله هو رد فعل لما يفعله بها جيرانها النصارى .

أمراء قد فقدوا الدين والشرف ومعانى الفروسية الحقة ، وشعب مسلم مجاهد يدرك معنى الدين يقوده هؤلاء الحكام وهو فى حيرة بينهم وبين العدو النصرانى الغالب .

موت ابن الأحمر وولاية محمد الفقيه

تكونت مملكة غرناطة فى هذه الظروف وحكمتها تلك المفاهيم .

تغلب ابن الأحمر على تلك الناحية وشارك فى القضاء على ابن هود ، الذى كان يمثل أملا فى التحرر آنذاك ، واشترك ابن الأحمر فى سقوط إشبيلية ووضع فرقة من جيشه تحت إمرة فرناندو الثالث « القديس » أثناء الحصار ، وأقنع أصحاب الحصون وكافة أمراء المدن بالتسليم حقنا للدماء وحرصا على أحسن الشروط ، ثم انزوى داخل مملكته يقاوم المتغلبين والمتوثبين الذين كانوا يغلفون أهدافهم بمبادىء إسلامية سامية للتخلص من نير النصارى . وكانوا فى الواقع يعملون جاهدين على تعجيل النهاية .

وشعب مسلم لم يكن أمامه غير الجهاد وتقديم المال والروح فى سبيل الله ، ويجتهد فى سبيل تحقيق هذا دون قيادة تعرف ماذا تريد .

مات ابن الأحمر فى الثمانين من عمره على أثر سقطة من فوق جواده ، وخلفه فى الحكم أبو عبد الله محمد الملقب بالفقيه ، وهو الذى وضع القواعد ورتب المراسيم لقيام الدولة النصرية ، وخلع عليها شكل المملكة بكافة تقاليد الملك وأشكاله .

وكان يعاصر ألفونسو العاشر ملك قشتالة الذى سار على نهج أبيه فرناندو الثالث « القديس » وكان ألفونسو يلقب « بالحكيم » .

ولم يكن محمد الفقيه أكثر من ملك يحاول تثبيت ملكه بقهر الشعب ونشر الشرطة بين الجماهير ينقلون إليه الأخبار ، ومن ثم ينكل بكل من ينادى بالتخلص من التبعية لقشتالة التى كان لها - رغم الصراع - الكلمة الأولى فى السياسة الداخلية والخارجية لشئون البلاد .

الحليف المسلم الوحيد للمسلمين فى غرناطة

وكان من حسنات ابن الأحمر أن أوصى ولده محمد الفقيه أن يستعين دائما بالملوك من بنى مرين الذين قاموا فى المغرب على أنقاض الموحدين ، وكانوا لايزالون فى صراع لتثبيت دعائم ملكهم مع فلول الموحدين المنتشرين فى الجبال ، وفى بعض المدن والمناطق ، الأمر الذى حال دون تقديم المساعدات الفعالة فى دعم الغرناطيين ضد القوى النصرانية التى أوشكت على الوحدة والانسلاك فى دولة واحدة .

وكانت قشتالة قد أرسلت إنذارها الشهير الحاسم بتسليم كافة الحصون والمدن والرضوخ لسلطان النصرانية ، أو هى الحرب غير المأمونة العواقب بالنسبة للجانب الإسلامى .

فالنصارى يعلمون أنهم أمام عدو إسلامى قد نخر السوس والفساد فى مملكته ، وهم يقفون أمامهم دون معين أو نصير .

وأرسل محمد الفقيه ، ملك غرناطة ، سفارة من الفقهاء والكبراء إلى سلطان المغرب أبى يوسف يستصرخه ويطلب منه العون ، على النحو الذى فعله المعتمد بن عباد وسائر أمراء الطوائف فى أواخر أيامهم ، عندما استنجدوا بأمير المرابطين يوسف بن تاشفين ، ولكن جاء هذا فى وقت قد غلب فيه القدر ، وتغيرت الظروف ، وتبدلت الأحوال ، وكانت الأمور تجرى بالمقادير التى رسمتها الأحداث وصنعتها السياسات الخاطئة لقائمة طويلة من السلاطين والأمراء فى الأندلس وبلاد المغرب والتى أدت فى النهاية إلى الضياع .

محمد الفقيه يستنجد بالسلطان أبى يوسف الأول

وكتب محمد الفقيه رسالة طويلة مؤثرة للسلطان أبى يوسف،ومما جاء فيها :

« تطول علينا بمعلوم حدك ، ومشهود جدك ، قد جعلك الله رحمة تحيى عيشها بجيوشك السريعة ، وخلفك سُلّما من الخير وذريعة ، فقد تطاول العدو النصرانى على الإسلام ، واهتضم جناحه كل الاهتضام ، وقد استخلص قواعدها ، ومزق بلدانها ، وقتل رجالها وسبى ذراريها ونساءها ، وغنم أموالها . وقد جاء بإبراقه وإرعاده ، وعدده وإيعاده ، وطلب منا أن نسلم مابقى فى أيدينا من المنابر والصوامع والمحاريب والجوامع ، ليقيم بها الصلبان ، ويثبت بها الأقسة والرهبان . وقد وطأ الله لك ملكا عظيما شكرك الله على جهادك فى سبيله ، وقيامك بحقه ، وإجهادك فى نصر دينه وتكميله ، ولديك من نية الخير ، فابعث باعث بعثك إلى نصر مناره ، واقتباس نوره ، وعندك من جنود الله من يشترى الجنات بنفسه ، فإن شئت الجنة فالأندلس قطوفها دانية ، وجناتها عالية ، وإن أردت الآخرة فبهاجها لا يفتر ، وهذه الجنة قد ادخرها الله لظلال سيوفكم ، واحتمال معروفكم ، ونحن نستعين بالله العظيم ، وبملائكته المسومين ، ثم بكم على الكافرين »[1] .

كل هذا بلا فائدة ، فقد كانت المقدمات النكدة لاتؤدى إلا إلى نتيجة واضحة ، قد اشترك فى صنعها كل ملوك المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

---

(١) الذخيرة السنية لمؤلف مجهول عن أخبار دولة بنى مرين (الجزائر ١٩٢٠ م)

السلطان أبو يوسف المرينى الأول ودوره فى الدفاع عن غرناطة

وردّ سلطان بنى مرين ردا حسنا مطمئنا ، وكانت دولة بنى مرين فى أول عهدها وكسائر الممالك الإسلامية تكون فى نشأتها متجردة تحدوها روح الجهاد فى سبيل الله ، وهو اعتمادها الأساسى فى جذب الجماهير إليها والتفافهم حولها .

واستطاع السلطان أبو يوسف أن يعقد بعض المعاهدات مع الخارجين عليه والمناوئين بنية الجهاد فى سبيل الله . واستجابوا له ، وعبر البحر فى اتفاق مع محمد الفقيه ونزل بثغر طريف ، وعاث فى أرض النصارى حتى شريش ، وقدم إليه محمد الفقيه .

وسرت روح جديدة فى بلاد الأندلس .

وعادت أمجاد المرابطين فى نصر « الزلاقة » ، وروح الموحدين فى معركة « الأرك » واستبشر المسلمون .

وأحدث جواز السلطان أبى يوسف رجة عظيمة فى كل بلاد الأندلس ، وتوجس النصارى خيفة من هذا التحالف الذى نتج عنه جواز الجيوش المغربية .

ولكن عوامل الضعف والانحلال والتمزق سرعان ماعملت عملها ، وبدأ الخلاف بين حكام غرناطة وبين بنى أشقيلولة أصهارهم ومنافسيهم فى حكم غرناطة .

وفشلت كل محاولات السلطان أبى يوسف فى التوفيق بينهم .

ورغم أن محمدا الفقيه قد عاد إلى حاضرة ملكه فى غرناطة ، فإن السلطان أبا يوسف قد سار قدما فى جيشه متتبعا للنصارى حسب قدرته وإمكاناته العسكرية التى أضعفها تخلى محمد الفقيه عن تقديم العون الفعلى له ، على النحو الذى فعله المعتمد بن عباد فى الزمن القديم أيام يوسف ابن تاشفين .

استطاع السلطان أبو يوسف المرينى أن يرهب النصارى وأن يحطم الجيش القشتالى ، وأن يقتل قائده الدون « نونينو دى لارا » ، وأرسل رأسه إلى محمد الفقيه فى غرناطة ، الذى أرسلها بدوره مضمخة فى الطيب وفى لفافة من الحرير ، ومعها خطاب اعتذار إلى ملك قشتالة .

ويعجز العقل عن التحليل والتفسير .

ولله فى خلقه شئون .

وعاد السلطان أبو يوسف المرينى إلى بلاده فى المغرب ، وترك خلفه نصارى قد خبت فى نفوسهم الحماسة للقضاء على المسلمين إلى حين ، ومملكة للمسلمين فى غرناطة تحمل فى طياتها بذور الفناء .

ملك فى العاصمة هو محمد الفقيه ، وحاكم فى مالقة هو أبو محمد بن أشقيلولة الذى مات فسافر ولده إلى المغرب يستعين بسلطانها فأقره على مكانه فى مالقة ، مما زاد شقة الخلاف بين ابن الأحمر محمد الفقيه وبين حلفائه من المسلمين .

وصار من الواضح الجلى أن سلطان بنى مرين قد صارت له الكلمة العليا فى السياسة الداخلية لمملكة غرناطة .

تحالف محمد الفقيه مع ملك قشتالة .

وكانت الخطة الخالدة فى السياسة الأندلسية تحالف ابن الأحمر محمد الفقيه مع ملك قشتالة ، واستطاع الاستيلاء على مالقة ، وأرسل سفارة إلى أعداء أبى يوسف سلطان بنى مرين يؤازرهم ويناصرهم ضده .

واختلط الحابل بالنابل ، والقشتاليون يتحالفون مرة مع هذا ضد ذاك والعكس ، ونتيجة هذا كله ضياع المدن الإسلامية والتمكين للنصارى فى الأرض .

ويصعب على المؤرخ المنصف فهم اللعبة السياسية فى تلك الأيام ، وكيف كانت تدور .

بنو مرين والتحالفات النصرانية

وسرعان مارأينا بنى مرين يدخلون فى دائرة التحالفات النصرانية ، ولكن لنصر هذا ضد ذاك من ملوك قشتالة . فقد استغاث ألفونسو العاشر ، ملك قشتالة ، بالسلطان المرينى ضد ولده سانشو الذى ثار عليه،وعاونه النبلاء . وجاز السلطان البحر وقدم له ألفونسو تاجه رهينة بالوفاء لما اتفقا عليه من أجل المناصرة والمؤازرة . خلى ابن الأحمر محمد الفقيه نفسه بعيدا عن دائرة هذا الصراع ، ولكن المستشارين أشاروا عليه بمناصرة سانشو ضد أبيه ، وفعل ، ثم عاد وآثر أن يكون فى الجانب القوى ، رغم أن هواه مع سانشو . ولعل الحرب الأهلية القشتالية قد ساعدت كثيرا فى تأخر سقوط غرناطة .

النصارى بين بنى مرين وبنى الأحمر

لم يستقر الحال لبنى الأحمر فى حكم غرناطة مرة واحدة ، بل كانت الأمور بينهم وبين السلاطين من آل مرين فى حالة جذب وتنافر ، وكانوا يشاركونهم فى حكم بعض مدن الإقليم ، ثم يتنازلون عنها لبنى الأحمر . حسب علائق المودة . ووجهة النظر السياسية من جانب بنى مرين فى أرض المغرب ، وحسب ظروفهم من القوة والضعف ، وقدرتهم أو عدمها فى التغلب على مناوئيهم فى الجبال وفى تونس وغيرها .

وتوجس سانشو ملك قشتالة من تزايد قوة السلطان أبى يعقوب الذى خلف المنصور من بنى مرين فى حكم المغرب . فعقد محالفة مع ابن الأحمر ، وقد صار اللقب علما على كل أبناء محمد بن يوسف بن الأحمر الذى تغلب على غرناطة من قبل .

واستطاع سانشو بهذا التحالف أن يستولى على جزيرة طريف ، ورفض أن يسلمها لابن

الأحمر – كما وعده من قبل – وأدرك ملك غرناطة خطأه ، وعادت لعبة الاعتذار ، وأرسل وفادة للصلح مع ملك المغرب وقد تمت بنجاح .

وحاولت المغرب استعادة « طريف » مرة ثانية بلا فائدة .

وتصالح محمد الفقيه مع ملك أراجون صلحا حقيقيا أبديا كما نصت المعاهدة ، وأن يكون كل منهما عونا للآخر ضد أعدائه سواء كانوا من المسلمين أو من قشتالة . وأن تسير التجارة بين البلدين فى يسر ورخاء .

تدهور العلاقات بين بنى مرين وبنى الأحمر أيام المخلوع

خلف محمدا الفقيه ولده أبو عبدالله الملقب بالمخلوع وكان ضريرا .

وكان ذلك فى شعبان سنة ٧٠١ هـ مايو ١٣٠٢ م .

تحكم فيه وغلب عليه وزيره ووزير أبيه أبو عبد الله محمد بن الحكيم اللخمى ، وفى عهده ساءت العلاقات بين غرناطة ودولة بنى مرين المغربية الحليف الطبيعى لهم . الأمر الذى أدى إلى ظهور مؤامرات داخل البلاط المغربى ، كان نتيجتها قتل السلطان أبى يعقوب غيلة ، فى ذى القعدة ٧٠٦ هـ أبريل ١٣٠٧ م وقيام حرب أهلية بين ولديه أبى ثابت وأبى سالم ، انتهت بمقتل أبى سالم واستقرار العرش لأبى ثابت ، الذى لم يستقر له العرش إلا بعد سلسلة من الحروب الأهلية العنيفة ضد مناوئيه ، وكان من أجرئهم وأشدهم أبو العلاء المرينى أحد أبناء عمومته ، الذى بدأ حركته أيام السلطان أبى يعقوب ثم استفحل أمره بعد اغتياله .

وكل هذا كان يؤثر سلبا أو إيجابا فى التحالف والتناصر بين غرناطة وجيرانها المتربصين بها من النصارى فى قشتالة وأراجون .

سقوط جبل طارق فى يد النصارى وأثره السياسى

ثار أهل غرناطة على أبى عبد الله محمد المخلوع الضرير ، وكان على رأس الثورة أخوه أبو الجيوش نصر بن محمد الفقيه .

بدأت الثورة فى أول أيام عيد الفطر عام ٧٠٨ هـ عام ١٣٠٩ م ، وقتل الوزير ، وخلع السلطان ، ونفى إلى « المنكب » ثم عاد فمات مخلوعا فى غرناطة بعد خمس سنوات .

وكانت « سبتة » آنذاك تحت حكم الملوك من بنى الأحمر ، وانتهز المغربيون هذه السانحة فطردوا الأندلسيين منها .

ولم يكن سلطان غرناطة الجديد على علم بالسياسة وتدبير الحكم رغم ولعه وشغفه بالعلوم والرياضيات التى كانت له فيها تآليف كثيرة .

وساءت علاقته بحلفائه من بنى مرين فى بلاد المغرب ، الأمر الذى شجع القشتاليين فى مشروعهم الجرىء للاستيلاء على جبل طارق .

واستجاب خايمى الأول ملك أراجون لطلبات فرناندو الرابع ملك قشتالة ، رغم المعاهدة الأبدية التى بين خايمى وملوك بنى الأحمر . وحاصرت قوات خايمى وأساطيله ميناء « ألمرية » ليعطى الفرصة لفرناندو بالتصرف البرى فى منطقة جبل طارق ، بينما ظلت القوة المغربية على الحياد لسوء العلاقات بينها وبين بنى الأحمر .

واستطاعت « ألمرية » أن تصمد أمام الحصار وأن تنجو من السقوط .

ورغم هزائم النصارى أمام جبل طارق فإن إصرارهم على الحصار الطويل أدى إلى سقوط جبل طارق فى النهاية أواخر ٧٠٩ هـ مارس ١٣١٠ م .

وأدرك ابن الأحمر خطأ السياسة المبنية على عداء بنى مرين فى المغرب ، فأرسل سفارة إلى سلطانهم يطلب الصفح ويعتذر ، وكالعادة قبل منه ذلك بشرط التنازل عن بعض الحصون والمدن .

وبسقوط جبل طارق كسر الجسر الطبيعى بين الأندلس والمغرب الذى كان له أكبر الأثر فى رد الهجمات النصرانية على القواعد الإسلامية هنا وهناك .

واضطر سلطان بنى الأحمر - من وجهة نظره - إلى إعادة التحالف مع فرناندو الرابع ، وذلك لانشغال بنى مرين بظروفهم الخاصة ، وعدم قدرتهم على نجدة المسلمين فى سلاسة ويسر كما كانوا يفعلون من قبل .

واضطربت غرناطة بعوامل الثورة لما يرى الشعب من عبث حكامه بمصائر البلاد ، ومن تحالفهم الذى لاينقطع مع النصارى وأعداء الإسلام .

وأعلن فرج بن اسماعيل النصرى صاحب مالقة وابن عم السلطان العصيان على السلطة الشرعية ، ودعا لنفسه ، واستطاع التغلب على « ألمرية » و « بلش » وسائر مدن الجنوب الأندلسى .

وفى أوائل ٧١٢ هـ ١٣١٣ م دخل السلطان أبو سعيد فرج بن إسماعيل النصرى غرناطة وأجبر السلطان نصر على التنازل عن العرش بعد معركة عسكرية هزم فيها الأخير .

وبدأت قشتالة تفكر فى مشروع جديد يحقق استرداد كل هذه الأراضى من أرض المسلمين ، فى ظروف بدت كأحسن ماتكون لتحقيق مثل هذه الأهداف .

رياح التغيير تهب على غرناطة .

تولى السلطان إسماعيل حكم غرناطة بعد أبيه فى ٧١٣ هـ ١٣١٤ م .

وكانت غرناطة تحكمها عوامل شتى ، مابين هزائم عسكرية عديدة أمام القشتاليين والمتوثبين ، وحكام المغرب ، العون الطبيعى والنصير الحقيقى لبلاد الأندلس ، بعد أن خبت فكرة الاستعانة بمسلمى المشرق ، ومابين حكومات هزيلة متعاقبة صار الفساد فيها تقاليد تورث ، وتنتقل من عقب إلى عقب فى هون ويسر ، وكأن قانون الوراثة الذى يسرى على الأحياء هو الذى يحكمها ويحدد مسارها ، ومابين شعب غنى قادر ، قد جمعت له الثروة مع أغنياء المهاجرين والمدجنين الذين وفدوا إلى المملكة من سائر قواعد الإسلام التى ضاعت عبر معارك القرون ، وجمهور قد جاء إلى غرناطة بكل مافى العادات القشتالية من روح تجافى الدين وتتناقض معه .

ونقلوا إلى غرناطة كل العادات الغربية التى كانت حديثة عهد بالمسلمين ، ومن أطرف هذه العادات - التى كانت مثار غضب أكثرية المجاهدين الصادقين - الولائم التى كانت تحضرها النساء مع الرجال . والتى صدر بشأنها مرسوم سلطانى يحرم إقامتها .

وهناك عامل آخر كان له الأثر الأكبر فى تحريك الأحداث داخل غرناطة المسلمة ، وهو الجماعات الإسلامية التى تكونت فى الأرباض والأحياء المختلفة ، تحت إمرة بعض العلماء من ذوى الاجتهاد الحسن والتوجه الصحيح والرغبة الخالصة فى أداء الواجب الإسلامى ، على مافى ذلك من تكاليف كبيرة آنذاك .

وقد انعكس كل هذا على الحكومة ، إذ وجد فيها من يستطيع التجاوب مع هذه الأفكار التى يمور بها المجتمع .

وقد وجدت غرناطة ضالتها المنشودة فى السلطان إسماعيل ابن السلطان فرج النصرى .

وكان الجانب القشتالى يظن أن الفرصة قد سنحت لاستلاب غرناطة من أيدى المسلمين .

هزيمة المسلمين فى وادى فرتونة

ففى أوائل عهد السلطان إسماعيل والدولة منشغلة بالتغيرات التى تحدث عقب وصول أى سلطان جديد إلى الحكم هجمت قشتالة بجيوشها وعاثت فسادا فى كافة القرى والبلاد والزروع المحيطة بغرناطة ، واستطاع جندها الحصول والاستيلاء على كثير من القواعد والحصون ، ثم أنزلوا بالمسلمين هزيمة منكرة فى وادى فرتونة فى عام ٧١٦ هـ ١٣١٧ م .

وزادت الحماسة القشتالية ووجهوا قواتهم إلى الجزيرة الخضراء لمنع وصول المدد من بلاد المغرب .

وكانت الجزيرة الخضراء محصنة منيعة ، فتوجهت القوات القشتالية تدفعها الحماسة دون تخطيط مسبق إلى حاضرة غرناطة للاستيلاء عليها وإنهاء الوجود الإسلامى بشكل نهائى فى كل بلاد الأندلس .

البابا يحاول إنهاء المسألة الإسلامية فى الأندلس

وعلمت أوربا وأخطر البابا بذلك التحول الخطير فى الخطط القشتالية ، واستعمل نفوذه الدينى لاجتناء الثمرة التى آن أوان قطافها .

حاصرت غرناطة جيوش جرارة على رأسها الدون بيدرو أحد الأوصياء على ألفونسو الحادى عشر وكان طفلا آنذاك . وفى الجيش فرقة من القوات الإنجليزية يقودها أمير ويلز ، ومتطوعة من فرنسا والفلاندرز وسائر بلاد أوربا امتثالا لأوامر البابا فى الانتهاء من المسألة الأندلسية .

ونظراً للعلاقات السيئة التى كانت بين ملوك بنى الأحمر والسلاطين من بنى مرين فى بلاد المغرب ، فقد رفض السلطان أبو سعيد المرينى تقديم يد العون إلى غرناطة المحتضرة للثقة المفقودة بين الدولتين .

ولكن غرناطة فى ذلك الوقت كانت منطقة جذب للمجاهدين الصادقين الفقراء من أهل المغرب بحماستهم الآثرة فى حماية الإسلام . وكانوا يجتازون البحر لنصرة من فى غرناطة من إخوانهم المسلمين دون إذن من حكومة أو رئيس .

ووجد سلطان غرناطة فى صفه جيشا من المتطوعين المسلمين المغاربة يقودهم جندى جرىء شديد البأس ، هو شيخ الغزاة أبو سعيد عثمان بن أبى العلاء من أهل المغرب الذى كان شعبها يغلى غليانا شديدا رغبة فى نصرة الإسلام ، وذلك بالوقوف أمام أعداء الأندلس الجريحة التى تنزف دما .

وعلى عجل تكون للدفاع عن غرناطة جيش يحمل فى طياته كل عوامل النجاح والانتصار ، ومن أهمها الرغبة الصادقة فى الاستشهاد والموت فى سبيل الله . وعلم الجانب القشتالى بنية المسلمين من أهل غرناطة فى الاستبسال دفاعا عن المدينة ، وهى آخر ماتبقى من أرض الإسلام السليبة هناك .

وجاء الدون خوان الوصى الآخر على عرش ألفونسو الحادى عشر . وطارت تعميمات البابا وأوامره إلى كل الأمراء فى كل بلد يعبد فيها الصليب .

وتوالت الجيوش النصرانية زحفا إلى زميلاتها المنتشرة فى بسائط غرناطة ، وأحاطت بالمدينة الصامدة ، وانتشر الرهبان والأحبار بين الجند والقواد ، يزكون حماسهم ويباركونهم فى حربهم المقدسة ، ويبشرونهم بالمقام الرفيع فى جوار المسيح وأحضان القديسين .

غرناطة تصد الهجمة الصليبية

وهنا وبالمعايير المادية البحتة نستطيع القول إن المدينة قد حكم عليها بالسقوط والفناء . فهى ضعيفة الموارد ، وعدد المقاتلة فيها قليل . وأمامها جيش قادر منظم يستطيع غزوها بسهولة ويسر .

ولكن هناك عوامل غيبية قد تتدخل فى شكل الحياة ، بطريقة لانفهمها ولأسباب لانعلمها ، فتقلب الموازين وتكسر القوانين ، ومن ثم تختلف النتائج عن سائر ماعرفه الناس وألفوه ، ولو أن هذا التغير والتدخل يخضع لقانون من الصعب على الناس أن يعرفوه أو يألفوه . وهو أن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون ، كما بيَّن ذلك القرآن الكريم ، فلله أمر هو بالغه ، يحققه من خلال القوانين ، أو عندما تجتمع كل القوانين على نتيجة محتومة فى نظر الناس ، ولكنها ليست كذلك فى إرادة الله سبحانه وتعالى وعلمه .

أوكل السلطان إسماعيل بن الأحمر شيخ الغزاة أبا سعيد عثمان فى قيادة جيش المدافعين عن غرناطة . وجمع الرجل قادته وأوصاهم بالجهاد والصبر وذكَّرهم بالجنة ومصير الشهداء .. وباتت المدينة كلها تقرأ القرآن الكريم ، والكل يرفع يديه دعاء إلى الله أن ينصر الإسلام والمسلمين .

وخرجت الجيوش من أبواب غرناطة لمواجهة جيش النصارى يطلبون الشهادة من خلال صفوفه ، ولم يكن النصر يعنيهم أو يفكرون فيه . فكل السنن والنواميس تقول بهزيمتهم لامحالة ، وأن مايفعلونه ضرب من الاستشهاد البليغ .

القضاء على الجيش القشتالى فى معركة إلبيرة مايو ١٣١٨ م

انتصر المسلمون فى هذه المعركة نصرا مؤزرا ، وقتل من القشتاليين عدة ألوف ، وغرق فى نهر « شنيل » أثناء الهرب عدة ألوف أخرى . وتم أسر عدة آلاف . وتمكن عدة آلاف من الهرب .

استمرت هذه المعركة ثلاثة أيام دون نوم ، فقد كان المسلمون حريصين على الشهادة ويستعجلونها ، ولكنّ لله أمرا هو بالغه فمن استشهد من المسلمين فى هذه الوقعة قليل بينما تم القضاء على الجيش الصليبى ومزق شر ممزق ، وقتل قائده الدون بيدرو ، ووضعت جثته فى

تابوت من ذهب وعلقت على أسوار غرناطة حيث تنعكس عليه الشمس فتذكر من يفكر فى الهجوم على هذه المدينة بالموت المتربص خلفها .

هذه كانت معركة إلبيرة التى وقعت فى ربيع الثانى سنة ٧١٨ هـ مايو ١٣١٨ م ولعلها كانت سببا رئيسا فى حفظ غرناطة من الضياع أكثر من قرن ونصف .

المسلمون يستخدمون المدافع لأول مرة فى التاريخ سنة ١٣٢٤ م

سرت فى المسلمين روح جديدة على أثر الانتصار العظيم الذى أحرزوه ، وصار العلماء والفقهاء والمجاهدون يذكرون الناس بأرض المسلمين التى استلبها النصارى . و لم يكن السلطان إسماعيل بن الأحمر متناقضا مع هذا التيار ، بل كانت تحدوه نزعة دينية عميقة ، وقد وصفه ابن الخطيب بأنه كان يتمتع بخلال باهرة ، وأنه كان يشتد فى القضاء على البدع ، وتحكيم شرع الله ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأنه قد أمر بإغلاق الحانات ، ومنع بيع الخمر ، ووضع تجارها فى السجن ، وهو الذى منع جلوس الفتيات فى ولائم الرجال ، كما بيَّنا من قبل .

استجاب السلطان إسماعيل لهذه الروح التى سرت فى المسلمين ، وخرج بنفسه على رأس الجيش فى خطة جديدة لاستعادة بلاد الإسلام التى ضيعها من كان قبله فى قرون الفساد والضياع والخلاف .

وفى عام ٧٢٤ هـ ١٣٢٤ م حاصر السلطان مدينة « بيَّاسة » المسلمة التى كانت فى أيدى النصارى ، وقد استولوا عليها من قبل .

ولأول مرة فى التاريخ تستخدم المدافع فى ضرب أسوار مدينة .

وهو الأمر الذى تجاوزه المؤرخون للأسف ، ومروا عليه مرورا عابرا على أهميته وشدة خطورته ، فقد كان فى ذلك الوقت سلاحا جديدا عجيبا له فعل السحر فى الحرب والقتال .

اخترعه المسلمون وجربوه بنجاح فى استعادة مدينة « بيَّاسة » الإسلامية من أيدى النصارى .

واستطاع السلطان بهذه الروح الجديدة والأسلحة التى لم يعرفها النصارى من قبل أن يستعيد مدينة أخرى فى العام التالى ، وهى مدينة « مرتش » وبدت آفاق جديدة للمسلمين ، وكانت خطة لاستعادة كل الأراضى التى ضاعت ، وتأهب الناس لتحول جديد فى مسار التاريخ .

ولكن !

قتل السلطان إسماعيل غيلة بباب قصره فى تفصيل مخجل ، يأبى القلم أن يسطره .

وعاد التاريخ إلى مساره القديم ، وخبت الروح الإسلامية بقتل السلطان وما تلا ذلك من تفاصيل . وعادت الأمور سيرتها الأولى .

وتوفى السلطان الشهيد فى رجب ٧٢٥ هـ يونيو ١٣٢٥ م .

الجهاد فى سبيل الله بين الشد والجذب

وبموت السلطان إسماعيل تولى ولده أبو عبد الله محمد وكان فى الحادية عشرة من عمره ، وقام الأوصياء على عرشه من الوزراء ، وكان الصراع بينهم حتى تغلب واحد منهم .

وتجددت المعاهدات والتحالفات مع دولة أراجون النصرانية .

وانتقلت دائرة الصراع والقتال إلى المعسكر الإسلامى .

واستبسل المسلمون فى قتال بعضهم البعض ، مما أدى إلى انتهاز الفرصة من جانب القشتاليين كالعادة فى استعادة بعض الحصون والمدن التى فقدوها فى الزمن القريب .

وساءت أحوال غرناطة عسكريا وسياسيا ، واضطر السلطان للتفاهم مع الخارجين عليه والنزول على شروطهم ، وعقد بينهم هدنة على أن يستقروا فى « وادى آش » ويحكموه باسمه وتحت سلطانه من الناحية الشكلية .

قمة فاس سنة ١٣٣٢ م

واجتاز ابن الأحمر - وهو كما قلنا اسم علم على كل من يحكم غرناطة حتى سقوطها - العدوة إلى بلاد المغرب ، وعقد مؤتمر قمة مع سلطان المغرب الذى كان قد نفض يديه من قضية الأندلس لاضطراب سياستها وتذبذبها بين المحالفة والعداء .

ونجح مؤتمر القمة الذى عقد بفاس عام ٧٣٢ هـ ١٣٣٢ م .

وهو أمر يذكرنا بمؤتمرات القمة العربية التى بدأت بالانعقاد منذ بداية النصف الثانى من القرن العشرين الميلادى ، يتعادون ويتصالحون بلا خطة أو هدف ، بينما تضيع القضايا القومية والإسلامية فى ضباب التاريخ مع توالى الاجتماعات والمصالحات والعداوات ، والإحن المستمرة العميقة التى لايخفيها التدوين والنظر الثاقب المتأنى البعيد الغور .

المسلمون يستعيدون جبل طارق

وأسفر مؤتمر القمة بفاس عن خطة لاستعادة جبل طارق الذى سلبه القشتاليون .

وزحفت قوات غرناطة برا ، وحاصر الأسطول المغربى الجبل بحرا ، لمنع وصول المدد للقوات القشتالية المحاصرة ، واستعيد الجبل إلى حوزة المسلمين ، واضطر ألفونسو الحادى عشر إلى عقد الصلح مع ابن الأحمر بعد أن وصل إلى الجبل بعد تمام استعادة المسلمين له .

وقتل السلطان محمد بن إسماعيل « ابن الأحمر » فى طريق عودته إلى حاضرته فى قصة أخرى غادرة الفصول دنيئة التفاصيل .

استشهد السلطان محمد بن إسماعيل فى ٧٣٣ هـ ١٣٣٣ م .

مزقته رماح المتآمرين وتركت جثته بلا دفن فى العراء عند أسوار « مالقة » حتى قام بعض الصالحين بدفنه بليل بعيدا عن أعين الرقباء .

السلطان أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل

تولى عرش غرناطة أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل وهو أخو السلطان الشهيد ، وطارد قتلة أخيه ، وكانوا من جماعة المجاهدين الذين وفدوا من بلاد المغرب باسم الجهاد فى سبيل الله ، وانتهى حالهم إلى التنازع على السلطة والملك .

واستطاع بالتفاهم مع سلطان المغرب أبى الحسن أن يهزمهم فى وقعات عديدة ثم ينفيهم من الأندلس إلى تونس فى تفصيل طويل مرير .

وعادت قشتالة إلى مخططاتها فى استلاب الأرض الإسلامية من جديد .

وأرسل سلطان المغرب الأمداد والمتطوعين من جديد إلى أرض الأندلس .

وتحرك البابا بحماس أكثر ، وجمعت الجيوش النصرانية لتحقيق الهدف الذى رسمته البابوية منذ قرون . وللمرة الأولى تطفو على سطح البحر أكبر قوة بحرية نصرانية مشتركة من قشتالة والبرتغال وأراجون رغم المعاهدات المؤكدة بين الأخيرة وبين مملكة غرناطة ، ولكنها معاهدات لاتعنى شيئا كما علمنا التاريخ ، ولاتعدو أن تكون فرصة لالتقاط الأنفاس بين الجانبين .

ولعل من المناسب أن نذكر هنا أن المعاهدات التى كانت تعقد بين المسلمين وغيرهم لم تكن تنقض من جانب المسلمين أبدا . وكانت تنقض من الجانب النصرانى طوال الوقت ، وبفتوى من بابا روما فى كثير من الأحيان .

كانت فكرة الصليبيين فى استعادة جبل طارق من يد المسلمين فى مخطط سلب الأراضى الإسلامية ، وربض الأسطول النصرانى فى مياه المضيق لإحكام الحصار بقيادة الدون جوفرى تنوريو ، أحد رجال ألفونسو الحادى عشر .

وكان أمير الجيوش الإسلامية الغرناطية المغربية المتحدة أبو مالك نجل سلطان المغرب أبى الحسن على بن عثمان ، الذى توغل بجيوشه فى الأراضى التى استولى عليها النصارى حتى سهل « بجانة » فى غزوات موفقة ناجحة أنزلت الهزائم المنكرة فى القوات الصليبية . ولكنهم فاجئوه أثناء ارتداده إلى الأراضى الواقعة تحت سلطان المسلمين .

وهزم الجيش واستشهد أبو مالك بن أبى الحسن أمير الجيش ٧٤٠ هـ ١٣٣٩ م .

هزيمة المسلمين فى معركة سالادو

عبر السلطان أبو الحسن بنفسه إلى أرضَ الأندلس فى جيش كبير وأسطول ضخم تحدوه الرغبة فى الجهاد والانتقام لولده الذى استشهد فى سهل « بجانة » وتولى السلطان أبو الحسن القيادة العامة للجيش ، وتولى السلطان يوسف ملك غرناطة قيادة الفرسان ، وكان فى الجانب الآخر ألفونسو الحادى عشر بنفسه قائدا عاما للجيوش النصرانية المتحدة .

وكانت المعركة فى شمال غرب مدينة طريف على ضفاف نهر « سالادو » الذى يصب فى مياه المحيط ، واستخدمت المدافع فى هذه المعركة بطريقة أكثر تطورا ، وكانت عوامل النصر كلها مجتمعة للمسلمين ، ولكنهم هزموا هزيمة شديدة فى يوم ٣٠ أكتوبر سنة ١٣٤٠ م .

﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾[1] .

واستطاع النصارى أن يصلوا إلى معسكر السلطان أبى الحسن ، وقاموا بذبح نسائه وأولاده بوحشية بالغة فى محنة عظيمة نشرت الحزن والأسف فى كل بلاد الإسلام .

---

(١) سورة يوسف آية « ٢١ »

السلطان الناصر بن قلاوون يشجب مافعله النصارى

ومن المضحك المبكى الذى يروى حول هذا الحادث الجلل الذى منى به المسلمون أن السلطان أبا الحسن قد أرسل سفارة إلى القاهرة معها رسالة تشرح ماحدث من رزية عظيمة للمسلمين هناك ، ويستنجد بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون ويسأله النصرة والمؤازرة ، ومعها هدية ثمينة من عتاق الخيل والجوهر والذهب ومصحف قد كتبه السلطان بنفسه ووشاه بماء الذهب فى صندوق من خشب الأبنوس وأوصى أن يوضع فى الحرم المكى .

وكان رد الناصر محمد بن قلاوون ببرقية يشجب فيها مافعله النصارى ببلاد الإسلام فى الغرب ، ويعزى السلطان أبا الحسن فى المصيبة التى لحقته فى بلاده وأهله ، ويؤكد فيها أن أى اعتداء على غرناطة والمغرب هو اعتداء على مصر ، ولا شيء بعد هذا ! وتسير الحياة بالجميع حيث تسير . والصليب يرتفع والهلال يتهاوى رويدا رويدا عن سماء الأندلس .

النصارى يحاصرون جبل طارق من جديد

قاد ألفونسو الحادى عشر جيشه إلى سهول الجزيرة الخضراء بنية الاستيلاء على جبل طارق ، أهم المواقع الاستراتيجية فى الصراع الإسلامى المسيحى . ثم أعمل الحصار حول الثغر فى إصرار بالغ للاستيلاء عليه وكان ذلك فى ٧٥٠ هـ ١٣٤٩ م .

استمر الحصار عاما كاملا ، والمسلمون صامدون يرسلون صيحات الاستنجاد بلا فائدة ، والغزاة المسيحيون مصرون على الاستيلاء على الجبل وصريخ المسلمين لايجيبه إلا رجع الصدى .

ومات ألفونسو أثناء الحصار ، واضطر النصارى إلى رفعه ، وأرسلوا يستأذنون فى نقل جثة الملك إلى إشبيلية - التى استشهدت من قبل - دون تعرض من المسلمين ، وأذن المسلمون بهذا

فى نبل وكرم وسماحة ، بل ذهبوا إلى أكثر من ذلك ، فقد ذهب وفد من أكابر المسلمين لتقديم واجب العزاء فى معسكر الملك المتوفى قبل بدء الجنازة التى أخذت طريقا طويلا من جبل طارق إلى إشبيلية .

وقبل الجنازة توِّج « بيدرو » القاسى ابن الملك المتوفى ملكا على قشتالة ٧٥١ هـ ١٣٥٠ م .

رفع الحصار عن جبل طارق

لم يسقط جبل طارق فى يد النصارى لذلك الحادث الذى ألم بهم وهو موت قائدهم فجأة إثر وباء تفشى فى الجند ، الأمر الذى جعلهم ينشغلون فى مصابهم ويتركون الحصار ، فقد كان الملوك مقدسين عند النصارى فى تلك الأيام ، فهم يحكمون بحق إلهى يستمدونه من البابا ومن الله فى زعمهم ، ويظاهر على ذلك الأمراء والفرسان وأصحاب الإقطاعات الكبيرة ، ومن ثم يستلبون جزءا من هذا الحق المزعوم ، ثم يفرضونه على الشعب الكادح من صغار الزراع والصناع وأصحاب المهن الحقيرة .

وهكذا نرى أن مصائر الدول لاتتوقف فقط على همة الناس وإرادتهم ، بل تتدخل عوامل أخرى كثيرة لادخل لهمة الناس بها ، ولايستطيع العقل البشرى أن يضعها فى حسابه عندما يضع القواعد ويرسم الخطط .

﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾

تفشى الوباء ومات الملك ورفع الحصار عن جبل طارق بعد استماتة المحاصرين فى الاستيلاء عليه ، وكادوا ينجحون لولا تدخل إلهى لم يكن فى الحسبان آنذاك ، ولا أظنه فى حسبان أحد فى هذه الأيام التى نعيشها الآن .

ولعل هذه العوامل هى الفيصل فى حركة التاريخ ومصائر الدول والناس ، ورغم هذا فهى لاتوضع فى الاعتبار ، ولاينظر إليها أبدا بعين التقدير والاستبصار .

وهناك آية صغيرة من آيات القرآن الكريم تشرح القانون وتؤكده ، ونضعها أمام الأعين دون أدنى تعليق ، ومن ثم نتركها للتأمل والنظر ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾[1]

ثم نعود إلى سيرة غرناطة الشهيدة التى ووريت التراب ، ولم يشيع جنازتها أحد من المسلمين ، بل أقاموا حفلة العرس فى ليلة الحداد ، وارتفعت الزغاريد من ثنايا الشرفات ، وقليل من أقارب الشهيدة المتوفاة يبكون فى السر خلف الستر والجدران ، فقد منع الحزن عليها ولبس الحداد بمرسوم من الملك الجديد الذى دخلها بعباءة أرجوانية يبرق عليها صليب من وشى الذهب .

انشغال المسلمين والنصارى بأمورهم الداخلية

كان لموت ملك قشتالة عند أسوار جبل طارق الأثر الأكبر فى هدوء الصراع بين المسلمين والنصارى إلى حين ، فالعرش الجديد فى حاجة إلى تثبيت وجوده بين صراع من الأمراء والكبراء فى بلاط قشتالة ، وعلى الملك الجديد أن يعيد ترتيب المراكز ، وذلك يأخذ وقتا ليبدءوا حربا جديدة مع المسلمين .

وكانت أحوال المسلمين لاتسمح لهم بمهاجمة النصارى فى فرصة قد يراها المؤرخون سانحة فى إحراز تقدم أكبر ، واستعادة الأرض الإسلامية المنهوبة .

ولكن مملكة مثل غرناطة قد جمع فيها شتات المسلمين من الأراضى الإسلامية التى سلبها الإسبان فى حاجة شديدة هى الأخرى إلى إعادة ترتيب . وبناء الأسوار وترميم الحصون يحتاج

---

(١) سورة آل عمران آية (١٢٣) .

إلى وقت ، وكذلك إعادة توطين اللاجئين والمهاجرين من شتى بلاد المسلمين التى ضاعت ، وإيجاد فرصة العمل لهم ، وتحقيق المواءمة بين هذه العناصر المختلفة فى الثقافة والعادات رغم أن الإسلام يجمعهم واللغة العربية هى لسانهم الوحيد

وكانت البلاد تفيض فى تلك الأيام بالعلماء والكتاب والشعراء ودور الصناعة بشتى أنواعها وأنماطها ، وبالسلع الفريدة العجيبة التى كانت تدهش العالم المعمور فى ذلك الوقت ، وكانت الأساس الصحيح الذى قام عليه مايسميه المؤرخون الأوربيون باسم عصر النهضة .

ولاشك عندى أن الذى صنع أوربا والعالم الحديث هم أهل الأندلس المسلمون ، وماتبقى منهم فى غرناطة لعدة قرون ، ذلك قبل أن تحدث الجريمة التى لم يتفق مثلها فى عمر التاريخ المكتوب ، وهو تجريد شعب بأكمله من وطنه وماله ولايسمح له بغير الثياب التى على جسده ، وتحميله فى السفن فى جنازة فريدة من نوعها هى الأخرى ، ثم الإلقاء به فى غياهب المجهول .

استشهاد السلطان أبى الحجاج يوسف الأول سنة ١٣٥٤ م

وفى سلسلة الحوادث المؤسفة المؤلمة التى تتوالى وتضع بصماتها على التاريخ وتوجه الأمور حدثت مأساة أخرى نضيفها إلى قائمة المآسى فى الأندلس المحتضر ، كان السلطان أبو الحجاج يوسف (ابن الأحمر) يقف للصلاة فى يوم عيد الفطر ، وكبَّر الإمام ، واخترق الصفوف رجل من عامة الناس ، وصار يطعنه بالخنجر حتى فاضت روحه والصلاة قائمة . وأثبتت التحقيقات التى أجريت أنه ليست لديه أية دوافع سياسية أو دينية لارتكاب هذه الجريمة ، وأنه كان مجرد رجل مخبول مجنون ، كما وصفه ابن الخطيب الوزير المعاصر لهذه الأحداث .

توفى السلطان فى السابعة والثلاثين من عمره فى ٧٥٥ هـ اكتوبر ١٣٥٤ م وكانت تعلق عليه آمال عظيمة فى استرجاع أرض المسلمين بالأندلس ، أو الاحتفاظ بما تبقى منها فى غرناطة ،

وتحصين المملكة ، وتطوير صناعة المدافع ، ذلك السلاح العجيب ، الذى بدأت أسراره تتسرب إلى النصارى ، ولكن ليس بالقدر الذى يسمح لهم بصنعه بعد .

وبموت السلطان أبى الحجاج يوسف انقطعت الصلات الوشيجة بين أهل غرناطة وحلفائهم المسلمين فى العدوة الأخرى فى بلاد المغرب ، وأخذت العلاقات بين الدولتين المسلمتين شكلا آخر وسمتا مختلفاً ، لايتجاوز التعزية فى مصاب أو التهنئة فى الأعياد ، ولم تزد العلاقات إلى أكثر من هذا بأى حال من الأحوال .

وهكذا تركت غرناطة المسلمة – آخر ماتبقى من زبالة فى مصباح الإسلام الذى يوشك أن ينطفىء – لتواجه مصيرها وحدها ، دون عون من أحد ، وسط بحر زاخر من العدو المتربص تؤيده الكنيسة ، ويندفع أمراء أوربا بجيوشهم وأموالهم للقضاء عليها ، فى وقت كان العالم آنذاك به من الممالك الإسلامية العظيمة فى مشرق الأرض مايبعث الخوف والرعب فى قلب البابا وكل ملوك أوربا .

قصة مشيخة الغزاة المغاربة

ولم يكن قد تبقى فى مملكة غرناطة من أهل المغرب إلا المتطوعة ، الذين وفدوا إليها منذ سنين ، للدفاع عن الإسلام بها ، وكانوا من المجاهدين الصادقين ، الذين لايطمعون فى مغنم ، بل غاية همهم الجهاد فى سبيل الله ، والبحث عن الشهادة ، وإيثار الدنيا على الآخرة .

وكانوا بمثابة الفرق الخاصة بمفاهيم هذا العصر الذى نعيشه الآن ، وكان لهم دائما الأثر الكبير فى الانتصار على المعارك بين المسلمين والنصارى ، ولم تكن لهم أية مطامع سياسية فى بادىء الأمر ، بل كانوا يعيشون حياة خشنة بعيدة عن الترف ، وكانوا يسمون بالغزاة ، وينتمون إلى بنى مرين من أهل المغرب ، حيث دولتهم الفتية التى ورثت الموحدين .

وكانت لهم مشيخة ، ولهم كبير يدعونه بشيخ الغزاة مقدم فى الحرب ، ويفصل بين أتباعه فى السلم .

وصاروا مع السنين قوة كبرى يحسب لها الحساب الكبير ، ويختارون شيخهم أو كبيرهم حسب نظام يعرفونه قد اتفقوا عليه . ثم يوافق سلطان غرناطة على هذا التعيين ، هكذا كانت بدايتهم !

وكان لهم دور أساسى فى سير المعارك كما قلنا ، لأن غايتهم واحدة واضحة هى الجهاد . وانتهوا إلى قوة كبرى تشكل ركنا أساسيا فى تشكيل المجتمع الغرناطى المتألف من بلاد الإسلام المختلفة ، التى ضاعت فى الأندلس ، حيث اختلط العرب والبربر لا كأفراد ، ولكن ككيانات منفصلة الأركان .

وعندما بدأ الصراع على ملك غرناطة بين أفراد الأسرة الحاكمة ، صاروا فى بادىء الأمر يحتكمون إلى « شيخ الغزاة » فى فض النزاع ، أو فى التوفيق بين المتنازعين .

وتطور الأمر بعد ذلك تطورا طبيعيا مع تغير الأجيال ، وتعود الغزاة قليلا قليلا على حياة البذخ والترف الغرناطية ، حيث كانت غرناطة أغنى مملكة فى أوربا آنذاك ، إلى الاستعانة بهم من جانب الأمراء المتوثبين إلى العرش من أبناء بنى الأحمر الذين صارت لهم السيادة والغلبة ، ثم صار كل واحد منهم ينفس على أخيه أو ابن عمه ماهو فيه من جاه أو سلطان ، ويرى نفسه أحق منه بالغلبة والرئاسة .

وربما كان هذا أيضا مايدور فى مخيلة مشيخة الغزاة المغربية ، فهم الذين يحافظون على هذه المملكة من الوقوع فى أيدى النصارى ، وهم يمثلون جيلا جديدا لم يشهد جهاد الآباء وتجردهم وإخلاصهم ، وربما كان يمنعهم من منازعة بنى الأحمر فى الأمر جمهورهم الكبير الذى لم يتلون ولم يتغير بالقدر الذى يجعله يتنافس على الحكم أو السلطان ، بالإضافة إلى أنهم لايزالون يعيشون فى مجتمع غريب عنهم ، يجمعهم الإسلام ، وتفرق بينهم البداوة فيهم ، والترف من جانب

الغرناطيين الذين يبلغ عددهم فى أرجاء المملكة عدة ملايين من الناس آنذاك.وقد لاحظنا من قبل أن أهل مدينة غرناطة وحدهم يتجاوز المليون .

ولكنهم ظلوا قوة كبرى تتأثر بالصراع وتؤثر فيه ، ولعبت دورا كبيرا فى سير الأحداث واستمر الحال على هذا النحو بالنسبة لمشيخة الغزاة وأعضائها الذين وفدوا باسم الجهاد ثم تبدلت أحوالهم ، وكانوا رغم وجودهم فى غرناطة يتبعون سياسيا وإداريا بنى مرين فى المغرب .

ثم صاروا مع الأيام هيئة من هيئات الدولة الرسمية مثل الحرس الوطنى أو القوات الخاصة ، حتى قام بإلغائها نهائيا وبالتدريج السلطان الغنى بالله (ابن الأحمر) وتحولوا إلى فرقة عادية من فرق الجيش الغرناطى ، وكانوا قد تحولوا بطبيعة الحال إلى مواطنين غرناطيين قد اقتنوا الدور والعقارات،وانقطعت صلتهم تماما ببلاد المغرب وبالجهاد الحقيقى أيضا ، وصار يلحق بهم من أوطانهم الأصلية من يطلب مغنما أو مالا،أو انقطعت به سبل العيش فى بلاده .

الغنى بالله ٧٥٥ هـ ١٣٥٤ م

تولى الغنى بالله الحكم بعد مصرع السلطان يوسف أبى الحجاج فى ٧٥٥ هـ أكتوبر ١٣٥٤ م ، وفى عهده انشغلت الممالك النصرانية بالحروب بين بعضها وبعض ، وانشغلت قشتالة بوجه خاص بحروب داخلية فى نزاع على العرش ، الأمر الذى خفف حدة الضغط على مملكة غرناطة الإسلامية ، وفى الوقت نفسه كان التآمر على العرش والاستئثار بالسلطة فى غرناطة على أشده ، حتى إن الغنى بالله قد فقد عرشه فى مؤامرة من تدبير صهره ، لمساندة أخى السلطان واسمه إسماعيل ، وكان معتقلا بأبراج الحمراء .

وانتهز المتآمرون فرصة انتقال الغنى بالله إلى قصر جنة العريف بعيدا عن قصر الحمراء فى إجازة قصيرة ، فهاجموا الحصن وأخرجوا إسماعيل ونادوا به ملكا على غرناطة . وهرب الغنى بالله إلى وادى آش ، بعيدا عن يد أعدائه . وحاول ابن الخطيب وزير الغنى بالله – وأعظم

رجالات هذا العصر على الإطلاق - فى رأينا - مصانعة السلطان الجديد لينجو من قتل محقق ، واستطاع النجاة من القتل ، ولكنه لم يفلح فى النجاة من الاعتقال ومصادرة أمواله ، ونكبه هو وأهل بيته .

وتدخل السلطان أبو الحسن سلطان المغرب ، وكانت بينه وبين السلطان المخلوع صلة مودة وصداقة ، واستطاع سفيره أن ينجح فى الإفراج عن الوزير ابن الخطيب وأن يعود به وبالسلطان المخلوع إلى المغرب سالمين .

وكانت غرناطة تعمل حسابا للحكومة فى المغرب آنذاك ، فلم يكن لديها من مانع يدعوها إلى عدم مصانعة دولة قد تمد لها يد العون فى يوم من الأيام ، ولابأس من إرسال سلطان مخلوع يعيش فى منفاه بعيدا عن السلطة ، وليس هناك من ضرر فى الإفراج عن وزير قد صودرت أمواله وفقد الحول والطول والتأثير .

لا بأس من الاستعانة بالنصارى فى استعادة العرش !

وللأسف الشديد فقد حاول السلطان محمد بن الأحمر (الغنى بالله) استعادة ملكه من منفاه فى أرض المغرب ، وذلك بالاستعانة بدون بيدرو « القاسى » الثانى ملك قشتالة وسار على نفس النهج السياسى العجيب الذى كان عليه أسلافه ، والذى أظن أنه لايزال قائما حتى اليوم ، بصور مختلفة وأساليب متباينة ، تتغير وتتبدل حسب اختلاف الزمان والمكان .

وكان بيدرو « القاسى » الثانى ملك قشتالة فى شغل شاغل عن مساعدته ، فقد كانت هناك اضطرابات تهز عرشه للسقوط ، فآثر التحالف مع السلطان الجديد .

وكان يعيش فى ذلك العصر الرجلان العظيمان ابن الخطيب وابن خلدون ، وكان الأخير هو المقدم والوزير عند سلطان بنى مرين أبى سالم الذى استضاف الغنى بالله المخلوع ، ولست

أدرى ماذا كان رأيهما فى التحالف مع النصارى ضد المسلمين فى سبيل عرش زائل وتاج زائف قد صنع من دماء المسلمين التى تسيل بسيوف بعضهم وبعض ، والنصارى يسلبون كل يوم أراضى جديدة ، وتزداد قوتهم إيذانا بموعد السقوط الأخير .

ولكن المؤكد من سير الحوادث أن ابن خلدون قد ذهب فى سفارة للغنى بالله عندما استعاد ملكه ،إثر ثورة قامت فى غرناطة وجاءت به .

وقد أدى ابن خلدون سفارته فى بلاط بيدرو « القاسى » الثانى فى إشبيلية الشهيدة بنجاح ، وقد أعجب به بيدرو أيما إعجاب ، وقد عرض عليه البقاء فى بلاطه وخدمته ، ولكن ابن خلدون اعتذر وأبى ، رغم أن أجداده وأسلافه كانوا يعيشون من قبل فى المدينة الإسلامية الشهيدة التى صارت حاضرة لقشتالة ، وكانوا فى تلك الأيام يغيرون حواضرهم بحيث تقترب من أراضى المسلمين ، ومن ثم يسهل تعبئة الجيوش .

وعرض بيدرو « القاسى » على ابن خلدون أن يرد إليه أملاك أجداده وأراضيهم على أن يبقى ، ولكنه أصر على الرفض وعاد بجواب بيدرو إلى (ابن الأحمر) .

والواقع أن هذه السفارة التى قام بها ابن خلدون لم تتجاوز تبادل المجاملات أو الهدايا ، ولم تسفر عنها ثمة محالفات أو معاهدات ، أو كأن السلطان القادم مرة أخرى إلى عرشه قد أراد أن يعرف نوايا جيرانه من النصارى من حوله ، وأن يحصل على مزيد من المعلومات عن البلاط القشتالى .

بيدرو الثانى القاسى ملك قشتالة

ولعل كلمة « القاسى » الملقب بها بيدرو تستلفت نظر القارىء ، وتفسيرها واضح من ظاهر معناها ، فقد عكف القشتاليون على تلقيب ملوكهم بما اشتهروا به من عادات أو سلوك . فهناك ألفونسو العالم ، وهناك الحكيم ، وهناك القديس ، وكان حظ بيدرو الثانى فى

لقبه هو « القاسى » فقد كان مستبدا طاغية لايعمل حسابا للمجلس النيابى القشتالى (الكورتيز) الذى يجتمع فيه المركيزون والكونتات وسائر الأشراف والأمراء والفرسان ليقرروا أمور السلم والحرب فى بلادهم ، وكانت قرارات هذا المجلس تكاد تكون ملزمة للملك فيما يصدره من مراسيم .

ولاشك عندى من مراجعة الكتب وقراءة الحوادث والتاريخ ، أن هذا المجلس النيابى القشتالى (الكورتيز) ، كان صدى للنظام الجمهورى الذى أقامه الرئيس ابن جهور فى قرطبة فى أوائل عهد الطوائف ، ومع آخر أشعة لشمس الدولة الأموية الغاربة عن بلاد الأندلس المسلمة . فقد أقام ابن جهور مجلسا من أهل غرناطة وكبرائهم وأعيانهم وفقهائهم ، وجعل لرئاسته ثلاثة هو أحدهم ، ولايقضى بشىء إلا بموافقة هذا المجلس .

استطاع بيدرو القاسى أن يحصل على هذا اللقب بجدارة ، فقد ضرب عرض الحائط بقرارات (الكورتيز) كما قلنا ، وأهان النبلاء وعاملهم بفظاظة وقسوة ، ثم زاد على ذلك فقتل الملكة بلانش المحبوبة من شعبه ، بأن دس لها السم فى الطعام ، بإيعاز من عشيقته التى أرادت أن تتوج ملكة بدلا منها ، فى دين يحرم الطلاق والجمع بين زوجتين ولكنه غض الطرف عن الجرائم التى ذكرنا !

وعندما نقول « دين » فإننا نقصد الرجال القائمين عليه من الكرادلة والبابا ، ومايلى ذلك من درجات دينية مختلفة .

وكانت الملكة بلانش من أسرة « البوربون » التى كانت تحكم فرنسا فى ذلك الوقت ، وكانت أيضا شقيقة للملكة زوج الملك الفرنسى شارل الخامس ، الذى تحالف مع « هنرى دى تراستمارا » الأخ غير الشرعى لبيدرو القاسى الثانى – ولم تكن هذه البنوة غير الشرعية مستهجنة فى المجتمع النصرانى آنذاك ، سواء فى قشتالة أو أى بلد من أوربا ، وكان البابا نفسه يغض الطرف عن مثل هذه المسائل الصغيرة .

البابا يخطط من جديد لضرب المسلمين

وحدثت تحالفات نصرانية باركها البابا وخطط لها وساعد فيها ، بين الفرنسيين والإنجليز « وهنرى دى تراستمارا » ليساعدوا الأخير على أخذ العرش القشتالى من بيدرو القاسى المكروه من شعبه ، على أن تتجه هذه الجيوش الحليفة للقضاء على مملكة غرناطة الإسلامية .

ويبدو أن البابا قد قام أيضا بتقسيم الأراضى الإسلامية المزمع سلبها بين مملكة أراجون وقشتالة ، حيث تأخذ قشتالة كل أراضى المسلمين ، عدا مايلى الشاطىء الشرق الجنوبى حتى « ألمرية » فهذا من نصيب مملكة أراجون النصرانية .

وانتهت الخطة بقتل بيدرو القاسى واستيلاء هنرى على العرش فى تفصيل طويل وخلاف بين الحلفاء النصارى ، أدى إلى ضعفهم وعدم قدرتهم على استكمال ما أرادوه ، هذا بالإضافة إلى اليقظة الإسلامية التى كانت تحمى غرناطة آنذاك .

وفاة الغنى بالله (ابن الأحمر)

وحكم الغنى بالله مدة طويلة ، أنقذته أثناءها الخلافات النصرانية ، وساعده فى تدبير أموره الوزير العظيم ابن الخطيب ، الذى كان أيضا مؤلفا وشاعرا ومؤرخا بالإضافة إلى كونه سياسيا نافذ البصيرة عظيم الدهاء .

واتسم عهده بالسفارات بينه وبين النصارى وبين المسلمين ، وتبادل الهدايا والنوايا الطيبة .

وكانت هناك بعض المناوشات بينه وبين الممالك النصرانية عند تغير حكامها ، فقد حكم الغنى بالله مدة طويلة ، وشهد فى حياته ملوكا متعددين يتوالون على حكم قشتالة وأراجون . ولكنها لاتزيد على كونها مناوشات إذا قارناها بالمعارك الكبرى ،وتوفى الغنى بالله (ابن الأحمر) ملك غرناطة سنة ٧٩٣ هـ ١٣٩١ م وخلفه ولده السلطان أبو الحجاج يوسف .

ولابد لنا أن نضيف كلمة « الثانى » إلى لقب السلطان ، تمييزه عن سميه من قبله .

السلطان أبو الحجاج يوسف الثانى (الفاسد)

كان عهد السلطان أبى الحجاج يوسف (الثانى) عهد فساد وإفساد وطغيان وضلال ، وفاق من سبقه فيما ارتكبوه من جرائم وموبقات .

فقد بدأ عهده باعتقال إخوته والذين يمكن لهم منازعته العرش ، ثم أمر بقتلهم فى المعتقل ، ثم وشى إليه بوزيره وطبيبه بأنهما يتآمران عليه فى تهمة باطلة لم تثبت . وأمر باعتقالهما ، ثم أراح نفسه وأراحهما بقتلهما .

ومن ثم أرسل سفارته إلى ملك قشتالة للتحالف ودفع الجزية إن أدى الأمر إلى ذلك . كل هذا والشعب المسلم فى غرناطة يجاهد فى سبيل الله ، ويحاول أن يجمع أمره خلف زعماء محليين مسلمين لحماية الثغور الإسلامية المتاخمة للبلدان النصرانية . وذلك فى الوقت الذى يفرج فيه السلطان عن الفرسان النصارى الأسرى فى غرناطة قربة وزلفى إلى بلاط الملك القشتالى .

وأسفرت سياسة التقرب والمهادنة مع القشتاليين إلى عقد معاهدة سلام وصلح إلى حين . وأدى كل هذا إلى ثورة إسلامية حقيقية داخل غرناطة التى ملئت بالتذمر والاحتجاج على سياسة السلطان الخاطئة التى تتجاهل المشاعر الإسلامية التى تفيض بها أنفس الناس . وحاول محمد ولد السلطان يوسف الثورة ضد أبيه تمشيا مع الاتجاه الإسلامى المتحمس للتكاتف ضد النصارى .

وفشلت الثورة !

واستجاب السلطان قليلا لهذا الاتجاه الإسلامى . وقامت قواته بالإغارة على بعض الأراضى الإسلامية التى سلبها النصارى فى نواحى « مرسية » وأحوازها ، وكذلك فى « لورقة » وقد قام السلطان بهذا على استحياء من حلفائه ، وخوفا من رعاياه المسلمين الذين لايجيدون لعبة السياسة ولايفهمونها ، ولكنهم يعرفون الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله . وحاول النصارى الهجوم على غرناطة فردهم المسلمون فى ضراوة ، وأوقعوا بهم هزيمة شديدة،وعاد السلم مرة أخرى بين

الفريقين ، بسياسة السلطان الموالية للنصارى والتى ترمى دائما إلى الحفاظ على عرشه بغض النظر عن التضحية بالمبادىء والقيم وروح الإسلام . وتوفى السلطان أبو الحجاج يوسف الثانى سنة ٧٩٧ هـ ١٣٩٤ م على أثره مؤامرة أحكم تدبيرها بين المجاهدين المسلمين فى غرناطة والسلطان أبو العباس المرينى من المغرب انتهت بقتله بالسم حسب ماتروى بعض الروايات ، ولو أن هناك كثيرين من المؤرخين يشككون فى هذه الرواية لأن تفصيلها مفرط فى الخيال على زعمهم .

السلطان محمد بن يوسف المجاهد المتآمر وولاية العهد

خلف السلطان يوسف ولده محمد ، الذى بدأ حياته ثائرا مجاهدا ، وانتهى متآمرا سلطاناً ، يبحث عن مصلحته الخاصة ومايوطد حكمه ، بغض النظر عن المبادىء التى أعلنها ، والتى أيده الناس بموجبها ، وساعدوه فى الوصول إلى العرش وناصروه على كل أعدائه .

وهو سطر مرير متكرر ، نقرأه فى كل صفحة من صفحات التاريخ .

ولعلها لعنة ولاية العهد – دون النظر إلى الأفضلية والصلاحية – والتى سنَّها معاوية بن أبى سفيان . ثم أقرها فقهاء السلطان عبر القرون ، ومن ثم صارت مشروعة ، ولم ينتبه أحد إلا أقل القليل من الفقهاء والمفكرين من أنها ليست من الإسلام فى شىء . وهى بالتأكيد السبب الرئيس للكوارث العظيمة التى حاقت ببلاد الإسلام عبر ما وصل إلينا من كتابات المؤرخين ، ومانحن فيه الآن نتيجة حتمية لتوالى الخطأ والابتعاد عن تعاليم الإسلام الصحيح ، وكانت أول عروة تنفصم هى طريقة اختيار الحاكم وتحويل الحكم الراشد إلى ملك عضوض .

ولعله من الإنصاف أن نقول إن ماانتهى إليه المسلمون فى أيام الضياع التى سبقت سقوط غرناطة لم يكن من السهل تغييره بقرار ، فقد تغير شكل المجتمع ، وزادت الثروة ، وتغيرت طرق الحياة ، واختلط النصارى بالمسلمين فى محلاتهم وأحيائهم وحيث يعيشون ، وصارت

للنصرانية سلطة وغلبة فى حياة الناس وعاداتهم وطرق تفكيرهم ، فقد أخذ النصارى من المسلمين والإسلام أعظم ماعندهم من فكر وطرق حياة .

وأخذ المسلمون من النصارى أرذل مافيهم وماعندهم من أمور تناقض روح الإسلام . فكان الأولون يأخذون بطرق النصر والغلبة والتقدم . والآخرون يبحثون عن طرق الانحلال والضياع .

كان الأمر كذلك فى مجمله العام . ولكن لم تخل البلاد من أصحاب أصوات عالية ، يرفعونها ، وينبهون المسلمين إلى ماهم فيه ، ويحاولون ردهم إلى الإسلام الصحيح ، والمبادىء الحقة التى بيّنها القرآن .

وضاع صوت هؤلاء بين قدر الله الغالب ، وبين حركة التاريخ المحتومة ، وبين عوامل قد تأصلت فى نفوس الحاكمين ، تبحث عن الغلبة والقدرة والسلطان .

قبض السلطان محمد على أخيه يوسف ورماه فى السجن خوفا من تآمره عليه ، فى قلعة حصينة لايستطيع الفرار منها ، واستوزر طاغية جبارا مثله ، وقسا على الشعب ، وأرسل عيونه وأرصاده يبحثون بين الناس ويتعقبونهم ويرصدون خطواتهم ، وربما يفتشون عما يجول فى أذهانهم ، أو مايرونه فى الليل من أحلام .

وفى الوقت الذى اشتد على شعبه – الذى ساعده ونصره من قبل ، وكان يرى فيه أملا لروح إسلامية جديدة تسرى فى البلاد – إذا بنا نراه يرسل رسله إلى قشتالة ، يحاول معهم صلحا ، يعطيهم جزية ، يتنازل لهم عن بعض الحصون والمدن ، وليتركوه فى سلام فوق عرشه بغرناطة .

ولم تفلح طرقه مع « هنرى » ملك قشتالة (هنرى الثالث) وهو الذى نصره البابا بمعاونة الإنجليز والفرنسيين ضد « بيدرو » لتحقيق حلم الكنيسة فى القضاء على المسلمين .

وعقدت هدنة لخداعه ، ثم أغار هنرى على القرى المحيطة بغرناطة أيام جنى المحاصيل ، حتى يتسنى له إنهاك المسلمين والقضاء على مواردهم .

ورد السلطان محمد على ذلك بالإغارة على جنوب البرتغال ، والاستيلاء على أحد الحصون المقامة هناك ، وعاد بالغنائم والسبايا .

وكان تقدير القشتاليين أن غرناطة هى ثمرة قد آن أوان قطفها ، ولكنهم فوجئوا برد الفعل من ناحية السلطان ، الذى أرسل له ملك تونس وأمير تلمسان بعض النجدات ، وشيئا من الوعود والتشجيع جعلته يقدم على هذه الخطوة الجريئة .

ووجد هنرى الثالث أن من مصلحته الهدوء قليلا،وعقد هدنة ليعيد تنظيم قواته من جديد . وسرعان مانقض الوصى على العرش هذه الهدنة بعد موت هنرى تاركا عرشه لولده الصغير « يوحنا » .

ونشبت الحرب من جديد بين السلطان « محمد » وبين « فرناندو » الوصى على عرش الملك الصغير « يوحنا » . وكانت سجالا بين الفريقين . فريق واثق من نفسه ومن أن الغلبة له فى النهاية ، وفريق متردد خائف يريد الاحتفاظ بالأرض والعرش أطول فترة ممكنة .

وانتهت هذه الفترة بهدنة قد عقد مثلها عشرات من قبل .

ومات السلطان محمد بعد عقد هذه الهدنة بشهور فى ٨١١ هـ ١٤٠٨ م .

السلطان أبو الحجاج يوسف الثالث

خرج شقيق السلطان من سجنه إلى العرش ، وسعى إلى عقد هدنة مع حكام قشتالة ، ووافقوا عليها لمدة عامين . وقد أراد تجديدها بعد ذلك فرفضوا إلا إذا أذعن لهم وصار تحت سلطانهم .

وقامت الحرب وانهزم المسلمون وفقدوا مدينة « أنتقيرة » فى شمال غرب « مالقة » بعد معركة طاحنة بين الفريقين انتصر فيها النصارى انتصارا حاسما .

طلب السلطان الهدنة من جديد مع القشتاليين الذين وافقوا بعد هذا النصر ، حتى يعيدوا ترتيب قواتهم ، ويستطيعوا استيعاب الأرض الجديدة التى سلبوها .

وانشغل الملك بثورة أهل جبل طارق ، وكانت الحرب بينه وبين أهل المغرب الذين ناصروا الثوار ، واستطاع جيش غرناطة أن يهزم الجيش المغربى .

وأكرم السلطان يوسف وفادة أمير المغاربة وكان اسمه عبد الله ، وتآمر معه ضد أخيه ، وزوده بالمال والسلاح حتى استطاع أن ينتزع العرش فى المغرب من أخيه . والقشتاليون يشهدون مايحدث فى انتظار الظروف الموائمة .

بذل السلطان يوسف غاية جهده فى عمل هدنة بينه وبين قشتالة التى استجابت إلى حين تقرره الأيام والحوادث . وشهدت غرناطة فى هذه الفترة التى حكمها السلطان يوسف عهدا من الرخاء والترف ، سعد له الشعب ، ولكنه كان مقصودا من جانب القشتاليين .

كانوا يريدونهم أن يركنوا إلى الترف والدعة فيزدادوا انحلالا وفسادا ، ومن ثم لايستطيعون القتال القادم لامحالة فى وقت قريب ، وفى أجل تسميه قشتالة وتفرضه على المسلمين ، فى ساعة يعرفون أوانها ، ويحددونها وقتما يشاءون .

وفى تلك الفترة التى كانت فيها الهدنة استطاع القشتاليون أن ينفذوا إلى أعماق المجتمع الإسلامى فى غرناطة ، وكانت الحفلات والمبارزات التى يشهدها النبلاء من الفريقين ، وتحضرها النسوة المسلمات سافرات ، تقليدا للأميرات والنبيلات من الجانب القشتالى .

عودوهم عليهم ، وباعوا واشتروا معهم ، وتبادلوا السفارات والهدايا . ولم يعد المسلمون على عداوتهم القديمة للنصارى بالمعنى الصحيح .

كانت الهدنة فرصة ليتغلغل القشتاليون فى دماء المسلمين .

وقد كان !

تعاون الحكام المسلمون مع النصارى فى تهيئة غرناطة للسقوط .

مات السلطان يوسف الثالث سنة ٨٢٠ هـ ١٤١٧ م .

قال عنه المؤرخون إن عهده كان سلما ورخاء وراحة طيلة الأعوام التسعة التى قضاها فى الحكم . وفى رأيى أنه مهد بمودته وصداقته مع القشتاليين للنهاية المحتومة التى مازال الدمع يترقرق فى مآقينا عندما نتذكرها أو نقرأ سطورها .

الفصول الأخيرة من المأساة

ازدادت الأمور سوءا بعد موت السلطان يوسف الثالث ، فقد حكم من يسمى بالأيسر ، وكانت الثورات الداخلية ، والمؤامرات والانقلابات ، ولاشك أن لقشتالة الدور الكبير فى كل مايحدث فى بلاط غرناطة من فتن ودسائس . فقد كان الحكام المتعاقبون من النصارى على مملكة قشتالة وأراجون – رغم مابينهم من عداوات وإحن – لهم استراتيجية واحدة ، كانوا يسيرون إليها ، وهى استلاب أرض المسلمين ، وكانوا ينتمون إلى مدارس مختلفة .

فمدرسة ترى القتل والقتال والحرب الضروس حتى يتم الاستيلاء على كل الأراضى الإسلامية ، دون أن يتوقف هذا الضغط المستمر يوما واحدا .

ومدرسة أخرى ترى أن مايمكن أخذه بالمؤامرات والفتن وإضعاف المسلمين خير لهم من قتال تفنى فيها أرواح من النصارى عزيزة على حكامهم .

وكانت السياسة تتحدد حسب وصول صاحب مدرسة من المدرستين إلى حكم قشتالة .

وكان البابا – أى بابا – يحاول جاهدا توحيد الممالك النصرانية ليحسم المعركة ضد المسلمين ،

مرة بالتوسط لعقد التحالف ، ومرة أخرى بالأوامر الصارمة التى تقضى بالهدنة والصلح بين الممالك النصرانية المتنازعة ، ثم تسيير الجيوش للحرب . وكان النصارى يكسبون دائما فى السلم والحرب مع المسلمين الذين انقطعت جذورهم مع إخوانهم فى الشرق حيث القوة الطاغية آنذاك .

ونجحت ثورة من تدبير خبراء المسألة الإسلامية فى بلاط قشتالة ، وسقط الأيسر وتولى بعده محمد بن محمد بن يوسف الثالث ولقب « بالزغير » ، واختلف فى تفسير هذه الكلمة ، هل تعنى الصغير ؟ أم تعنى السكير ؟ أم تعنى الاثنين معا ؟

وكان القشتاليون يدسون له سرا من يشجعه على نبذ الحرب والتأهب للقتال ، وعمل الحفلات الساهرة ، والمباريات التى يحشد لها الناس من الفريقين للفرجة والمتعة . وكان المسلمون يتفرغون لذلك ، ولايدركون أن النصارى يخدعونهم ، إلا نفرا قليلا من مفكريهم وعلمائهم ، وأصحاب نزعة الجهاد ، والذين لم تتغير فى نفوسهم معانى الإسلام الصحيح .

أما القشتاليون فيعلمون أنها مرحلة توفر المال والدماء وتنهك المسلمين ، وهم دائما على أهبة الاستعداد للحرب عندما يقررون ، أو عندما يجلس على عرش قشتالة واحد من أصحاب مدرسة السحق والقتال الضروس .

نفذ النصارى إلى بيوت المسلمين ، وعوّدوهم عاداتهم ، وعرفوا أسرارهم ، واستطاعوا أن يثيروا فتناً وقلاقل فى داخل بلادهم وهم بعيد أبرياء لايرق إليهم شك ، فقد كانوا يتعاملون مع عدوهم المسلم فى براعة وذكاء فى مخطط واضح المعالم ، نهايته معروفة لهم .

أغروا « الزغير » بنكب بنى سراج ، وكانت أسرة لها مكانة وقيمة فى بلاد المسلمين بغرناطة .

وبعد أن نكبهم وقتل رؤساءهم استضاف القشتاليون من تبقى منهم ، وأغروا بينهم العداوة والبغضاء .

فمثل هذه الحوادث الجسام ، تجعل الشعب ينقسم بين مؤيد ومعارض ، ومن ثم تفقد الدولة وحدتها ، وتنشغل تماما بما يحدث فى داخل أرضها ، ولا تلتفت إلى مايراد بها من الخارج .

تمت هذه المؤامرات فى عهد « خوان الثانى » يوحنا الصبى الذى ينتمى إلى مدرسة القضاء على المسلمين سلما . بعد أن شهد فى طفولته الوصى على العرش الذى ينتمى إلى مدرسة المواجهة المسلحة ، وبعد أن شهد مايكلف هذا قشتالة من مال ودماء يمكن توفيرهما .

اقترح يوسف بن سراج كبير آل سراج والذى لجأ سياسيا إلى « إشبيلية » عاصمة القشتاليين على الملك استدعاء الأيسر من تونس ، وكان قد لجأ إليها بعد أن فقد عرشه . وكانت الحرب بين الأيسر ، الذى ساعده القشتاليون سراً بالمال والسلاح ، وبين « الزغير » السلطان القانونى لغرناطة ، ولانقول السلطان الشرعى ، ففى ذلك العصر لم تكن هناك شرعية لملك أو سلطان أو خليفة مهما كانت ألقابه ، ومهما تسمى بأمير المؤمنين أو أمير المسلمين ، فقد وصلوا جميعا إلى العرش بطرق لاتتفق مع تعاليم القرآن . بدءاً من معاوية بن أبى سفيان وانتهاء إلى آخرهم فى أى بقعة من بلاد الإسلام كائنا من كان ، ويستثنى من هؤلاء قلة منهم معاوية الثانى ولد يزيد قاتل الحسين رضى الله عنه ، وعمر بن عبد العزيز ، والظاهر بالله العباسى فى أواخر عهد الدولة العباسية .

قبض « الأيسر » على « الزغير » وقطع رأسه ، وأعدم إخوته وأولاده ، ونكبهم فى دورهم وأموالهم ، واستقر له الأمر .

ودفع المسلمون كالعادة ثمنا عظيما لما حدث .

وطلب « الأيسر » تجديد الهدنة مع القشتاليين فاشترطوا دفع كافة النفقات التى أنفقها البلاط القشتالى فى مساعدته على الوصول إلى العرش ، وفوق ذلك جزية سنوية عظيمة ليست فى وسعه ، وكان معنى ذلك أن أصحاب مدرسة الحرب قد تمكنوا من البلاط القشتالى ، أو أن « خوان الثانى » وجد من اليسير القضاء على غرناطة بأقل جهد وبأيسر سبيل .

وكان القشتاليون يغيرون على المدن والبلاد المتاخمة للأراضى التى سبق استلابها وهضمها ، ويتقدمون ببطء ولكنه يؤكد نهاية هذا الجهد . وفى الوقت نفسه لم تنقطع الدسائس والمؤامرات داخل البلاط الغرناطى . والشعب المسلم يدفع ماله ودمه للمحافظة على استقلال غرناطة وإبقاء تراث الإسلام بها ، وعليه حكام لايعنيهم شيء من هذا على الإطلاق .

وكانت مشكلة المشاكل النصرانية فى ذلك العصر هى مملكة أراجون النصرانية ومملكة قشتالة النصرانية أيضا . ورغم مابينهما من وحدة هدف فى القضاء على دوّلة الإسلام فى الأندلس فإن الخلاف والتنافس بين المملكتين أدى إلى تأخير هذا السقوط كثيرا .

وكان فى الجانب الإسلامى خلاف بين المتنافسين والمتوثبين إلى العرش ، دون هدف محدد ، أو استراتيجية واضحة المعالم ، بل كان العرش هو غاية مايطمع فيه كل متوثب أو كل ثائر أو كل مطالب .

واستطال حكم « خوان الثانى » المتذبذب بين السلم والحرب مع المسلمين ، فى هدف لم يحد عنه وهو القضاء عليهم .

وأثناء حكمه الطويل جرب معهم كل الوسائل المنتمية إلى المدرستين .

ومات بعد أن بلغ الثمانين من عمره سنة ١٤٧٩ م بعد أن مهد الطريق لمن يأتى بعده فى توجيه الضربة القاصمة القاضية على ملك المسلمين فى غرناطة آخر ماتبقى من معالم الإسلام فى أرض الأندلس .

ثم وثب متوثب على العرش اسمه الأمير يوسف المعروف بابن المول ، وتولى العرش بعد أن أساء الأيسر السيرة فى الناس .

وجرت حوادث متشابهة فى النزاع ثم الاستقرار .. والمناوشات من الجانبين . وصارت غرناطة المملكة التى لاتزيد عن بضع مدن متناثرة ، يتوثب فيها كل أمير لمدينة من بنى الأحمر للملك والحكم .

الصلح بين خوان الثانى ويوسف المعروف بابن المول :

ساعده خوان الثانى فى الحصول على العرش،على أن يدفع جزية سنوية لقشتالة ، وأن يكون تابعا لهم ، وأن يفرج عن جميع الأسرى من النصارى فى كل مملكة غرناطة ، وأن يحضر نتيجة لهذا جلسات الكورتيس(المجلس النيابى القشتالى) .

وانهزم الأيسر إلى مالقا التى ظلت على طاعته مع أسرته وخاصته وحشمه .

عودة الأيسر إلى الحكم ثالثة :

عاد الأيسر إلى حكم غرناطة بعد وفاة السلطان يوسف للمرة الثالثة ، وعقد صلحا وهدنة مع ملك قشتالة ، ورغم ذلك فقد أغار القشتاليون على أحواز غرناطة الشرقية وقاتلهم المسلمون وهزموهم مرتين وقتلوا وأسروا عدداً كبيرا منهم .

ورغم الصلح والهدنة التى عقدت بين الأيسر وبين القشتاليين فإن القتال بينهما لم ينقطع ، بل كانت الغارات من الجانبين على مدن كل منهما .

ولأول مرة يرسل الأيسر سفارة إلى سلطان مصر يستنجد به ويشرح له ما يجرى فى بلاد الأندلس من ويلات ، ويبدو أنه قد فقد الأمل فى نصرة بنى مرين له فأرسل بعيدا إلى مصر لعله يجد مجيبا ، وكانت الدولة المرينية قد دخلت فى دور الانحلال فانشغلت بمشاكلها الداخلية ، ولم تعد لها القدرة على إرسال الجيوش خارج بلاد المغرب .

واستقبل الظاهر جقمق السفراء الذين وصلوا إليه بود وحفاوة، ووعدهم بمداولة الأمر مع ابن عثمان ، ويقصد بهذا السلطان العثمانى ، لوضع خطة لنصر المسلمين بالأندلس .

ولم تسفر هذه السفارة عن نتيجة عملية أكثر من تبادل الهدايا وتناول العشاء !

السلطان يوسف المعروف بابن اسماعيل ومن بعده

غلب الأحنف على الأيسر فى غرناطة ، وأعلن نفسه ملكا فى أوائل عام ١٤٤١ م ، وكان يوسف المعروف بابن إسماعيل وابن عم الأيسر يعيش فى بلاط قشتالة بإشبيلية . وسار فى مجموعة من فرسانه وهزم الأحنف وغلب على العرش ، وسرعان مااستعاد الأحنف عرشه من جديد بعد أشهر قليلة ، وحاول الأحنف استغلال الخلاف القائم بين أراجون وقشتالة فتحالف مع أراجون التى ساعدته فى حرب عدوتها قشتالة . وكان ابن إسماعيل قد لجأ إلى أحد الحصون مع فريق من فرسانه ، يغير المرة بعد المرة على أحواز غرناطة من حصن « مونتى فريو » حيث تغلب .

وعصفت الحروب الداخلية بموارد غرناطة وقواها ، فهناك عدة جبهات مشتبكة بعضها مع بعض فى آن واحد ، ومسرح الحروب هو بسائط غرناطة وأحوازها .

فالأحنف يغزو قشتالة وهى ترد عليه .

وابن اسماعيل يغزو غرناطة وهى ترد عليه .

والجيش الغرناطى المسلم طرف فى الصراع .

وسوت قشتالة خلافاتها مع أراجون ، ومن ثم فقد الأحنف حليفه فى الحروب .

وأمدت قشتالة ابن إسماعيل بقوات كبيرة فزحف إلى غرناطة وأسقط الأحنف عن العرش وكان ذلك سنة ١٤٥٤ م .

وقد حكم السلطان ابن إسماعيل حتى أواخر ١٤٦٣ م .

وانتهى السلم بين غرناطة بحاكمها الجديد ابن إسماعيل ، وقشتالة عند وفاة خوان الثانى وتولية ولده هنرى الرابع .

وبدأ القتال من جديد بين قشتالة وغرناطة .

وفى عهد السلطان ابن إسماعيل فقد المسلمون جبل طارق بجيش سيره القشتاليون بقيادة الدوق « مدينا سيدونيا » سنة ١٤٦٢ م فى آخر أيام السلطان .

وتولى عرش غرناطة بعد ابن إسماعيل سعد المستعين بالله . وكان عهده عهد هدوء وراحة لانشغال قشتالة بمشاكلها مع البرتغال ، ومسألة وراثة العرش ، ولم يكن عندهم فراغ لمناوشة المسلمين .

ثم ورث العرش بعد سعد المستعين بالله السلطان على أبو الحسن ولد السلطان سعد بعد أن توفى الأخير ، وربما قبل أن يتوفى بعام .

ورغم رفع قشتالة يدها عن غرناطة إلى حين ، فإن الخلافات لم تنقطع يوما واحدا ، والمؤامرات فى سبيل العرش تأتى كل واحدة بعد أخرى ، رغم تحذير الفقهاء والعلماء والعقلاء من الناس ، من النكبة التى توشك أن تكون .

السلطان على أبو الحسن الملقب بالغالب بالله ٨٦٨ هـ ١٤٦٣ م :

لم يستخلص العرش لنفسه إلا بعد قتال عنيف مع منافسيه ، وكان على رأس الطامعين فى العرش أخواه يوسف أبو الحجاج والسيد أبو عبد الله المعروف « بالزغل » .

ومات « يوسف » وبقى « الزغل » ليشترك فى كتابة السطور الأخيرة لمأساة غرناطة .

بدأ السلطان على أبو الحسن عهده بقتال النصارى فى قشتالة واسترداد الحصون وبعض القواعد ، مستغلا الظروف السيئة التى تمر بها مملكة قشتالة .

ولكن أخاه أبا عبد الله « الزغل » لم يمهله ، وكان أيامها واليا لمالقا ، ولايقل عن السلطان أبى الحسن شجاعة وعزما ، فخرج على أخيه واستعان بهنرى الرابع ملك قشتالة الذى أمده بالمال والجند ، لتخف وطأة جيوش غرناطة عن قشتالة .

وشغل السلطان بحرب أخيه وترك قتال القشتاليين .

وكانت الحرب بين السلطان أبى الحسن وبين أخيه « الزغل » سجالا ، واستطاع السلطان أن ينتزع مالقا من ملك أخيه « الزغل » ، ولكن سرعان ماثار بها ثائر وخرج عن طاعة السلطان ، وأرسل يستدعى « الزغل » من بلاط قشتالة ، حيث كان – فيما يبدو – يؤدى واجب العزاء فى وفاة هنرى الرابع ملك قشتالة .

وانقسمت مملكة غرناطة إلى قسمين بين الأخوين المتخاصمين .

وعقدت بينهما هدنة على ذلك ، وكُتب صلح يؤكد ذلك الوضع الغريب .

وتم الاتحاد بين مملكتى قشتالة وأراجون وصار لهما عرش واحد يجلس عليه الملكان الكاثوليكيان : فرناندو وإيزابيلا ، وانتهى الصراع بين الدولتين ، وحسمت الحرب لصالح فرناندو وإيزابيلا التى كانت مع البرتغال .

وبدأ فى قشتالة عهد جديد ، ونظرت بعينيها ناحية غرناطة التى غرقت فى السلم والهدوء وراحة البال .

وتوجس السلطان أبو الحسن شرا ، فأرسل سفارة إلى بلاط قشتالة يطلب عقد هدنة ومعاهدة .

وكانت قشتالة قد فرغت – كما قلنا – لغريمتها العنيدة غرناطة ، فأجابت سفارة السلطان أبى الحسن أن الصلح جائز والهدنة ممكنة ، على أن يؤدى السلطان الجزية لبلاط قشتالة ويعترف بطاعته للملكين .

ورفض السلطان أبو الحسن هذا .

وردت قشتالة بأن أغارت على بعض الحصون، وعاثت فسادا فى سهول كثيرة فى أحواز « رندة » .

ورد السلطان ردا عنيفا جريئا لم يتوقع منه ، فقد باغت بجيشه بلدة « الصخرة » التى تقع فى شمالى غرب مدينة « رندة » ، واستولى عليها وقتل حاميتها وسبى سكانها ، وجلس فى قصره يتقبل التهنئة على هذه الخطوة السريعة المباغتة التى أحدثت دويا فى كل بلاد الأندلس .

واستنام السلطان بعد هذا النصر المبين للراحة والدعة ، وغرق فى الفساد ، وأساء إلى الأسر الكبيرة التى تعيش فى غرناطة ، وأطلق العنان لوزيره القاسى أبو القاسم بنيّغش يفعل مايشاء فى الرعية ، دون معقب أو رادع .

وبدأت عوامل الانحلال والضعف تعمل عملها فى مملكة تحالف على القضاء عليها أعداؤها وأبناؤها .

السلطانة عائشة :

لايفوتنا هنا ونحن نذكر لمحات من أيام غرناطة الأخيرة أن نذكر طرفا من الحديث عن هذه المرأة الشجاعة النبيلة ، التى كانت حياتها ضربا من البطولة والمغامرة ، وكانت لها شخصية قوية متمكنة ذات سلطان ، مع مثل رفيعة قل أن توجد فى ذلك الزمن المظلم .

رزقت السلطانة من السلطان أبى الحسن بولدين هما أبو عبد الله محمد ، ذلك الذى لقب بالصغير فيما بعد ، وأبو الحجاج يوسف .

وكان من المقرر أن يلى العرش أبو عبد الله محمد بعد وفاة أبيه .

ولكن حدث مالم يكن فى الحسبان .

فقد كان من عادة الملوك المسلمين أن يتزوجوا من نصرانيات ، ودرجوا على ذلك منذ عهد قديم ، بدأ به عبد العزيز بن موسى بن نصير الذى تزوج من أرملة رودريك ، وأوردته

موارد الهلاك عن عمد أو دون قصد ، فمازالت به حتى أقنعته أن يضع تاجا على رأسه ، وأن يجلس على الكراسى ، وأن يترفع فى معاملة إخوانه الذين لم يألفوا هذا الضرب من المعاملة فقتلوه .

وتعود أمراء المسلمين هذا فى الأندلس .

وعرف أعداؤهم ذلك عنهم أيضا .

والذى أرجحه أن كثيرا من هذه الزيجات قد تمت بتدبير خفى من البلاط القشتالى ، والغرض منه هو التأثير أو نقل الأخبار والمعلومات ، أو الاثنان معا .

وفجأة سطعت « كوكب الصباح » فى بلاط غرناطة .

ثريا أو إيزابيلا ابنة عظيم من عظماء قشتالة ، زرعت أمام عين السلطان أبى الحسن الذى شاخ ونخره الفساد وكان يستهويه الجمال ويسبيه .

اختاروها بعناية ووضعوها أمامه فتزوجها ، وكما قلت لم يكن هذا بالأمر المستهجن أو الغريب فى مجتمع قد اعتاد هذا ودرج عليه .

وغرق السلطان فى حب تلك المدربة الوافدة ، وكان يقضى أيامه كلها معها،وأسكنها فى جناح الحمراء الكبير أو قصر قمارش .

وكانت عائشة وأولادها تقيم فى جناح بهو السباع .

وصارت ثريا تخطط لتنتزع ولاية العهد لأحد ولديها من السلطان ، وكانت قد رزقت من السلطان الشيخ بسعد ونصر .

وكان أشراف غرناطة يؤيدون ولد السلطانة عائشة ، ولايفضلون أحدا من أبناء الجارية الرومية فى زعمهم . ولكن ثريا أو إيزابيلا لم تيأس ، بل واصلت السعى ضد ضرتها لدى السلطان ،

واستعانت عليه بجمالها ورقتها وعذوبتها وشبابها ، ومازالت به حتى أمر بسجن السلطانة وولديها فى برج قمارش تحت الحراسة المشددة .

ولم يكن هذا أيضا مستهجنا فى تلك الأيام .

وكادت ثريا أو إيزابيلا تؤثر فى السلطان فيزهق روح السلطانة وولديها ، لولا قوة الشكيمة التى تميزت بها عائشة ، وكانت قد اتصلت ببعض أنصارها من بنى سراج الذين تدبروا معها طريقة الفرار ، وكانوا من أقوى الأسر الغرناطية .

وكان بعض الخدم المخلصين ينتظرون بالجياد على مقربة من نهر « حَدُّره »، واستعانت عائشة القوية بأغطية الفراش وهبطت من شاهق هى وولداها، وذهبت بهما إلى مكان أمين قد أعده لها أصدقاؤها من بنى سراج .

ولم يغفر السلطان أبو الحسن لبنى سراج مافعلوه ، ونكل بهم ونكبهم لفعلتهم هذه . ثم ظهر أبو عبد الله محمد شابا يافعا فى وادى آش ، بعد أن أعدت له أمه مايمكن أن يلزمه من مال ورجال ليثب أميرا جديدا إلى سدة عرش قد ناء بما يحمله من متوثبين ومتغلبين ، يأتون بين الحين والحين .

أبو عبد الله محمد بن أبى الحسن الملقب بالصغير :

بدأت قشتالة تمتشق الحسام لتتخلص من المسلمين .

استولت على « الحامة » بليل فى غفلة من السلطان أبى الحسن ، وحاول استرجاعها ولكنه فشل بعد حصار قصير ، عاد بعده خائبا إلى غرناطة .

وبعد شهور اقتحم القشتاليون مدينة « لَوْشه » على نهر شنيل ، ولكن المسلمين ردوهم وغنموا منهم بعد أن أسرع السلطان أبو الحسن إلى نجدتهم .

فى أثناء ذلك تغلب أبو عبد الله محمد بن الحسن على عرش أبيه ، الذى فر إلى مالقا فى حماية أخيه أبى عبد الله « الزغل » وكان ذلك فى أواخر عام ٨٨٧ هـ الموافق أواخر عام ١٤٨٢ م .

وكان أبو عبد الله محمد فتى فى الخامسة والعشرين من عمره آنذاك .

استطاع أبو عبد الله « الزغل » أن يرد النصارى عن « مالقا » عندما حاولوا الاستيلاء عليها ، وهزمهم هزيمة ساحقة وأسر وقتل منهم عدة آلاف ، الأمر الذى بعث الحماس فى نفوس المسلمين فى كل بلاد الأندلس .

شعر الملك أبو عبد الله محمد بالغيرة للشعبية الشديدة التى حصل عليها عمه « الزغل » لانتصاره على جيوش فرناندو فى معركة « الشرقية » عند « مالقا » .

وأراد أن يقلده فخرج فى جيش كبير يريد حصار قلعة « اللسَّانه » فى طريق « قرطبة » وكان مثقلا بالغنائم التى غنمها فى معارك صغيرة فى الطريق مع القشتاليين .

والتقى أبو عبد الله بالنصارى فى ظاهر القلعة ، ودارت معركة عنيفة هزم فيها المسلمون هزيمة منكرة ، وتركوا خلفهم عددا كبيرا من الأسرى ، كان من بينهم الملك نفسه أبو عبدالله محمد .

وعاد المسلمون إلى غرناطة بعد أن تركوا ملكهم أسيرا .

أما الملك فقد أرسل تحت الحراسة المشددة إلى قرطبة حيث استقبل استقبالا رسميا وبجفاوة شديدة ، ثم أرسلوه إلى القلعة التى ظل سجينا بها .

فى ذلك الوقت اجتمع الكبراء والأعيان من أهل غرناطة ، وفكروا فى استدعاء السلطان أبى الحسن ليجلس على العرش ، ولكن الرجل كان شيخا مريضا قد كف بصره فأبى ، وتحادثوا مع أبى عبد الله « الزغل » الذى وافق ودخل غرناطة وجلس على عرشها، واتحدت مملكة غرناطة التى كانت قد قسمت نصفين .

مقدمات المأساة الإسلامية فى غرناطة :

كان أسر الملك أبى عبد الله الصغير فرصة عظيمة للقشتاليين ليدبروا أمورهم مع ذلك الملك ضعيف الهمة ، وخلال تخاذله وتهافته استطاعوا أن ينفذوا إلى كل معاقل المسلمين المتبقية هناك .

استمر الملك أسيرا أكثر من عامين ، أجريت عليه كافة التجارب والبحوث الممكنة ، من قوم قد حزموا أمرهم على طرد المسلمين من بلادهم .

وكانت مطالب أبى عبد الله الصغير هى العرش بأية صورة كانت ، وعلى الكيفية التى يريدها من يساعده فى استعادة هذا العرش .

ولم يكن أبو عبد الله الصغير من المجاهدين الصابرين الذين يعتبرون السجن سياحة وفرصة للتأمل والنظر وعبادة الله وقراءة القرآن ، فقد كان الأسر بالنسبة له محنة عظيمة يود لو يخرج منها على أى حال من الأحوال .

وكان أعداؤه قد فهموا هذا واحتفظوا به كورقة رابحة تستخدم فى الوقت المناسب ، ولم يكفوا عن تقديم الوعود المعسولة له بين الحين والآخر من خلال قائد المعتقل ومعاونيه .

وكانوا يسربون إليه الأخبار الكاذبة عن قرب موعد الإفراج عنه ، ويطلبون منه الاستعداد للخروج ، ثم يعتذرون إليه بعد تأميل وعشم فى الخروج . وقد استطاع القشتاليون أن يجروا غسيلا لمخ الملك الضعيف ، وأن يلقوا فى روعه أن قشتالة هى أم الدنيا ، وأنها الغالبة القادرة ، وأن العاقل من يبحث عن رضى فرناندو وإيزابيلا ، وأن رضاهما أعظم من رضى الله سبحانه وتعالى . ذلك لمن أراد الدنيا وسعى لها سعيها وهو خاسر .

وأصبح الملك مهيأ لفعل مايطلبونه منه ، وعلى استعداد للتفريط فى كل مايراه العقلاء من واجب الدين ومالا ينبغى على مسلم تركه أبدا .

كان للملك غاية وحلم يراوده كلاهما بالليل والنهار ، و لم يترك التفكير فيهما لحظة ، وهما الحرية والعرش ، أن يخرج إلى غرناطة ملكا كما كان تحت أى شروط يراها أصحاب السجن الذى يعيش فيه .

وكانت الملكة عائشة تلك المرأة القوية الشكيمة تبحث عن طريقة تفتدى بها ولدها بأسرع مايمكنها حتى لايقع تحت تأثير النصارى ونفوذهم . وكلفت الوزير يوسف بن كماشة بإجراء المفاوضات الخاصة بالإفراج عن الملك مع البلاط القشتالى . وكلفته أيضا بالموافقة على أية فدية يراها القشتاليون ، وسارت المفاوضات حول إطلاق سراح الملك سيرَ الهوينى كسباً للوقت ، فهم لايرفضون ولكن يتلكئون .

يقدمون طلبات مالية كبيرة فيفاجئون بموافقة ابن كماشة عليها ، فيطلبون مهلة لعرض الأمر على الملكين الكاثوليكيين .

ثم يعودون فيزيدون فى الطلب .

وكان هذا انتظارا للفرصة المواتية التى تخدم أغراضهم ومخططهم .

وكان مولاى أبو عبد الله محمد بن سعد « الزغل » مجاهدا عظيما قوى الإيمان ، قد صارت له الشعبية الكبيرة فى نفوس الناس ، فهو أملهم فى الخلاص من سلطان قشتالة ، وهو رمز الجهاد فى سبيل الله ، وكان الرجل عبقرية فذة تجلت فى العمليات العسكرية الناجحة التى كان يقوم بها ضد قوات فرناندو وإيزابيلا .

وكان مولاى « الزغل » يحاول استنهاض أمم الإسلام فى العالم كله لإنقاذ ما تبقى من أرض إسلامية فى الأندلس . وكان كذلك يحاول تجميع كل شعب غرناطة وتسليحه ، ويحاول أن يجلب إلى غرناطة الكفاءات الإسلامية المهمة من كافة البلاد التى كانت مسلمة ثم استولى عليها النصارى .

كان الرجل باختصار شوكة فى حلق الدولة القشتالية لا تستطيع نزعها .

فى أثناء ذلك كان القشتاليون يدبرون الأمر للقضاء على غرناطة قضاء مبرما . وجاءت التقارير إلى الملكين الكاثوليكيين أن أبا عبد الله الصغير أصبح مهيأً تماما لما يريدون .

وعقدت معاهدة سرية ، عرفت بعض نصوصها عن طريق النقل والثرثرة واختفت بقية النصوص ، ثم ظهرت متمثلة فى أعمال وتصرفات الملك الغافل بعد خروجه من الأسر .

كان على أبى عبد الله الصغير بعد الذى ذاقه من هوان الأسر ، وتذبذبه بين اليأس والأمل فى الحرية والتاج ، أن يرضى بكل مايطلبه القشتاليون .

أن يعترف بالطاعة والتبعية للتاج الإسبانى .

أن يدفع جزية سنوية قدرها اثنا عشر ألف دوبل من الذهب .

أن يفرج فى الحال عن أربعمائة أسير من أسرى النصارى الموجودين بغرناطة .

أن يفرج بعد ذلك كل عام عن سبعين أسيرا من النصارى لمدة خمس سنوات .

أن يقدم ولده الأكبر وأبناء بعض الأمراء رهينة للوفاء .

وتعهد الملكان الكاثوليكيان نظير هذا ألا يكلفاه فى حكمه بأى شىء يخالف الشريعة الإسلامية . وأن يقدما له المساعدة اللازمة فى استنقاذ المدن الثائرة عليه . وأن هذه المدن تصير تابعة للتاج القشتالى فور افتتاحها وتخليصها .

كان الاتفاق رمحا موجها إلى صدر مولاى « الزغل » .

كانوا يستعينون بأبى عبد الله الصغير للتعامل والتصرف مع صيحة الجهاد الإسلامى التى أطلقها مولاى « الزغل » واستجاب الشعب لها ، وبدأت تفرض واقعا جديدا ، ربما كان يستطيع تغيير التاريخ لو تدخلت قوى إسلامية أخرى من وراء البحر .

أفرج عن أبى عبد الله الصغير فى أوائل عام ١٤٨٥ م الموافق ٨٩٠ هـ تقريبا وقدمت له كتيبة من الجند القشتاليين لاحتلال بعض الحصون الإسلامية .

وكان الاحتلال فى ظاهره باسم الملك أبى عبد الله الصغير ، وفى باطنه وحسب المعاهدة السرية لحساب قشتالة .

والناس لاتعرف حقائق السياسة إلا بعد انقضاء وقت طويل ، ففى هذه الأيام نجد بعض الدول لا تبيح نشر وثائقها إلا بعد انقضاء مدة معينة لاتقل عن ثلاثين عاما ، وقد تصل إلى خمسين ، وهناك من الوثائق مايحرم نشره قط ، فما بالنا فى مجتمع كان منذ حوالى خمسمائة عام لاتتوفر له وسائل الاتصال الحديثة التى نعرفها . فكان مايدور فى الأروقة من الأسرار التى لايطلع عليها عامة الناس .

أقول هذا لأن كثيرا من الغرناطيين المسلمين لم يفهموا الملك على حقيقته عندما عاد من الأسر . بل رأوا فيه مجاهدا مسلما تحمل مرارة الأسر فى صبر ويقين حتى افتدوه بالمال ، ومثل هذا من ينبغى أن يتبع ، لهذا وجد من ينتظره فى غرناطة .

لم يعلموا أن الملك الصغير قد خرج من الأسر ضعيفا متهالكا قد باع للعدو شرفه ودينه لقاء العرش .

وماكان ينبغى له أن يقول هذا للناس ، وأنّى لهم أن يعرفوا .

فقد كان الجهاد فى سبيل الله – ولايزال – لايعرف غير لغة واحدة ، هى الشهادة فى سبيل الله . لغة الموت تلك التى تحقق دائما أهداف المؤمنين .

عاد أبو عبد الله الصغير بفكر جديد إلى المسلمين فى غرناطة :

لماذا لانتصالح ونتهادن مع القشتاليين فتقف الحروب ويتفرغ الناس لأعمالهم ؟ والتجار لتجارتهم ، والزراع لزراعتهم ؟

وكان ينشر دعوته تلك بلغته الخاصة ، دون سرد أو شرح لما وراءها من خلفيات مؤسفة مؤلمة .

والناس أميل إلى الدعة والسكون والراحة فى مجتمع لم تنقطع عنه الحروب منذ مئات السنين . وعلى الأخص عندما يكون صاحب هذه الدعوة ممن يثقون فى دينه وأمانته .

ووجد أبو عبد الله الصغير من يستجيب لدعوته ويناصره فيها ، ولم يكن أحد يشك فى نبل مقصده وشرف غايته ، وهو المجاهد القديم الذى عرفته ساحات القتال مع النصارى منتصرا ، ثم أسيرا فى سبيل الدين .

أحدثت دعوة أبى عبد الله الصغير فى المجتمع الغرناطى هزة وانقساما ، ومن ثم اضطرابا كبيرا ، وانقسمت المملكة مرة أخرى إلى فريقين كبيرين متنازعين مولاى « الزغل » وأبى عبد الله الصغير .

وانتهز القشتاليون هذه الفرصة ليغيروا على النواحى المتطرفة ويستولوا على الحصون ، وسقطت قواعد إسلامية مهمة أثناء ذلك الاضطراب . ثم وجه القشتاليون قوتهم الرئيسة إلى « رندة » حصن الأندلس الإسلامية من الغرب ، أو حصن ماتبقى من الأندلس الإسلامية .

وضربوها بالمدافع حتى تحطمت أسوارها وسقطت فى إبريل ١٤٨٥ م بعد دفاع المجاهد حامد الثغرى وأصحابه عنها .

والمدافع كما قلنا اختراع إسلامى ، قدم إلى الأندلس من بلاد الشرق الإسلامى ثم طوره المسلمون فى الأندلس ، وهناك مخطوطة عثر عليها قبل سقوط « رندة » بأكثر من مائة عام عنوانها « العز والمنافع للإخوة المجاهدين بالمدافع » ولكن قلة الموارد لم تسمح للمسلمين بصنع الكثير منه ، فى الوقت الذى تسرب فيه هذا الاختراع إلى القشتاليين ، وهذا أمر طبيعى ، وبمواردهم الكثيرة استطاعوا صناعة العديد منه .

وكان مولاى « الزغل » بين نارين : نار القشتاليين ونار ابن أخيه الصغير المطالب بعرش غرناطة .

ولكن مولاى « الزغل » – وفى هذه الظروف الصعبة – استطاع أن يرد النصارى عن حصن « مُكْلين » وأن يكبدهم خسائر فادحة فى الأموال والرجال .

وكان الأمير يوسف أبو الحجاج شقيق أبى عبد الله الصغير فى ألمرية فثار ضد عمه « الزغل » مناصرة لأخيه الذى استقر فى « بلّش » يرقب الأمور ويرسل الدعاة لتخلص له غرناطة .

وذهب « الزغل » بقواته إلى « ألمرية » واستطاع القضاء على فتنة الأمير يوسف وأمر بإعدامه ، وهدأت « ألمرية » .

ثم ثارت غرناطة نفسها ضد « الزغل » لحساب أبى عبد الله الصغير .
وضرب مولاى « الزغل » حى « البيازين » بالمجانيق ، والمدافع .

وجرت المفاوضات بين أبى عبد الله الصغير و « الزغل » وانتهت المفاوضات إلى قسم المملكة نصفين من جديد .

وهاجم النصارى مدينة « لوشة » أثناء الفتنة القائمة .

وكان بها أبو عبد الله الصغير .

وقيل إنها كانت الفدية الرئيسة لخروجه من المعتقل ، فقد تهاون فى الدفاع، وسقطت « لوشة » فى يد النصارى .

وكان دفاع أبى عبد الله الصغير عن « لوشة » دفاعاً شكليا ظاهريا ، ورغم هذا اعتبره القشتاليون خروجا عن الاتفاق الذى كان ، ثم تناسوا المسألة فقد كانوا يعرفون الحقيقة .

وفى إيقاع سريع منتظم شمر القشتاليون عن ساعد الجد .

سقطت « إليورة » .

ثم سقط حصن « مكلين » الذى استبسل فى الدفاع عنه من قبل مولاى « الزغل » ثم ظهر أبو عبد الله الصغير فجأة فى حى « البيازين » من غرناطة .

أحداث تتلاحق واحدة إثر أخرى من رسم مهندس قشتالى بارع فى شئون السياسة وأمور الحرب .

وشدد مولاى « الزغل » على حى البيازين للقضاء على الفتنة .

فى الوقت نفسه جاءته الأخبار أن القشتاليين يسيرون فى جيوش جرارة ووجهتهم حصن « بِلّش » الذى يمثل سور الدفاع الرئيس عن « مالقا » .

وأسرع « الزغل » للدفاع عن « مالقا » و « بلّش » .

وسقطت « بلّش » ولم يستطع لها شيئا .

وعاد إلى غرناطة فوجد أن الثورة قد انتهت لصالح غريمه وابن أخيه أبى عبد الله الصغير . وأثناء وقوفه حزينا يائسا عند أسوار غرناطة دوت فى مخيلته ضحكة كبيرة ساخرة لفرناندو الخامس .

عاد مولاى « الزغل » إلى « وادى آش » وتحصن بها وامتنع فيها ، وتكرس انقسام المملكة أخيرا إلى قسمين :

غرناطة وأعمالها، ويحكمها أبو عبد الله الصغير ،

ووادى آش وأعمالها، ويحكمها مولاى محمد بن سعد « الزغل » .

نهاية المأساة :

كانت غرناطة فى نظر فرناندو لاتمثل خطرا لوجود أبى عبد الله الصغير الموالى له على عرشها .

وكان تفكيره الرئيس كيف يقضى على قوة مولاى « الزغل » قبل أى شىء .

وكانت « مالقا » لم تسقط بعد فى يد النصارى ، وكانت ميناء يمكن أن تأتى من خلاله الإمدادات من الشاطىء الآخر من البحر .

وجه فرناندو قواته لحصار « مالقا » ، وكان « الزغل » يخشى غدر أبى عبدالله الصغير فتركها لمصيرها ، وسقطت بعد استماتة المدافعين .

ولم يعد فى يد المسلمين من الموانىء البحرية غير « ألمرية » و « المنكَّب » حيث نزل عبد الرحمن الداخل فيه يوما غازيا فأقام دولة كبيرة .

وبدأ فرناندو يغير على الحصون القريبة من الثغرين ، ويستولى على القرى والبلاد التى فى طريقهما ، ليقطع طرق الإمداد والتموين عنهما حتى يسقطا ، فيقطع طرق الامداد والتموين عن الأندلس الإسلامية كلها ، أو ماتبقى منها .

وسقط ثغر « المنكَّب » فى تفصيل طويل مرير .

وسقطت « بسطة » فى صورة مأساوية محزنة .[1]

---

١ – دافع عن « بسطة » القائد يحيى النيار دفاعا مستميتا ، ثم فاوض فرناندو على التسليم،وهناك وثيقة نقلها لنا محمد عبد الله عنان فى كتابه « نهاية الأندلس » ص ٢٢٥ مترجمة عن أصل قشتالى على صورة رسالة موجهة إلى يحيى النيار من الملك فرناندو يقول له فيها : « إنه سوف يستقبله تحت حمايته هو وولده وأبناء عمه ، وينزلهم فى داره ويعاملهم بما يليق بهم معاملة أشراف مملكته » ثم يقول له : « وإنه إذا صحت عزيمتكم حقاً على اعتناق النصرانية ، على أن تخدمنى برجالك فإننى أكتم ذلك مدة الفتح ، حتى لايتقول عليك رجالك ، ولهذا فإنك تستقبل التعميد المقدس سرا فى غرفتى ، حتى لايعرفه المسلمون إلا بعد تسليم وادى آش » ! ومن هذا النص نرى النوايا والاستراتيجية الواضحة وهى القضاء على ملك المسلمين فى غرناطة ، ثم يقول له : « وإنه تشريفا لشخصك يسمح لك بأن يصحبك عشرون فارسا مسلحون بكل مايرغبون ، وأن تتجول بهم حيث شئت فى أنحاء مملكتى ، وإنه إذا تم تسليم وادى آش فى الموعد المتفق عليه فإن لك مكافأة على جهودك فى خدمتى لدى ملكْ وادى آش وغيره من القادة ، أهبك عشرة آلاف دوبل ، وأقدم لك سائر البراءات اللازمة بما تقدم » .

النصوص بين قوسين مقتطفات من « نهاية الأندلس » طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

ثم سلمت « ألمرية » فقد كان الخطب أكبر من أن يدفع .

كانت « وادى آش » مدينة محكوماً عليها بالسقوط فى يد النصارى رغم وجود حاكمها القوى مولاى « الزغل » ، فقد تدخلت الخيانات والإيحاءات ، وبذل « يحيى النيار » الجهد الكبير ليرغم « الزغل » قليل الحيلة على التسليم لفرناندو . وأخيرا وعلى غير ماهو متوقع من فارس مجاهد مثل مولاى « الزغل » ذهب إلى معسكر الملك فرناندو وكتب معه معاهدة سرية وسلم له المدينة ، وأخذ منه بعض الحقوق المالية ، وأدرك بعدها هوان ماهو، فيه فجاز البحر إلى المغرب واستقر فى تلمسان بعد طواف ، حيث عاش فيها نادما متحسرا للنهاية السيئة التى انتهى إليها .

وكان هناك صلح لمدة عامين بين أبى عبد الله الصغير وبين فرناندو يقضى بأن يسلم أبو عبد الله الصغير غرناطة إذا سقطت « بسطة » و « ألمرية » و « وادى آش » وقد تحقق الشرط فوجب الوفاء من جانب أبى عبد الله الصغير .

وأرغم شعب غرناطة ملكه على رفض هذا الطلب من القشتاليين ، وأرغموه على الخروج لحرب النصارى فى جولات كثيرة منتصرة ، بين دهشة فرناندو من هذا الموقف غير المفهوم ، بل حاول أبو عبد الله الصغير أكثر من هذا ، أراد استرداد بعض الحصون التى فقدها المسلمون ، منتهزا شعور الحماسة الدينية الذى يملأ الناس .

ومنذ أول ١٤٩٠ م بدأ الحصار الصارم حول غرناطة فى جيش قوامه ثمانون ألف فارس قد زود بالمدافع ، وبنيت مدينة « شنتا فى » فى ثلاثة أشهر و لم يقبل غير التسليم .

وقد اختلفت الأقوال فى تفسير ماحدث فى غرناطة منذ معاهدة الصلح التى وقعها مولاى « الزغل » صاحب « وادى آش » حتى معاهدة التسليم التى وقعها أبو عبد الله الصغير .

فالذى لاشك فيه وماحدث وسجلته كتب التاريخ أن روحا جديدة قد سرت فى « غرناطة » . وأن الشعب قد رفض الاستسلام للملكين الكاثوليكيين . وأن أبا عبد الله الصغير

قد خرج مع فرسانه يحارب النصارى ، بعد أن أجمع الشعب فى اجتماع عام عقده الملك على عدم التسليم .

وقد أظهرت غرناطة فى تلك الشهور القلائل أعظم صور الجهاد والاستبسال . وكان موسى ابن أبى الغسان يخرج إلى قتال العدو كل يوم ، أو كل ليلة .

وكان الحصار يحكم حول المدينة ، فلم تكن لها جادة تأتيها منها المؤن القليلة إلا الناحية الشرقية ، حيث جبال « شُلير » وماكانت تأتيها غير المؤن القليلة ، ولكن الشعب الغرناطى قد بذل غاية ماعنده فى الذود عن أرضه .

وكانت صيحة موسى بن أبى الغسان الشهيرة :

– لم يبق لنا من الوطن غير الأرض التى نقف عليها .

وهناك من يرى أن تواطؤاً قد حدث بين أبى عبد الله الصغير وملك قشتالة . ولكنها روح الشعب ، ويخشى فرناندو على حليفه من القتل والضياع لو أظهر لينا وتهاونا ضد عدوة غرناطة اللدود . فليبق أبو عبد الله حتى يلين الشعب ويرهقه الحصار ، وذلك خير من حاكم آخر يجيىء وينفخ فى روح المسلمين مايمكن أن يساعدهم على مواصلة الجهاد ضد النصارى .

وقد تطول الحرب على مافيها من خسارة كبيرة للجانب القشتالى .

ولكن أبا عبد الله يعزف نغما متناسقا مع قائد الفرقة فرناندو .

فهو مع الشعب ثم يخوفهم من طرف خفى ، ولايزال الحصار يضغط على المدينة ، واليأس يتسرب إلى نفوس الناس حتى ملوا ، ثم بدأ من يعرض على الناس فكرة التسليم بعد هذا الحصار الصارم الذى لن ينتهى فيما يبدو للناس . بدأت المؤن تنفد ، وسقط الفرسان قتلى ، ووزعت العطايا والرُّشا ، وبذلت الوعود والعهود ، وأفلس التجار ، والقدر الصارم بالمرصاد ، وسفن

فرناندو تقطع المضيق جيئة وذهابا تمنع أية سفينة تحاول الاقتراب من الشاطىء الإسبانى ، وبدأت المظاهرات من بعض الغوغاء والعامة الذين لم يعودوا يجدون الخبز ، ولاشك أن للعملاء نصيباً كبيراً فى تنظيم هذا كله .

وبدأ الجو ممهدا للاستسلام ، وتوقفت حملات القتال التى كانت تخرج من المدينة قبل المفاوضات بشهرين ، الأمر الذى يشير بأصبع الاتهام إلى أبى عبد الله الصغير ، الذى أسرع يطلب الهدنة - رغم توقف القتال - حتى يمكنه التفاهم حول شروط الصلح !

حول معاهدة تسليم غرناطة الإسلامية

تم توقيع هذه المعاهدة بعد عدة أسابيع من المفاوضات بين جانب قشتالى قوى متشدد ، وجانب غرناطى ضعيف متهالك ، يسلم لخصمه دون كبير مناقشة . وكان تاريخ التوقيع عليها من الجانبين هو يوم ٢٥ نوفمبر سنة ١٤٩١ الموافق ٢١ محرم ٨٩٧ هـ ونصوص المعاهدة كالتالى[١] :

١ – يتعهد ملك غرناطة والقادة والفقهاء والوزراء والعلماء ، وكافة الناس سواء فى غرناطة والبيازين وأرباضهما بأن يسلموا طواعية واختيارا،وذلك فى ظرف ستين يوما تبدأ من تاريخ هذه المعاهدة قلاع الحمراء والحصن وأبوابها وأبراجها ، وأبواب غرناطة والبيازين ، إلى الملكين الكاثوليكيين ، أو إلى من ينديانه من رجالهما ، على ألا يسمح لنصرانى أن يصعد إلى الأسوار القائمة بين القصبة والبيازين ، حتى لايكشف أحوال المسلمين ، وأن يعاقب من يفعل ذلك .

وضمانا لسلامة هذا التسليم ، يقدم الملك المذكور مولاى أبو عبد الله والقادة المذكورون ، إلى جلالتيهما ، قبل تسلم الحمراء بيوم واحد ، خمسمائة شخص صحبة الوزير ابن كماشة ، من أبناء وإخوة زعماء غرناطة والبيازين ، ليكونوا رهائن فى يديهما لمدة عشرة أيام ، تصلح خلالها الحمراء . وفى نهاية هذا الأجل يرد أولئك الرهائن أحراراً . وأن يقبل جلالتهما ملك غرناطة

---

(١) وردت نصوص هذه المعاهدة فى مراجع مختلفة مثل كتاب أخبار العصر فى تاريخ دولة بنى نصر ، ونفح الطيب وغيرهما ، ولكن المرجع الذى نطمئن إليه بعد الفحص والمقارنة وهو الذى ننقل عنه هو « نهاية الأندلس » لمحمد عبد الله عنان حيث نقل عن النصوص القشتالية . وقد أجرينا بعض التصرف فى المقارنة أيضا .

وسائر القادة والزعماء ، وسكان غرناطة والبشرات وغيرهما من الأراضى ، رعايا وأتباعا تحت حمايتهما ورعايتهما .

٢ – وأنه حينما يرسل جلالتاهما رجالهما لتسلم الحمراء المذكورة ، فعليهم أن يدخلوا من باب العشار ومن باب نجدة ، ومن طريق الحقول الخارجية ، وألا يسيروا إليها من داخل المدينة ، حينما يأتون لتسلمها وقت التسليم .

٣ – وأنه متى تم تسليم الحمراء والحصن ، يرد إلى الملك المذكور أبى عبد الله والقادة سائر الرهائن المسلمين ، وسائر حشمه الذين لم يعتنقوا النصرانية .

٤ – يتعهد جلالتاهما وخلفاؤهما إلى الأبد ، بأن يترك الملك المذكور أبو عبد الله ، والقادة والوزراء والعلماء والفقهاء والفرسان ، وسائر الشعب تحت حكم شريعتهم ، وألا يؤمروا بترك شىء من مساجدهم وصوامعهم ، وأن تترك لهذه المساجد مواردها كما هى ، وأن يقضى بينهم وفق شريعتهم وعلى يد قضاتهم ، وأن يحتفظوا بتقاليدهم وعوائدهم .

٥ – ألا يؤخذ منهم خيلهم أو سلاحهم الآن أو فيما بعد ، سوى المدافع الكبيرة والصغيرة فإنها تسلم .

٦ – أنه يحق لسائر سكان غرناطة والبيازين وغيرهما ، والذين يريدون العبور إلى المغرب أن يبيعوا أموالهم المنقولة لمن شاءوا ، وأنه يحق للملكين شراؤها بمالهما الخاص .

٧ – أنه يحق للسكان المذكورين أن يعبروا إلى المغرب ، أو يذهبوا أحراراً إلى أية ناحية أخرى ، حاملين أمتعتهم وسلعهم ، وحليهم من الذهب والفضة وغيرهما . ويلتزم الملكان بأن يجهزا فى بحر ستين يوما من تاريخه ، عشر سفن فى موانيها يعبر فيها الذين يريدون الذهاب إلى المغرب . وأن يقدما خلال الأعوام الثلاثة التالية السفن ، لمن شاء العبور ، وتبقى السفن خلال هذه المدة تحت طلب الراغبين فى السفر ، ولايقتضى منهم خلال هذه المدن أى أجر أو مغرم ، وأنه يحق العبور لمن يشاء بعد ذلك ، نظير دفع « دوبل » واحد عن كل شخص ، وأنه يحق

لمن لم يتمكن من بيع أملاكه ، أن يوكل لإدارتها ، وأن يقتضى ريعها حيثما كان .

٨ - ألاَّ يرغم أحد من المسلمين أو أعقابهم ، الآن أو فيما بعد،على تقلد شارة خاصة بهم .

٩ - أن ينزل الملكان ، للملك أبى عبد الله المذكور ، ولسكان غرناطة والبيازين وأرباضهما ، لمدة ثلاث سنوات تبدأ من تاريخه عن سائر الحقوق التى يجب عليهم أداؤها عن دورهم ومواشيهم .

١٠ - أنه يجب على الملك أبى عبد الله ، وسكان غرناطة والبيازين وأرباضهما والبشرات وأراضيها ، أن يسلموا وقت تسليم المدينة طواعية ودون أية فدية ، سائر الأسرى النصارى الذين تحت أيديهم .

١١ - أنه لايسمح لنصرانى أن يدخل مكانا لعبادة المسلمين دون ترخيص،ويعاقب من يفعل ذلك .

١٢ - ألا يولى على المسلمين مباشر يهودى ، أو يمنح أية سلطة أو ولاية عليهم .

١٣ - أن يعامل الملك أبو عبد الله المذكور ، وسائر السكان المسلمين برفق وكرامة ، وأن يحتفظوا بعوائدهم وتقاليدهم ، وأن يؤدى للفقهاء حقوقهم المأثورة وفقا للقواعد المرعية .

١٤ - وأنه إذا قام نزاع بين المسلمين يفصل فيه وفقا لأحكام الشريعة الإسلامية ويتولى ذلك قضاتهم .

١٥ - ألا يكلف أحد من المسلمين بإيواء ضيف ، وألا تؤخذ منهم ثياب أو دواجن أو أطعمة أو ماشية أو غير ذلك دون إرادتهم ورغبتهم .

١٦ - وأنه إذا دخل نصرانى منزل مسلم قهرا عنه عوقب على فعله .

١٧ - وأنه فيما يتعلق بشئون الميراث والأحوال الشخصية ، يحتفظ المسلمون بنظمهم ،

ويمكن لهم أن يحتكموا إلى فقهائهم وفقا لسنن المسلمين وشريعتهم .

١٨ – وأنه يحق لسائر غرناطة والبشرات وغيرهما الداخلين فى هذا العهد ، والذين يعلنون الولاء لجلالتهما ، فى ظرف ثلاثين يوما من التسليم ، أن يتمتعوا بالإعفاءات الممنوحة ، مدى السنوات الثلاث .

١٩ – أن يبقى دخل الجوامع والهيئات الدينية أو أى أشياء أخرى مرصودة على الخير ، وكذا دخل المدارس ، متروكا لنظر الفقهاء (يقصدون الأوقاف الخيرية) وألا يتدخل جلالتهما بأية صورة ، فى شأن هذه الصدقات ، أو يأمرا بأخذها فى أى وقت .

٢٠ – وألا يؤخذ أى مسلم بذنب ارتكبه شخص آخر ، فلا يؤخذ والد بذنب ولده أو ولد بذنب والده ، أو أخ بذنب أخ ، أو ولد عم بذنب ولد عم ، ولايعاقب إلا من ارتكب الجرم[1] .

٢١ – وأنه إذا كان مسلم أسير ، وفر إلى مدينة غرناطة أو البيازين أو أرباضهما أو غيرهما ، فإنه يعتبر حرا ، ولايسمح لأحد بمطاردته إلا إن كان من العبيد أو من الجزائر .

٢٢ – ألا يدفع المسلمون من الضرائب أكثر مما كانوا يدفعونه لملوكهم المسلمين .

٢٣ – وأنه يحق لسكان غرناطة والبيازين والبشرات وغيرهما ، ممن عبروا إلى المغرب ، أن يعودوا خلال الأعوام الثلاثة التالية ، وأن يتمتعوا بكل ما يحتويه هذا الاتفاق من ميزات .

٢٤ – كما يحق لمن عبر منهم المغرب ، ولم ترضه الإقامة هنالك ، أن يعودوا خلال الأعوام الثلاثة ، وأن يتمتعوا بكل مافى هذا الاتفاق مثل غيرهم من المقيمين .

---

(١) لايسعني أن أترك هذا التعهد القشتالى للمسلمين دون تعليق ، فمباحث أمن الدولة فى مصر لاتفعل هذا بل هى تأخذ البرىء بالمسيىء ، وليتها توقع معاهدة مثل هذه مع الجماعات الإسلامية فى مصر ، فربما يستقيم الحال بينها وبينهم ، وواضح أن القشتاليين كانوا أكثر تقدما وإنسانية من مباحث أمن الدولة المصرية منذ أكثر من أربعة قرون ، على الأقل عند صياغة هذه المعاهدة .

٢٥ – وأنه يحق لتجار غرناطة وأرباضها والبشرات وسائر أراضيها ، أن يتعاملوا فى سلعهم آمنين ، عابرين إلى المغرب وعائدين ، كما يحق لهم دخول سائر النواحى التابعة لجلالتيهما ، وألا يدفعوا من الضرائب سوى التى يدفعها النصارى .

٢٦ – وأنه إذا كان أحد من النصارى اعتنق الإسلام – ذكراً كان أم انثى – فلا يحق لأى إنسان أن يهدده أو يؤذيه بأية صورة ، ومن يفعل ذلك يعاقب .

٢٧ – وأنه إذا كان مسلم قد تزوج بنصرانية واعتنقت الإسلام ، فلا ترغم على العودة إلى النصرانية ، بل تسأل فى ذلك أمام المسلمين والنصارى ، وألا يرغم أولاد « الروميات » ذكوراً أو إناثا ، على اعتناق النصرانية .

٢٨ – وأنه لايرغم مسلم أو مسلمة قط على اعتناق النصرانية .

٢٩ – وأنه إذا شاءت مسلمة متزوجة أو أرمل أو بكر اعتناق النصرانية بدافع الحب فلا يقبل ذلك منها ، حتى تسأل وتوعظ وفقا للقانون ، وإذا كانت قد استولت خلسة على حلى أو غيرها من دار أهلها ، أو أى شيء آخر ، فإنها ترد إلى صاحبها ، وتتخذ الإجراءات ضد المسئول .

٣٠ – وألا يطلب الملكان أو يسمحا بأن يطلب إلى الملك المذكور مولاى أبى عبد الله ، أو خدمه أو أحد من أهل غرناطة أو البيازين وأرباضهما والبشرات وغيرها ، من الداخلة فى هذا العهد ، بأن يردوا ماأخذوه أيام الحرب من النصارى أو المدجنين ، من الخيل أو الماشية أو الثياب أو الفضة أو الذهب أو غيرها ، أو من الأشياء الموروثة ، ولايحق لأحد يعلم بشيء من ذلك أن يطالب به .

٣١ – وألا يطلب إلى أى مسلم يكون قد هدد أو جرح أو قتل أسيرا أو أسيرة نصرانية ، ليس أو ليست فى حوزته رده أو ردها الآن أو فيما بعد .

٣٢ - وألا يدفع عن الأملاك والأراضى السلطانية - بعد انتهاء السنوات الثلاث الحرة - من الضرائب إلا وفقا لقيمتها ، وعلى مثل الأراضى العادية .

٣٣ - وأن يطبق ذلك أيضا على أملاك الفرسان والقادة المسلمين ، فلا يدفع عنها أكثر مما يدفع عن الأملاك العادية .

٣٤ - وأن يتمتع اليهود من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما ، والأراضى التابعة لهما ، بما فى هذا العهد من امتيازات ، وأن يسمح لهم بالعبور إلى المغرب خلال ثلاثة أشهر ، تبدأ من يوم ١٨ ديسمبر[1] .

٣٥ - وأن يكون الحكام والقواد والقضاة ، الذين يعينون لغرناطة والبيازين والأراضى التابعة لهما ، ممن يعاملون الناس بالكرامة والحسنى ، ويحافظون على الامتيازات الممنوحة ، فإذا أخل أحدهم بالواجب عوقب وأحل مكانه من يتصرف بالحق .

٣٦ - وأنه لايحق للملكين أو لأعقابهما إلى الأبد أن يسألوا الملك المذكور أبا عبد الله أو أحدا من المسلمين المذكورين بأية صورة عن أى شىء يكونون قد عملوه ، حتى حلول يوم التسليم ، وهى فترة الستين يوما المتفق عليها .

٣٧ - وأنه لايولى على أهل غرناطة أحد من الفرسان أو القادة أو الخدم الذين كانوا تابعين لملك وادى آش[1] .

---

(١) هذا البند يبين حرص المسلمين على حقوق رعاياهم من اليهود ، رغم الكراهية الشديدة التى كان يحملها القشتاليون لليهود ورغبتهم فى إفنائهم .

(١) كان أبو عبد الله الصغير على عداوة شديدة مع عمه الزغل حاكم وادى آش ، وكانت بينهما حروب كثيرة أنهكت المسلمين عامة وغرناطة خاصة .

٣٨ – وأنه إذا وقع نزاع بين نصرانى أو نصرانية ومسلم أو مسلمة ، فإنه ينظر أمام قاضٍ نصرانى وآخر مسلم ، حتى لايتظلم أحد مما يقضى به .

٣٩ – وأن يقوم الملكان بالإفراج عن الأسرى المسلمين – ذكورا وإناثا – من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما وأراضيهما ، إفراجا حراً دون أية نفقة من فدية أو غيرها ، وأن يكون الإفراج عمن كان من هؤلاء الأسرى بالأندلس فى ظرف الأشهر الخمسة التالية ، وبعد يومين من تسليم الأسرى النصارى لجلالتيهما يفرج عن مائتين من الأسرى المسلمين ، منهم مائة من الرهائن ومائة أخرى .

٤٠ – وأنه إذا دخلت أية محلة من نواحى البشرات فى طاعة جلالتيهما فإنه يجب أن يسلم إليهما كل الأسرى النصارى – ذكوراً وإناثا – فى ظرف خمسة عشر يوما من تاريخ الانضمام ، وذلك دون أى نفقة .

٤١ – تقدم الضمانات اللازمة للسفن المغربية الراسية الآن فى مملكة غرناطة لكي تسافر فى أمان ، على ألا تكون حاملة أى أسير نصرانى ، وألا يحدث أحد لها ضرراً أو إتلافاً ، وألا يؤخذ منها شيء ، ولاتقدم هذه الضمانات للسفن التى تحمل أسرى من النصارى ، ويحق لجلالتيهما إرسال من يقوم بالتفتيش للتأكد من عدم مخالفة هذه السفن .

٤٢ – ألا يدعى أو يؤخذ أحد من المسلمين للحرب رغم إرادته ، وإذا شاء جلالتاهما استدعاء الفرسان الذين لهم خيول وسلاح للعمل فى نواحى الأندلس فيجب أن يدفع لهم الأجرة من يوم الرحيل حتى يوم العودة .

٤٣ – وأنه يجب على كل من عليه دين أو تعهد أن يؤديه لصاحب الحق ، ولايحق لأحد أن يتحرر من هذه الحقوق .

٤٤ – أن يكون المأمورون القضائيون الذين يعينون لمحاكم المسلمين من المسلمين من الآن وإلى الأبد .

٤٥ – أن يكون المتولون لوظائف الحسبة الخاصة بالمسلمين أيضا من المسلمين ، وألا يتولاها نصرانى الآن وفى أى وقت .

٤٦ – أن يقوم الملكان فى اليوم الذى تسلم إليهما فيه الحمراء والحصن والأبواب، كما تقدم ، بإصدار المراسيم الخاصة بالامتيازات التى للملك أبى عبد الله وللمدينة المذكورة ممهورة بتوقيعهما ، ومختومة بخاتمهما الرصاص ذى الأهداب الحريرية ، وأن يصدق عليها ولدهما الأمير ، والكاردينال المحترم ، ورؤساء الهيئات الدينية ، والعظماء والدوقات والمركيزون والكونتات والرؤساء ، حتى تكون ثابتة صحيحة الآن وفى كل وقت .

توقيعـات

وقد ذيلت هذه المعاهدة بتعهد من الملكين الكاثوليكيين ، باحترام نصوصها ، ويؤكدان ويضمنان بدينهما وبشرفهما الملكى تنفيذ كل مافيها من بنود ومن امتيازات لأهل غرناطة .

ثم ذيل هذا التعهد بتوقيعات الملكين وكبار الدولة والنبلاء ورجال الدين . وعندما زرت دار البلدية بغرناطة منذ سنوات قدر لى أن أطلع على نص هذه المعاهدة وهى محفوظة بالأرشيف هناك ، وقد كتبت باللغة القشتالية وهى مكونة من سبع ورقات وليست مرقمة كما أوردناها مترجمة ، وهى مذيلة بتوقيعات تصل إلى العشرين توقيعا إن لم تخن الذاكرة ، وكل التوقيعات وضعت باللغة القشتالية فى ذلك الوقت ، وكذلك كان توقيع الملك أبى عبد الله الصغير ووزرائه الذين اشتركوا فى المفاوضات وفى صياغة المعاهدة ، ولم أستطع تمييز توقيع أى منهم لغرابة الخطوط وطريقة الكتابة وتقادم الزمن .

ولكن الشىء الواضح فى هذه المعاهدة ، لمن يراها ، هو خاتم الملكين الكاثوليكيين ذو الأهداب الحريرية كما يصفونه .

وقد اختلف المؤرخون والكتاب أثناء ترجمة نصوص هذه المعاهدة ، فمنهم من أوردها فى خمس وأربعين مادة ومنهم من أوردها فى سبع وأربعين ، وقال الأستاذ محمد عبد الله عنان إنها شملت ستة وخمسين بندا ، وقال المقرى إنها سبعة وستون وقال آخر أنها خمسة وخمسون .

ولكن المؤكد أنها لم تتجاوز ماأوردناه من مواد وبنود ، فليس هناك ماهو أكثر من هذا ، اللهم إلا الاتفاق السرى الذى عقد بين أبى عبد الله الصغير والملكين الكاثوليكيين،وهو يتضمن ثمن توقيع هذه المعاهدة من هبات مالية وامتيازات معيشية قد أوردناها فى مكانها قبل ذلك .

والذى يقرأ نصوص هذه المعاهدة بإمعان وتدقيق يجد أن القشتاليين قد خدعوا المسلمين ، فلم ينفذوا مادة واحدة مما كتب ، وقد بدأ خرقهم لهذه المعاهدة منذ أول يوم دخلوا فيه غرناطة ، وذلك عندما أقاموا القداس فى جامع غرناطة الكبير .

ثم توالت الانتهاكات بعد ذلك على يد فرناندو وخلفائه ، حتى صدر المرسوم المشهور بعد ذلك بطرد المسلمين من الأندلس وإلقائهم على شواطىء المغرب ، والذى يتبين نصوص المعاهدة يجد أن المسلمين لم يكونوا مرغمين على التسليم ، ويجد أن كلام موسى بن أبى الغسان فى الاجتماع الشهير الذى عقد بقصر الحمراء للموافقة على بنودها كان صحيحا ، فقد قال إن مواردهم لم تفن بعد ، وإن فى إمكان المسلمين المقاومة ورد النصارى ، أو على الأقل تأخير هذا السقوط قرنا آخر من الزمن .

فالشروط التى كتبت والتى وضعها القشتاليون وعدوها امتيازات للمسلمين ، تبين أنهم كانوا يعملون كل حساب لمسلمى غرناطة ، وأن هذه المعاهدة قد دفعت فيها الرشا الكبيرة لإنفاذها .

ذلك مع وجود ملك ضعيف متهالك غير مسئول ، قد أضعف الدولة فى حروب لامعنى لها مع أبيه ومع عمه ، ثم عاش أسيرا فى البلاط القشتالى ، حيث قام الخبراء بدراسة نفسيته

وطريقته فى التفكير ، والله وحده يعلم ماذا دار بينه وبين الملك والملكة والخبراء القشتاليين من أحاديث واتفاقات .

والذى نطمئن إليه أن الملك كان أحد العوامل الرئيسية فى تسليم غرناطة هو ومن معه من الوزراء الذين قبلوا الرشوة فى دينهم وشرفهم .

ولعل النقطة الوحيدة التى تحسب له – للملك أبى عبد الله الصغير – أنه رفض التنصير جملة وتفصيلا ، وهو أمر مستغرب منه إذا قسناه بما فعل من تضييع دولة الإسلام فى الأندلس على يديه بالتفريط والتقصير والتهاون ، والانهزام من الداخل ، وعدم سماعه لأصوات الذين نادوا بالمقاومة والاستبسال ، بل بالشهادة وعدم الموافقة على التسليم .

ولو كان الملك أبو عبد الله الصغير قد أخذ هذا الموقف الشجاع المتشدد لوجد معه شعبا بطلا شجاعا يؤثر الشهادة على التسليم ، شعبا انتحب نساؤه ورجاله يوم التسليم ، ولم ينقطعوا عن إشعال الثورات العنيفة ضد حكامهم من الإسبان الطغاة المتعصبين . وهذا ماسجلته سطور التاريخ بعد ذلك فيما تلا هذه الواقعة الفظيعة من تواريخ .

سطر القشتاليون المعاهدة ودفعوا الرشا الضخمة لإمضائها ، ولو كانوا يقدرون على إسقاط المدينة بقوة السلاح لفعلوا .

اشترطوا تقديم رهائن من عِلْية القوم لعدم اطمئنانهم لقوتهم الذاتية فى الاقتحام ، بل إن هذا الشرط الذى وضعوه لينطق بالحقيقة التى كانت مستقرة فى نفوس القشتاليين عن مدى قوة غرناطة فى الصمود ، وأنه من الممكن أن يثور الشعب ضد حاكميه ويمنع تسليم المدينة ويقاوم من جديد .

وكان الملك هو العامل الأول والأخير فى السقوط ، ومن بين الحدين شروط أخرى كثيرة حققت هذا السقوط السريع ، ولانستطيع أن نبرئه بأى حال من تبعة هذا الجرم ، هو ومن معه .

أسبوعـــان قبـــل تسليم غرناطـــة الإسلاميـــة

كان الليل يقترب رويدا من النهار ويطرده وراءه ، مقبلا فى هالة من البرد والصقيع بدرجة لم تعرفها البلاد من قبل .

وكان الأسبوع الثانى من ديسمبر فى ذلك العام الذى يشهد موت دولة ، وميلاد أخرى ، فى غمرات متداخلة من الفرح والأسى .

وكانت المدينة الجديدة ، التى أصرت « إيزابيلا » على بنائها تستعد لرأس السنة . وتبعد هذه المدينة تسع كيلو مترات من مدينة غرناطة ، واسمها « سانتا فى » أو الإيمان المقدس .

بنوها وأقاموها وعاشوا بها ، وجمعوا خيلهم ورجلهم ، وأعلنوا نواياهم فهم على مقربة حتى يقضوا على مُلك المسلمين .

وهكذا رفضوا فكرة الحصار بالعسكر والجيش ، بل أقاموا المدن حتى يتمكنوا من حرب المسلمين والقضاء عليهم .

وكان فرناندو الخامس شديد التقوى والورع متمسكا بكل تعاليم الدين ، فيما يظهر لسائر الناس ، ولم يكن يحب الخمر أو يشربها ، ولايقبل أن تشرب على مائدته، وكان حريصا على تأكيد هذه الصفة أمام الجميع ، وله قسه الخاص الذى يعترف له ، ويشاوره فى أموره الخاصة ، وقد يتجاوز فيتحدث معه فى أمور السياسة ، ومايخططونه ويدبرونه للمسلمين . وكان فى حقيقته نذلا انتهازيا وصوليا ، إن جاز التعبير ، فهى تقوى ظاهرية يريد بها أن يكسب الجند لصفه

ويستميلهم إليه ، وهو يرفع صليبا يجمع الناس به خلفه،وينافس به زوجه إيزابيلا،وهو يرى نفسه ملهما من السماء ، ويتحدث أحيانا أن الروح القدس قد حلّت فيه وعبأته بتلك الرغبة العارمة فى اقتحام غرناطة أو الضغط على المسلمين حتى يسلموها له ، فلأمر ما قد تزوج من ايزابيلا - هكذا كان يقول - ولأمر ما توحدت المملكتان « أراجون و قشتالة » بعد طويل خلاف وتناحر وحروب .

وصار للنصرانية جيش واحد قوى ، ودولة واحدة عظيمة الموارد يحكمها الملكان الكاثوليكيان . و لم يعرف فرناندو آنذاك طريقة للتخلص من زوجه إيزابيلا لينفرد بالحكم . وهو فى نظر نفسه مبعوث السماء لأمر قد أرادته ، وظهرت علاماته فى وضوح وجلاء للعيان ، ولكنه فى كثير من الأحيان كان يبصر نفسه على حقيقتها نذلا لايحافظ على العهود والمواثيق ، ولايرعى الذمة وقواعد الأخلاق،ولكنه يخفى هذا كله . وكان يقضى معظم وقته مستمعا إلى رجال الدين أو قارئا فى الكتاب المقدس ، وكان شديد الإعجاب بسفر دانيال النبى ، ويقرأ نصوصه ويحاول أن يفهم ألغازه ومراميه . كان مثله الأعلى لويس التاسع ملك فرنسا الذى رسموه قديسا بعد أن مات ، فهو يدفع نفسه دفعا بين رجال الدين ويرغم ذاته على الانهماك فى صفحات الإنجيل ، ويجلس بين الأحبار، ويدعوهم إليه ، ويريد أن يُعدّوه منهم ، وكان شديد الكراهية والمقت للمسلمين ، ويريد صفحة له تفرد فى كتاب التاريخ ، وكان الأحبار والرهبان الذين يحيطون به يعرفون خلاله غير الطيبة،وكانوا يفضلون إيزابيلا عليه ، ولكنهم كانوا يرون فيه الرجل المناسب لأداء الدور التاريخى فى طرد المسلمين من بلادهم ، وكانوا يعرفون فيه نقض العهود وعدم الالتزام بكلمة أو وعد ، فكانوا منه على حذر وتوجس ، وقال له واحد من هؤلاء الأحبار الكبار مرة : « الملك يجب أن يلتزم بكلمته مهما كلفته » .

وكان زواجه من إيزابيلا ملكة قشتالة ، رغم أنف أخيها ، سببا عظيما لاتحاد الممالك الثلاث .

أراجون إلى قشتالة بحكم زواج فرناندو ملك أراجون .

وليون بعد أن آل العرش إلى إيزابيلا الوريثة الوحيدة .

وتزوج بها بعد أن تعهد أن يحيا حياته فى قشتالة ، وألاّ يغادرها إلا بإذن من إيزابيلا .

ووضعت شروط الزواج سرا ثم عقد فى حفل صغير بمدينة « بلد الوليد » لم يشهده غير عدد قليل من الأصدقاء .

وتطورت الأحداث حتى صارت إسبانيا المتحدة .

وتوجهت همتا فرناندو وإيزابيلا لحرب المسلمين بعد أن خلصت الممالك النصرانية من الحروب الأهلية ، وتوحدت جميعا فى تاج واحد قد قسم نصفين يحمله الملكان الكاثوليكيان .

وهكذا كان يسمونهما فى تلك الأيام ، وظل الاسم كذلك فى صفحات التاريخ عن تلك الفترة الحرجة من تاريخ الدول .

وكانت إيزابيلا أكثر تدينا وورعا من زوجها فرناندو،فهى تقية صالحة قد أحبها الشعب وأعجب بها ، والتف حولها الرهبان والأحبار ، يوحون إليها بمشاريعهم وأفكارهم ، وكلها تتركز حول القضاء على الإسلام ونشر النصرانية فى كل بلاد الدنيا ، بدءا من غرناطة المحتضرة .

وكانت إيزابيلا الأكثر تعصبا وورعا على صلة طيبة بالبابا ، وأمراء فرنسا ودوقاتها،وكذلك إنجلترا ونبلاء الفلاندرز .

وكانت أوربا كلها تتوق للقضاء على المسلمين فى الغرب ليتفرغوا لذلك المارد الهائل الذى قام فى الشرق باسم الإسلام حاملا راية الخلافة العثمانية .

واحتشدت كل القوى للقضاء على ملك المسلمين وحضارتهم .

﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ .

● ● ●

اعترف الملك فرناندو بآثامه للقس الذى ناوله وباركه ثم انصرف خارجا .

دخل الكونت فرناندو دى ثافرا أمين سر الملك ، عند خروج القس ، وعلى وجهه أمارات دهشة لم يستطع إخفاءها قبل أن ينطق بشىء .

لمح الملك تلك العلامات فى وجه دى ثافرا فانقلب إليه مستفسرا متوجسا :

– ماذا هناك ياكونت ؟

– مولاى فرناندو . أنا فى الحقيقة لاأفهم شيئا .

وفى هدوء قال الملك :

– ماذا هناك ؟

فقال دى ثافرا :

– المسلمون يعرضون علينا قضاء عيد الميلاد فى غرناطة .

ودهش الملك :

– ماذا قلت ؟

– يريدون من صاحب الجلالة أن يطفىء شموع العام المنصرم ، ويشعل الشموع الجديدة فى قصر الحمراء .

وانتبه الملك واقفا وقد علته الدهشة هو الآخر :

– لست أفهم يادى ثافرا .

– وأنا مثلك يامولاى .

وبدا كل واحد منهما يحدق فى الآخر يحاول الفهم ، واستطرد دى ثافرا :

– حسب المعاهدة التى وقعت فى الشهر الماضى ، فى الخامس والعشرين من نوفمبر ، فإننا نتسلم المدينة فى مدة ستين يوما وهى تنقضى فى آخر شهر يناير .

- وقد حاولنا الضغط عليهم وجعلها ثلاثين يوما ولكنهم أصروا على الرفض ، كنا نفكر فى قضاء عيد الميلاد فى قصر الحمراء .

- هذا صحيح يامولاى .

واقترب الملك فرناندو من النافذة وأبصر فراغ الليل من زجاجها ، وأسدل الستار بيديه وعاد إلى دى ثافرا :

- أخبرنى ماالذى حدث على وجه التحديد .

- جاءنى الوزير أبو القاسم عبد الملك .

- متى ؟

- هو عندى الآن يامولاى .

- أكمل .

- طلب منى أن أبلغكم هذه الدعوة .

وبدت علامات التفكير على وجه الملك وهو يردد لنفسه :

- أن أقضى رأس السنة فى قصر الحمراء بغرناطة ؟

- نعم يامولاى .

- ونتسلم المدينة ؟

- بطبيعة الحال يامولاى .

وصار الملك يسير فى الغرفة البسيطة الأثاث والفرش وهو يتأمل ويفكر ، وعلى مقربة وقف دى ثافرا صامتا ينظر إلى الملك .

وخيم على المكان الصمت الذى لم يقطعه غير خطوات فرناندو الخامس .

وقطع الصمت فتح الباب ، ودخل خادم الملك الخاص ، فانتبه الملك وأشار له بيده قبل أن ينطق ، فخرج ثانية وأغلق الباب خلفه .

وتحول الملك إلى فرناندو دى ثافرا أمين سره وسأله :

– لم يقدم الوزير تفسيرا لهذا ؟

– يقول إنها هدية عيد الميلاد للملكين الكاثوليكيين .

– وما رأيك أنت ؟

وابتسم دى ثافرا واقترب من الملك مبتسما :

– يحق لنا أن ندهش لهذا التصرف من جانب المسلمين ، ولكن ماذا يمكن أن يحدث من ضرر ؟

– الحذر واجب يادى ثافرا .

– مولاى . أنت ملهم حكيم ، والروح القدس تبارك خطواتك وتؤيدك ، والنصر يسير فى ركابك ، وقد أولتك السماء عنايتها .

– لماذا بكَّر المسلمون بالموعد ؟

– ربما يفكرون بطريقة مختلفة عنا يامولاى .

– كيف ؟

– لقد فقد المسلمون روح الفروسية ، واستناموا للعبث والمجون ، ولم يعودوا كما كانوا ، وهم حريصون على الحياة .

– ومن ثم ؟

– ماداموا سوف يكونون من رعايا مولاى ، فهم يتملقونه بالتأكيد .

– ظننتهم يماطلون فى التسليم .

- لماذا يامولاى ؟

- ينتظرون وهما قادما من بلاد الشرق ينصرهم ، ينتظرون الأساطيل العثمانية ، وقد علمنا أنهم قد أرسلوا السفارات لهم .

- مولاى يعلم أن العثمانيين فى شغل عنهم ، وهم بعيدون ، ولو كانت أساطيلهم قد تحركت تريدنا ، لأخبرتنا العيون والأرصاد التى لنا فى القسطنطينية .

مولاى على علم بكل شىء ، وهو يدرى أننا آمنون من هذه الناحية .

- من يحكم العثمانيين يادى ثافرا ؟

- مولاى يعلم أنه بايزيد الثانى ، ويعلم مولاى أنه ميال للراحة محب للعلوم والأدب والقراءة ، ولولا حروبه مع منازعيه من إخوته لما رفع سيفا .

وابتسم الملك فرناندو الخامس وسأل دى ثافرا :

- ومن البابا ياعزيزى دى ثافرا ؟

وابتسم دى ثافرا :

- مولاى يعلم أنه ألكسندر بورجيا الإسبانى الأصل .

- ذلك الشرير الفاسد التى وضعته الظروف على رأس الكنيسة .

- ولكنه يساعدنا ، والسلطان العثمانى فى حاجة إليه ، فهو يحميه من طالبى العرش من الأمراء العثمانيين ، ويستضيف بعضهم عنده . وعرض على بايزيد أن يخلصه من أخيه لقاء ثلاثمائة ألف دوقية .

- وهناك شارل الثامن ملك فرنسا يغير على بلاد إيطاليا ليحقق فكرة خيالية وهى الاستيلاء على القسطنطينية .

- السلطان بايزيد الثانى منشغل بحروبه التى فرضت عليه ، مع إخوته من ناحية،ومع الفرنسيين

من ناحية أخرى ، ومع المصريين المماليك من جهة ثالثة .

– هذا صحيح يادى ثافرا ، ولكننى سمعت أن أمير تونس يحاول الصلح بين المصريين والعثمانيين .

– فلندعه يحاول كما يشاء يامولاى ، لو نجح فسوف يكون هذا بعد أن تسقط غرناطة فى أيدينا ، ثم ندخل بعدها فى اللعبة الكبرى بعد التخلص من هذه العقبة الكئود ، غرناطة .

– نحن فى الطريق يادى ثافرا ، أيام وينتهى كل شىء ، مارأيك فى العرض الذى قدمه المسلمون ؟

– لو أذن لى مولاى فإنى أقول إنها فرصة قد أرسلتها السماء ، ليكون رأس هذه السنة أعظم عيد فى تاريخ إسبانيا كلها ، ومن ثم يزيد احتفال الناس به كل عام . نحن نأخذ الملك والأرض من المسلمين فى مناسبة طيبة ، وفى يوم عظيم أيضا .

– أخشى أن تكون هناك خدعة .

– مولاى حريص على شعبه وجيشه ولكنى لاأظن أن هناك خدعة على الإطلاق ، لقد انتهى المسلمون فى غرناطة يامولاى ، وسوف يأتى اليوم الذى نطاردهم عبر البحر فى كل بلاد الدنيا ، ستكون الكثلكة هى الدين الغالب فى كل بلاد المعمورة !، وسوف ننشر الصلبان فى كل مكان ، وسوف يرنم الناس للرب ترنيمة جديدة ، تمجد المسيح ، وتبارك السيدة العذراء .

وراح الملك يقطع الغرفة مرة أخرى مفكرا ثم وقف وقال :

– علينا أن نتريث طويلا قبل القرار يادى ثافرا .

– لا بأس من التريث ، الرجل عندى ينتظر القرار .

– لاينبغى أن نعرض سلامة النصارى للخطر .

– نحن نعيش فى خطر حتى نقضى على مملكة غرناطة .

- ترى ماذا وراء هذه الدعوة ؟
وزّم دى ثافرا فاه مفكرا ، وزوى مابين حاجبيه وقال :
- تأتينى أخبار غرناطة كل يوم يامولاى ، بل ساعة بساعة ، قد شحت الأقوات ، وجاع الناس ، والجميع فى قلق وترقب ولايعرفون ماتأتى به الأيام فى مجراها القريب والبعيد . ولكن ..
وتوقف دى ثافرا قليلا ، وبدا الاهتمام على وجه الملك .

وأكمل دى ثافرا حديثه :
- هناك من لايسلمون بالتسليم .
- هذا أمر طبيعى ، قد انتزعنا المعاهدة من الملك والكبراء رغم إرادة الشعب المسلم فى غرناطة .

- وهناك من يكفرون الملك أبا عبد الله الصغير .
- قد سمعت شيئا من هذا .

- ولكنى أستطيع تدبير كل هذا يامولاى . دع هذا لى ولاينشغل جلالتكم بالتفصيلات .

- كيف ياكونت ؟
- أستطيع أن أكون مسئولا عن تسليم المدينة ، ونحضر عيد الميلاد بلا حوادث لها قيمة أو أهمية .

- هل تضمن هذا ياكونت ؟
وفكر الكونت دى ثافرا قليلا ثم قال :
- نعم يامولاى . أمامنا طريق طويلة تبدأ بالتسليم ، ليست هناك خدعة ، الكل يحاول إرضاء سادته الجدد .

ووقف الملك بجوار النافذة مرة أخرى وأزاح الستار بيده وألقى نظرة على المجهول الكامن وراء الليل ، ثم عاد إلى الكونت دى ثافرا :

– أخبرنى ماخططك ؟

وهنا فتح الباب ودخلت الملكة إيزابيلا وخلفها وصيفاتها ، واقترب منها الملك ولثم يدها كالعادة القشتالية آنذاك .

وتقدم دى ثافرا وركع أمامها ، ولثم يدها هو الآخر ، ثم نهض . وأشارت الملكة إلى وصيفاتها اللائى كن يتبعنها فغادرن القاعة ، وانحنى دى ثافرا كعلامة استئذان للخروج ، ومإن قارب الباب حتى ارتفع صوت إيزابيلا الوقور :

– انتظر ياكونت دى ثافرا .

ولبى الكونت النداء وعاد أدراجه ووقف متأدبا أمامها .

وكان فرناندو الخامس يوقرها ، ويحسب لها كل حساب .

وقالت إيزابيلا :

– يجب أن نقبل ماعرضه علينا الوزير عبد الملك ، لقد بحثت الأمر ولاأرى أن هناك مايخيف .

وتشاغل الملك متضايقا من تدخل الملكة بهذه الكيفية ولكنه قال :

– هذا عرض لايمكننا رفضه ، ولكن علينا بحثه .

– أنت تخشى الغدر منهم يافرناندو .

– دونا إيزابيلا ، يجب أن نحسب حسابا للعواقب .

– قد حسبت حسابا للعواقب .

– كيف ؟

– سوف نطلب خمسمائة رهينة من أبناء أكابر الناس يكونون فى معسكرنا حتى يتم تسليم المدينة .

– فكرة طيبة . ومنصوص عليها فى المعاهدة .

– وسوف يكون ضمن هذه الرهائن ولد الملك أبى عبد الله الصغير .

وتبادل الملك ودى ثافرا النظر لذكاء الملكة وحدة ذهنها .

وقال الملك :

– هذا تخطيط طيب .

وقالت إيزابيلا :

– هذا يضمن عدم حدوث مايعكر صفو تسلم المدينة .

وتنحنح الكونت دى ثافرا وقال :

– وهناك ترتيبات أخرى سوف أصنعها للتخلص من أهل الشغب ومن المناوئين ، ثقى بتدبيرى يامولاتى .

وابتسمت الملكة ومدت يدها للكونت دى ثافرا الذى أسرع راكعا حتى يقبلها ، وكان يفعل هذا للدلالة على التقدير والامتنان .

وقالت إيزابيلا :

– أنا واثقة من حسن تدبيرك يادى ثافرا .

ووقف فرناندو ، الذى فقد زمام المبادرة ، فقالت له إيزابيلا :

– هل للملك رأى آخر ؟

وقال فرناندو يائسا :

– كلا يادونا إيزابيلا ، ولكن علينا تدبير كل شىء بعناية .

– سوف نفعل ذلك بالتأكيد .

والتفتت إلى دى ثافرا وقالت :

– ادع إلينا الوزير عبد الملك أبا القاسم .

وأسرع الكونت دى ثافرا ملبيا :

– أمرك يامولاتى .

● ● ●

كان أبو القاسم عبد الملك يجلس فى حضرة الملك فرناندو والملكة إيزابيلا متأدبا قلقا ، وكان على مقربة يقف الكونت دى ثافرا يقرأ فى وثيقة بيده ، ثم طواها بعد أن قرأها ، وعاد يتابع الحديث .

وكان أبو القاسم عبد الملك هو الذى يتحدث :

– كل شيء على مايحب ويهوى مولاى الملك فرناندو ومولاتى الدونا إيزابيلا .

وقال الملك :

– ولكن لماذا التبكير ؟

وقال أبو القاسم باسما :

– ولماذا التأخير يامولاى ؟

وقالت الملكة إيزابيلا :

– موعد قد ضبطناه وحددناه وأنتم تقدمونه ، طلبنا منكم التقديم من قبل فرفضتم وأصررتم على ذلك ، هل تذكر ياأبا القاسم ؟

وقال أبو القاسم متلعثما :

– مولاتى الملكة نحن لانتصرف عن اختيار ، بل عن جبر واضطرار . فعندما أصررنا على المدة الممنوحة ، وهى ستون يوما ، كان القصد من ذلك هو منع الحوادث المؤسفة ، وحماية لأرواح إخواننا من النصارى .

وحدق الملك فرناندو فى وجه أبى القاسم :

– ومالذى تغير ياعبد الملك ؟

– كما قلت من قبل لمولاى ومولاتى ، هى هدية شعب غرناطة والملك أبى عبد الله لصاحبى الجلالة ، وإثباتا لحسن النوايا ، الأمر الذى يشجع على الالتزام بشروط المعاهدة ، هذه واحدة .

– والأخرى ؟

وتردد أبو القاسم قليلا ثم قال :

– قد ساءت أحوال المدينة ، وضج الناس وأصبحنا غير قادرين على حفظ النظام وضبط الأمن ، وربما هناك من يقول بين الناس إننا قد سلمنا لكم ، ونحن بهذا قد خرجنا عن تعاليم الدين بزعمهم ، وأخشى أن يزداد هذا الكلام بين الناس ، وقد يحدث مالا تحمد عقباه إن طالت المدة . وفى النهاية أنا خادمكم المخلص كما تعلمون ، وواثق أن مولاى ومولاتى يعلمان أننى أقف فى صفهما فى مواجهة قومى وعشيرتى ، ولاأنصحكما إلا بالخير دائما .

وقال فرناندو الملك :

– هل يريد أبو عبد الله الصغير شيئا مقابل هذا ؟

وقال أبو القاسم بابتسامة خبيثة :

– هبتك وعطيتك لايستطيع الملك أبو عبد الله أن يرفضها ، وكذلك أنا ، وهذا أمر متروك لتقدير مولاى ومولاتى ، والهبة لاتشترط يامولاى . ولكن إن رأى صاحب الجلالة أن يرسل إلى المدينة فى الصباح شيئا من الدقيق والسمن والأرز والزيت فسوف يكون وقع هذا عظيما على الناس .

وقال فرناندو الملك متململا :

– سيتم هذا بعد السقوط ياعبد الملك .

ونظر أبو القاسم ناحية الملكة إيزابيلا مستنجدا :

– مولاتى كريمة وعطوفة ويعلم برها الناس جميعا ، ويغطى خيرها كل البلاد فى أراجون وقشتالة وليون ، وغرناطة قد صارت من أملاككما وسوف تتسلمونها فى أيام .

وتبادلت إيزابيلا النظر مع فرناندو ثم قالت :

– حسن ياعبد الملك . سوف نرسل لكم فى الصباح بعضا مما طلبت .

وقال الملك مسرعا :

– والباق بعد سقوط غرناطة وتسلمها .

وفرك أبو القاسم يديه متحرجا خجلا وهو ينظر يمنة ويسرة ، يريد أن يقول شيئا ولكنه لايستطيع ، أو هو يتظاهر بالحياء .

وشجعه الملك قائلا :

– هل هناك ماتود قوله ؟

– هل أفهم من هذا أن مولاى ومولاتى قد قبلا الدعوة لقضاء عيد السنة فى قصر الحمراء بغرناطة ؟

– ستلهمنا الروح القدس بالخير ياأبا القاسم ، وأخبر أبا عبد الله الصغير أن سفارتك قد نجحت .

وقام الملك واقفا ، فوقف أبو القاسم وهو يردد :

– شكرا لك يامولاى ، شكرا لك يامولاتى .

وتقدم الكونت دى ثافرا من الوزير أبى القاسم :

– تفضل معى ياسيدى الوزير .

وانحنى أبو القاسم وقبل يد الملكة إيزابيلا ، ثم فعل نفس الشىء مع الملك فرناندو ، وتراجع قليلا وبدا عليه التردد ثم قال :

- والهبة يامولاى ، العطية التى وعدت بها ؟

وابتسم فرناندو ، وبدت على إيزابيلا علامات التأفف وقالت :

- سيرى الكونت دى ثافرا مايمكن عمله .

وأردف الملك فرناندو :

- اطمئن ياأبا القاسم ، نحن نكافىء أعواننا بسخاء .

وقال أبو القاسم وهو يخرج :

- أعلم يامولاى ، أعلم .

وخرج الكونت دى ثافرا وهو يقود الوزير أبا القاسم معه .

● ● ●

كان الليل قد انتصف والنقاش والحوار يدور بين الملك فرناندو والملكة إيزابيلا حول قضاء عيد رأس السنة ، أفى « غرناطة » أم فى « سانتا فى » حيث يقيمون ؟

وكان من رأى الملكة أن يقضوا هذه الليلة فى غرناطة بقصر الحمراء ، والملك يعارض فى هذا ويرى أن ذلك سوف يفسد بهجة العيد على الجند ، من حيث الحراسة والانتباه لما قد يحدث فى هذه الليلة .

ولم يكن واحد منهما مقتنعا تماما بما يقول ، ولكن كل منهما يحاور ويداور حتى يصلا إلى رأى صائب متفق عليه .

كانت الدنيا تتغير والأحداث تدور والعالم يأخذ شكلا جديدا مؤسيا فى تلك الناحية من البلاد .

وكان الملك والملكة أحد قطبى التغير آنذاك .

واقترحت إيزابيلا على الملك أن يشترك معهم فى التفكير والمشاورة الكاردينال بيدرو دى مندوسا مطران إسبانيا الأكبر ، واستدعى على عجل .

وجاء الحبر الكبير قلقا متوجسا عندما أيقظوه من نومه ، وقصوا عليه القصة وسألوه الرأى فيما جدَّ بهم من أحداث .

وكان بيدرو دى مندوسا حبراً متعصبا شديد الحقد والكراهية للمسلمين ، وكان يرى نفسه أحق بكرسى البابوية فى روما من ألكسندر بورجيا الفاسق العربيد فى رأيه .

وكانت تحكمه عقد كثيرة ، وله نفس شديدة التشابك والتركيب ، ولكن هذا كله لم يمنعه من سداد الرأى والنظر بعمق إلى كل مايعرض له من مشاكل ، فهو صاحب نظر صائب ورأى سديد ، على كل مافيه من عيوب . واستمع الكاردينال بيدرودى مندوسا طويلا إلى رأى الملكة ورأى الملك ، وبدت عليه علامات التفكير الشديد .

وسكت الملك وسكتت الملكة .

وفتح الباب ودخل الكونت فرناندو دى ثافرا ، ورفع الكاردينال رأسه قليلا ليبصر الداخل ، ثم عاد إلى ماهو فيه من تفكير . ولكنه لم ينس أن يمد يده إلى الكونت الذى ركع أمامه ليلثمها .

وأشار الملك إلى دى ثافرا فاقترب منه ، فسأله الملك بصوت خفيض :

– أين ذهب صاحبك الوزير ؟

– قد أخلد إلى النوم يامولاى ، وفى الصباح سوف يعود إلى غرناطة ، نحن لم نعطه إجابة شافية بعد .

ورفع الكاردينال بيدرودى مندوسا رأسه ليتكلم ، فانصبت العيون إلى شفتيه فى انتظار مايقول ، وتنحنح الكاردينال قليلا ثم قال :

– الرأى عندى أن نقضى العيد هنا فى « سانتا فى » فالعيد لابد أن يقضيه الناس فى أمن وأمان .

- هذه ظروف خاصة ياصاحب القداسه .

- أعلم أنها ظروف خاصة ياصاحب الجلالة ، وكل مااستطيعه أن أبدى رأيى ، وأنت وصاحبة الجلالة صاحبا القرار ، والروح القدس تحل فيكما ، وهى تلهمكما الصواب دائما .

- هل يقصد صاحب القداسة أن نلتزم بنص المعاهدة ، ونتسلم المدينة فى الموعد المحدد لذلك من قبل ؟

- لا أقصد هذا ياصاحبة الجلالة ، ولكنى أقصد أن نقضى العيد هنا فى « سانتا فى » ثم نتسلم المدينة فى الأول أو الثانى من يناير .

وقال الملك فرناندو .

- رأيى أن يكون فى الثانى من يناير ، نحقق الأمن لأنفسنا وللجند ، ونقضى عيدا طيبا ، ثم نقبل على غرناطة بصدور مشروحة ونفوس متوثبة ، ونكون قد اختزلنا من التاريخ شهرا أو أقل ، مارأى الدونا إيزابيلا فى هذا ؟

وفكرت إيزابيلا قليلا ثم نظرت إلى الكاردينال الذى هَزَّ رأسه موافقا ، فابتسمت وقالت :
- ماتراه يافرناندو يكون ، ماذا فعلت بهديتى للعام الجديد .

وضحك فرناندو وقال :
- هذه قصة أخرى ، وسوف تعلمينها عندما يأتى العام الجديد ، وهاأنت ذى ترين ، أنا أقدم لك غرناطة هدية .

وضحكت إيزابيلا :
- هذه هدية المسيح لى ولك ولشعبه يافرناندو .

والتفت فرناندو باهتمام إلى الكونت دى ثافرا :

– ادع لى الوزير أبا القاسم
– أمرك يامولاى .

وانصرف الكونت دى ثافرا ليحضر عبد الملك .

والتفت الملك إلى الكاردينال وقال :
– هل يريد صاحب القداسة أن يشرب شيئا ساخنا ؟
– لاضرورة لهذا ياصاحب الجلالة ، أريد أن أذهب إلى النوم .

– وماذا لو بقيت معنا ورأيت الوزير عبد الملك ونحن نعطيه قرارنا .

وبدت علامات التردد والتقزز على وجه الكاردينال دى مندوسا وقال :
– لاأحب هؤلاء المسلمين ولاأرتاح لمرآهم .

– هذا الرجل يساعدنا كثيرا،ولعله مسيحى دون أن نعرف .
– لابد من « المعمودية » على أى حال لابأس من البقاء ، فقد استيقظت وانتهى الأمر .

وأسرع الملك إلى منضدة عليها جرس فضى فهزه بيده فانفتح الباب،ودخل أحد الخدم فأمره الملك بإحضار شراب ساخن لهم .
وأسرع الخادم يلبى أمر صاحب الجلالة .

واعتدل الكاردينال بيدرودى مندوسا فى جلسته ثم وضع ساقا فوق ساق بكبرياء وأنفة ، وقال يحادث فرناندو :
– هناك شاب يلح علىَّ أن أقدمه لك ياصاحب الجلالة ، وأرجئه وأؤجل هذا لعلمى بانشغالكم ، ولكنى لاأرى بأسا من لقائه للحظات .

– شاب يريدك أن تقدمه لى ؟ ماذا عنه ؟

– هو مسيحى مخلص ، برتغالى النشأة ، ولد فى لشبونة ، قد ملىء رأسه بأساطير العرب والمسلمين ، ولكنه مسيحى مخلص ، أنا على يقين من هذا ، اسمه كريستوفر كولمبس .

وقالت إيزابيلا :

– كريستوفر كولمبس ! اسم طريف له رنين .

واستطرد الكاردينال بيدرودى مندوسا :

– نشأ فى لشبونة وقرأ أوراق الفتية المغررين .

وانتبه الملك إلى هذه الجملة :

– هل قلت الفتية المغررين ؟

– نعم ياصاحب الجلالة .

وقالت إيزابيلا باهتمام :

– وماهى قصتهم ؟

– هم من المسلمين حيث السحر والعلوم والأساطير .

ثم أضاف بلهجة متوعدة :

– سوف نقضى على كل هذا فيما بعد ، ولكن لابأس من الاستفادة منهم بكل مايصل إلى أيدينا من وسائل . هؤلاء يرون أن الأرض كالكرة ، وأنها تدور حول نفسها ، وذلك مايفسر الليل والنهار ، كلام فارغ يردده المسلمون يتنافى مع الإيمان الحق بالمسيح .

وقال الملك فرناندو :

– ولماذا ؟

– لماذا ماذا ؟

– لماذا يتنافى هذا مع الإيمان بالمسيح ؟

– هذه قصة أخرى طويلة ولاأريد أن يتشعب الحديث .. إن أراد صاحب الجلالة فرناندو الخامس .

– كما تشاء ياصاحب القداسة .

– خرج هؤلاء بسفن فى البحر ، وانقطعت أخبارهم ، وضاعوا فى الظلمات ، كانوا يريدون الوصول إلى الهند بالسير غربا ، على عكس الواقع والمعلوم ، فلقوا جزاءهم المحتوم .

وقالت إيزابيلا :

– ومادخل هؤلاء بذلك الشاب الذى ذكرت ياصاحب القداسة ؟ مااسمه ؟

– اسمه كريستوفر كولمبس .

– قد تذكرت ، معذرة .

واستمر الكاردينال فى حديثه بعد أن جاء الخادم بالأقداح الساخنة ، فقال وهو يحتسى منها :

– كان كريستوفر جاراً لهم فى « لشبونة » ، فورث كتبهم واطلع عليها ، وقرأ أوراقهم ، وقدر أن هناك خطأ قد وقعوا فيه بحساباتهم .

وسأل فرناندو :

– وهل يرى كريستوفر هذا أن الأرض كالكرة ؟

وفوجىء الكاردينال بالسؤال ، وبدت على وجهه علامات القلق وتمتم :

– لاأظن ، هو مسيحى مخلص شديد الإيمان ، ولكنه يرى أن السير إلى الغرب يؤدى إلى الهند ، لست أدرى ياصاحب الجلالة ، أنا لا أتقن هذه الأمور ، ولاأحبذ الحديث فيها . ولكن .. ماذا كنت أريد قوله ؟

فقال فرناندو :

– وماسر اهتمام صاحب القداسة بقصة كريستوفر هذا ؟ ولماذا يريد أن يلقانى ؟ ومادخلى بكروية الأرض أو تسطيحها ؟

وابتسم الكاردينال ووضع قدح الشراب على المنضدة أمامه وقال :

– هذا الشاب – كريستوفر كولمبس – قريب لى من ناحية أمى ، وهو مسيحى مخلص أؤكد

لك ، يريد أن يُموِّل صاحب الجلالة رحلة له بالسفن يتجه بها إلى الغرب ، ليصل إلى الهند بحسابات لاأفهمها .

وبدت علامات التفكير على الملك فرناندو وقال :

– هذه رحلة تتكلف أموالا كثيرة .

وقالت إيزابيلا .

– هذا صحيح .

وعاد فرناندو يقول :

– ماالفائدة التى تعود من هذه الرحلة علىّ وعليك ؟ ، على الدولة والكنيسة ؟

واعتدل الكاردينال فى جلسته وقال :

– فلندع قصة الهند والوصول إليها من الغرب ، هذا كلام ردده المسلمون كثيرا وهو حديث خرافة ، ولندع الشاب ومايفكر فيه ، أما نحن فحساباتنا تختلف ، ونظرتنا أعمق إلى الأمور .

– كيف ؟

– عندما يتجه هذا الشاب، برحلة فى البحر إلى الغرب فسوف يجد أرضا جديدة يعيش بها بشر . هذه الأرض كسائر أى أرض بها ذهب وفضة ومعادن كثيرة ، ويمتد التاج الإسبانى ليحكم هذه الأرض الجديدة .

– ومافائدة ذلك لصاحب القداسة ؟

وضحك الكاردينال دى مندوسا :

– نحن نسير معا ياصاحب الجلالة ، الدولة تأخذ الذهب ، والكنيسة تعمد البشر الجدد بعمودية التوبة والغفران والإيمان ، ويتحقق قول المسيح « لى خراف أخر ليست من هذه الحظيرة ولابد أن آتى بهذه لتلتقى بتلك »

وقام فرناندو يسير مفكرا وقالت إيزابيلا :

- مشروع جرىء وخطير .

وكان الكاردينال يرقب الملك وهو يسير مفكرا ، فقال له :

- لم تخبرنى برأيك ياصاحب الجلالة .

وتوقف الملك وقال للكاردينال .

- لاأستطيع أن أرد لك طلبا ياصاحب القداسة ، سوف ألقى هذا الشاب كريستوفر كولمبس لأجل خاطرك ، دعه يحضر احتفال تسليم غرناطة ، وسوف أقابله أثناء الاحتفال بقصر الحمراء .

وتمتم الكاردينال مبتسما فى رضى :

- شكرا لك ياصاحب الجلالة .

وقامت الملكة إيزابيلا واقفة وهى تردد :

- هذه ليلة طويلة .

وقال الكاردينال معقبا :

- نحن فى خدمة المسيح دائما ياصاحبة الجلالة ، قد غمرنا بفضله وشرفنا بخدمته فى الليل أو النهار ، ولكن ذلك الوزير قد تأخر .

ودخل فى هذه اللحظة الكونت فرناندو دى ثافرا .

والتفت إليه الملك فرناندو :

- هل جئت بالوزير ؟

وأجاب دى ثافرا :

- قد حضر يامولاى .

وقال الملك :

- دعه يدخل واستدع أحدا ليزيد النار اشتعالا .. فالبرد شديد .

وأسرع دى ثافرا لتنفيذ أمر الملك ..

● ● ●

كان الوزير أبو القاسم عبد الملك يجلس قلقا فى حضرة الملكين وصاحب القداسة الكاردينال بيدرو دى مندوسا مطران إسبانيا الأكبر ، فقد كان الكاردينال يكلمه بأنفة وبشيء ملحوظ من الازدراء ، وكان عبد الملك يتجاهل لهجته وطريقته ، بل يبالغ فى التودد إليه واحترامه .

وأبلغه الملك فرناندو قراره بتسلم غرناطة فى اليوم الثانى من يناير . وأكد عليه ضرورة الاحتياطات الأمنية الواجب اتخاذها لكى يمر اليوم بسلام ، وطلب منه خمسمائة من الرهائن ، من الأكابر والتجار ومن الأعيان ، يكونون فى معسكر الملك حتى ينتهى التسليم ومراسمه ، كما نصت على هذا المعاهدة . وأن يتم تسليم الرهائن فى موعد أقصاه العشرون من ديسمبر ، أى بعد أيام .

وكان عبد الملك يطأطيء رأسه موافقا فى كل مايقوله الملك أو الملكة أو صاحب القداسة ، أو حتى الكونت فرناندو دى ثافرا .

ثم قالت الملكة إيزابيلا :

– وعليك أن تبلغ الملك الصغير تحياتى وشكرى ، وقل له إننى أقبل استضافة ولده عندى حتى يتم التسليم .

وازدرد الوزير ريقه وقد جف حلقه من القلق وقال :

– ولكن المعاهدة لم تنص على شيء من هذا يامولاتى .

وقالت إيزابيلا مبتسمة :

– لقد قلت لك ياعبد الملك ، ولد أبى عبد الله سيكون فى ضيافتى ليس رهينة كما تظن ، ولكنه يأتى مع الخمسمائة التى نصت عليها المعاهدة بطبيعة الحال .

وقال عبد الملك :

– أمرك يامولاتى .

ونظر فرناندو إلى إيزابيلا بإعجاب ، وأكملت هى حديثها :

- أنت تعلم ياأبا القاسم أن أبا عبد الله الصغير نفسه كان فى ضيافتنا أيام الخلاف مع عمه « الزغل » ولم يلق عندنا سوى الخير .

وتمتم عبد الملك ذليلا :

- أعلم يامولاتى أعلم .

● ● ●

وفى صبيحة يوم العشرين من ديسمبر عام ١٤٩١ م كان هناك ركب يتألف من الخمسمائة الذين وقع الاختيار عليهم من جانب الإسبان النصارى ، فهم لم يتركوا للمسلمين حرية اختيارهم للرهائن ، بل أعدوا قوائم بالأسماء التي يريدونها .

وكان كل واحد من هؤلاء الأعيان والكبار والتجار على بغلته ، يقودها واحد من عبيده،ومن خلفه بعض الدواب،على ظهورها ملابسه ومايحتاج إليه فى ذلك الأسر الذى يرجو ألا يطول .

وكان الملك،أبو عبد الله الصغير ينظر من شرفات قصر الحمراء ، وقلبه على ولده الصبى والعبيد يدثرونه بالملابس الصوفية ، فالبرد شديد ، والغلام مريض ، ولكن هذه هى مشيئة الملكين الكاثوليكيين .

وكانت زوجه مريم تشهد الركب فى ألم بالغ وازدراء صامت ، وحاول أبو عبد الله الصغير أن يتندر ليخفف من حدة مايرى ، فقابلت تصرفه بالتجاهل والصمت البالغ .

ولاحظ أبو عبد الله الصغير تجاهلها وصمتها واحتقارها فقال :

- سيكرمون وفادتهم ، القشتاليون قوم كرماء ، لقد كنت بنفسى فى ضيافتهم ، لم يصبنى منهم أذى .

ونظرت إليه باحتقار وتمتمت :
- قد رسموك وفى عنقك قيد .
وقال أبو عبد الله الصغير مدافعا :
- كان قيدا من فضة .
وردت عليه بمزيد من الازدراء :
- القيد قيد .. من فضة كان أم من ذهب .
وانفجر فيها غاضبا :
- ماذا كنت تريدين منى أن أفعل ؟
- أنا التى أشير عليك ؟
- لو كان عندك حل لقلته لى . كانت الأمور معروضة أمام الجميع ، الصغير قبل الكبير ، الرجال والنساء ، لم يكن هناك سر ، ولم يكن هناك حل غير التسليم للنصارى ، أنت تعلمين كل شىء .

ونظرت مريم شاردة إلى الفضاء البعيد ، وإلى الثلوج وقد غطت قمم الجبال ، فهى تخطف البصر إذا سرقت منها الشمس لمحة فى غفلة عن السحب التى تضغط بثقلها على المدينة .

وعاد أبو عبد الله الصغير يقول :
- لم تردى علىَّ ، ليس عندكم غير التحقير والتهوين ، أما الحل فلم أسمع حلا واحداً من كل أولئك الذين اعترضوا على المعاهدة .
- قد قالوا لك .
- ماذا قالوا ؟
- ماسمعته منهم من قبل .
- أريد أن أسمعه مرة ثانية .
وأدارت إليه نصف وجهها وقالت :

– هناك أمور إن أحاطت بإنسان فعليه أن يختار الموت ، ويعلم أن هذا هو قدر الله ، ولايرد إنسان قدرا أبدا ..

– قد نهى الله عن قتل النفس .

– وقد نهى أيضا عن تسليم البلاد للكفار وأمر بالشهادة والموت فى سبيله والجهاد .

– هؤلاء ليسوا بكفار ، هم أهل كتاب .

– لم تعد هناك فائدة من حديث .

– مادمت تعلمين هذا فلماذا لاتلزمين الصمت ؟

– أنا أرد عليك ، أنت الذى أردت الحديث .

– أنا أريد غلقه الآن ، هل فهمت ؟

ولم ترد عليه ،وعادت تنظر إلى موكب الرهائن والأسرى وتبحث بعينيها عن ولدها بين الصفوف ، ورأت الوزير يوسف بن كماشة وهو يقوده من ذراعه ويعاونه أحد العبيد فى رفعه إلى البغلة التى يركبها ، وانحدرت دموعها على وجنتيها ، وشعرت بالذل والعار يغشاها فغادرت المكان ، وتركت أبا عبد الله الصغير وحده يحاول شغل نفسه بمراقبة الموكب الخارج من قصر الحمراء ووجهته معسكر الملك فرناندو الخامس « بسانتافى » على مقربة من غرناطة .

وكان أبو عبد الله الصغير يحاول أن يهون الأمر على نفسه فينجح أحيانا ويفشل فى كثير من الأحيان ، ويشعر فى أعماقه بألم مكبوت يشعل النار فى صدره من الذل والغيظ ، وكان أحيانا يقول لنفسه :

– ماذا لو متنا موتة كريمة ونحن نقاتل فى سبيل الله ؟

ثم يعود فيملأه الضعف والتهاون والتخاذل فيقول لنفسه مرة أخرى :

– لا ، ليس ثمة مجال لهذا ، النصارى أقوياء ، وقد تخلى عنا كل المسلمين فى أرجاء المعمورة ، وشعب غرناطة يريد التسليم . لو كانوا يريدون الحرب والشهادة لمنعونى من توقيع هذه المعاهدة .

أنا هنا أنفذ إرادة الناس ، أنا أعكس مشيئتهم ، ماذا يمنعهم من قتلى لو أرادوا ؟ كنت أقيم بينهم فى حى « البيازين » عندما كنت أجاهد النصارى ، لم أنتقل إلى قصر الحمراء إلا فى تلك الأسابيع التى سبقت توقيع المعاهدة . لو كانوا يريدون غير هذا لفعلوا وكانوا يستطيعون !!

– سوف تشهد ياأبا عبد الله الصغير أياما وليالى من الذل والعار صعبة المعايشة مرة المذاق ، وسوف تتمنى عندها الموت فلا تجده ، وسوف يكون ساعتها صعب المنال .

ويتلفت أبو عبد الله الصغير حوله ليبصر من يحدثه فلا يجد أحداً ، فيعود ليحدق فى الركب الذى بدأ يبتعد ، والناس ترقبه من الشرفات مثله ، ويبحث عن ولده بين الصفوف فلا يجده .

قد أصبح الركب نقطة بعيدة وسرعان ماتفلته العين .

● ● ●

كان الركب يخرج من أسوار غرناطة فى طريقه إلى « الرهن » فى « سانتا فى » ، وكان يقوده الوزير ابن كماشة ، وكان يركب إلى جوار ولد أبى عبد الله الصغير الذى يرتعد رغم كثرة الأغطية التى فوقه ، وعن اليمين والشمال من يسنده بذراعه ، والغلام يختلس النظرة الخائفة إلى الوزير ابن كماشة الذى يطمئنه ويشجعه ، ويقول له الغلام :

– هل تتركنا وتعود ؟

– لابد من ذلك لأكون بجوار مولانا يوم التسليم .

– ألا يؤذوننا ؟

– أبدا أبدا سوف يكرمون وفادتك،وسوف ترى بنفسك .

– ولكن ، أليس هذا احتقاراً للملك أن يأخذوا ولده رهينة .

– ليست المسألة على هذا النحو ، أنت ضيف الملكين الكاثوليكيين

– لا أيها الوزير ، الكل يعلم أننى رهينة حتى يتم التسليم .

وينظر الوزير ابن كماشة إلى بعيد ولايرد .

ويعاود الغلام حديثه ثانية :

– ألا تطلب من الملكين أن أعود معك .

– هذا صعب جدا ياولدى .

– أنا خائف جدا .

وتمتلىء نفس ابن كماشة بالحزن ، وهو يرنو ببصره ناحية الغلام :

– لماذا تخاف ياولدى ؟

– لست أدرى ياعماه .

– لاتخف يابنى ، هناك عند الدونا إيزابيلا سوف تجد الطبيب ويقدمون لك العلاج ، وسوف تبرأ من علتك ، وتعود إلى أهلك معافى إن شاء الله ، هى أيام صعبة علينا أن نتحملها ياولدى .

وعندما بعدوا عن غرناطة وأخذوا الطريق إلى « سانتا فى » كانت العيون القشتالية ترصد المكان خلف الحجارة والأشجار .

وأخذ الأعيان والكبراء والتجار أماكنهم بجوار بعضهم البعض على البغال ، وكانوا يرتدون أغلى وأثمن ماعندهم من ملابس ليزدادوا فى نظر الملك عندما يلقاهم .

هكذا كانوا يظنون !!

أن الملك سوف يلقاهم ويرحب بهم ويدعوهم إلى طعامه !! وكأن القوائم قد حوت أكثر أهل غرناطة غباء وأعمقهم جهلا وغفلة . وكان العبيد والخدم يسيرون فى المؤخرة ، وكل يحرس أشياء سيده، وبدأ الموكب فى وجوم وصمت . ثم بدأ الحديث متناثرا من هنا وهناك فى مقدمة الصفوف وآخرها .

وسرعان مانسى الجميع ماهم فيه من هم وغم وذل وصاروا يتبادلون النكات والضحكات .

ومن خلف الحجارة والأشجار حيث كانت العيون والأرصاد ترقب هذا الموكب فى دهشة وعجب ، كيف يتندرون على ماهم فيه ؟

وسرعان مابدأ القشتاليون يتندرون عليهم ويتغامزون،ودخل الموكب الذليل معسكر الملك فرناندو عندما انتصف ذلك النهار .



المقابلة الملكية الأخيرة لأبى عبد الله الصغير آخر ملوك غرناطة الإسلامية

الوقت : الساعة الثامنة مساء
التاريخ : ١ يناير ١٤٩٢ م
المكان : بهو قمارش فى قصر الحمراء بغرناطة

كان المساء كئيبا على كافة الناس ، وقد أدى المسلمون صلاة العشاء الأخيرة فى مسجد غرناطة الجامع ، ثم تسللوا إلى بيوتهم فى ذهول وهم لايعلمون حقيقة مايجرى على وجه التحقيق ،.فقد أصبحت الأخبار مؤكدة أن فى الغد يصير تسليم المدينة إلى فرناندو وإيزابيلا ، وتسقط بهذا راية الإسلام عن آخر معقل للمسلمين فى أرض الأندلس . ورغم شدة البرد فى هذه الليلة فإنهم جميعا قد حرصوا على أداء الصلاة فى المسجد ، فهى آخر صلاة لهم وبلدهم على الإسلام ويطبق فيه حكم القرآن . وبعد ذلك لأحد يدرى ماذا يكون من الغد .

وقد وقف البعض ينظر إلى شبح المئذنة الذى لايكاد يظهر من بين الظلمات ، وخواطر صامتة حزينة تدور فى نفوسهم ، هل يمكن أن يرتفع الصليب فوقها وتستبدل النواقيس بالأذان ؟ ، ويقام القُدّاس فى أيام الآحاد والأعياد ؟ ولاينادى للصلاة من يوم الجمعة إلى الأبد ؟ ، وهزَّ الناس رءوسهم ذاهلين،وغابوا فى الأزقة والدروب المؤدية إلى ساحة الجامع الكبير .

ولم يكن أحد يصدق أن هذا يمكن أن يكون ، فهى مصيبة تتضاءل بجانبها مصيبة الموت ، وهناك أمل يحدوهم أن شيئا سيحدث ، سوف يمنع هذا التسليم المهين . وكانت المدينة تعج بالشائعات والأقاويل منذ أول النهار ، وسمعوا أن الملك سوف يلتقى بأكابر أهل غرناطة،وقادة الجند والأعيان والوزراء بعد صلاة العشاء فى بهو السفراء من قصر الحمراء .

وظلت جذوة من أمل فى نفوس الناس ، فمن يدرى لعله يرفض التسليم فى هذا الاجتماع ، ولعله يطلب من المسلمين أن ينظموا المقاومة والحرب ، ثم تخرج قوات غرناطة لتنقض على قوات فرناندو وإيزابيلا الرابضة فى مكان قريب .

● ● ●

انتهى موسى بن أبى الغسان من صلاته مع الناس ، وخرج شاردا يحث الخطى فى طريقه إلى قصر الحمراء،فقد كان مدعوا إلى الاجتماع ، وفضل أن يسير على قدميه ، وأوصى غلامه أن ينتظره ببغلته عند بوابة القصر .

وكان الثلج يغطى الطرقات ويشق بياضه ظلمة الليل ، وتبدو لمعته على ضوء الفوانيس الشاحبة المعلقة على رءوس الشوارع والحارات ، وأمام بيوت بعض من الأعاظم والكبراء ، وشعر موسى بلسعة البرد تنفذ إلى جسده رغم الفراء السميك الذى يحتويه ، وسارع يلملم أطراف جبته حول صدره وهو يفكر فيما ينبغى قوله للملك فى هذا اللقاء المزمع أن يكون .

ماالذى يريده منهم أبو عبدالله الصغير الذى وقّع معاهدة تسليم غرناطة ؟ لقد وقّعت المعاهدة منذ أكثر من شهر ، وعلى وجه التحديد يوم ٢٥ نوفمبر ، ومن شروطها أن يتم التسليم بعد ستين يوما من هذا التاريخ ، وهاهم أولاء قد أزمعوا أمرهم على تسليمها من الغد ، ترى ماذا جرى ؟

هل يتم تسليم غرناطة إلى النصارى قبل أن تعود الشمس مرة أخرى ؟ وسرت فى جسده قشعريرة وهو يقطع الطريق .

ولاحت من بعد أبراج قصر الحمراء وقد انبعثت منها الأنوار كأنها ليلة عرس أو عيد ، وزفر زفرة حارة من صدره المكلوم .

هل هناك من يجرؤ على تسليم آخر معاقل الإسلام للنصارى ؟ من يملك هذه القدرة أمام الله والشعب والتاريخ ؟

لقد خبت روح المقاومة فى نفوس المسلمين ، وهم يسيرون إلى حتفهم كالنعاج ، يقودهم ملك جاهل ضعيف ، وفقهاء قد آثروا الدنيا على الآخرة ، وأقروا شروط التسليم فى تلك الليلة السوداء التى مضت من شهر نوفمبر ، ثم انصرفوا بعدها إلى طعامهم وشرابهم كالبهائم .

وكان قد وقر فى صدر موسى بن أبى الغسان أنه لن يشهد يوما مثل هذا أبدا ، ولن يرى بعينيه الصليب وهو يرتفع فوق الأبراج والمآذن ، ولكن كيف ينجو من هذه المشاهدة ؟ هو لايعرف ، ولكنه على يقين من أنه لن يحضر حفلا كهذا ، وأن الله سوف ينجيه من هذا الذل .

واستراحت نفسه لهذه الخواطر ، وراح يصعد درجات القصر .

● ● ●

كانت القاعة تغص بكبار الناس ، ففى ناحية يجلس التجار والأعيان ، وفى ناحية أخرى يجلس الفقهاء والعلماء والأدباء وأصحاب الشعر . ويتوسط القاعة فى مواجهة الملك الذى جلس صامتا الوزراء وقادة الجند . وراح الخدم والعبيد يدورون بشراب اللوز الساخن على المجتمعين . وكان الدفء يملأ المكان من مدفأتين كبيرتين فى القاعة ، قد شحنتا بالفحم وبالخشب ، وقد أضاء لهبهما الأحمر وجوه الناس .

كان الصمت يخيم على القاعة ، وقد امتلأت النفوس برهبة وخوف وقلق وتوتر ، ولاتخلو الصدور من شعور بالارتياح قد تخلله الذل وغشاه العار ، ففى الغد سوف تنتهى هذه المدلهمة التى استمرت سنوات .

وكان فرناندو قد أشاع فى غرناطة أن الدقيق سوف يوزع بالمجان عندما يتم التسليم وينتصف النهار . وكان الجوع يكاد يفتك بأهل المدينة المحاصرة ، ولكنه لم يعرف طريقه إلى بيت أحد من المجتمعين الذين يملئون القاعة .

التجار يريدون أن يبدءوا تجارتهم من جديد ، وسوف يتعدى نشاطهم إلى كل بلاد الأندلس ،

ففى الغد تنتهى الحرب ويبدأ عهد جديد سمته الأرباح والأموال والسفر إلى كل مكان دون خوف أو وجل .

الوزراء والقواد قد مناهم فرناندو بالهدايا الثمينة والمال الوفير عندما يتم التسليم ، وخزانة أبى عبدالله الصغير لاتقدر على الأرقام التى ذكرها لهم فرناندو عبر مبعوثيه فى المباحثات واللقاءات التى لم يعرفها أحد .

ارتياح يتخلله الذل ويتغشاه العار .

فالإسلام يأمرهم بالموت دفاعا وينهاهم عن التسليم ، وكل الفقهاء المجتمعين يعلمون هذا ، وكلهم آثر أن يعطى الدنية فى دينه وهو مسلم لايزال يقرأ القرآن . ولكن لماذا يريدهم الملك ؟

هل هناك جديد يمكن أن يقال فى هذا الاجتماع ؟

لقد عجَّت غرناطة برجال فرناندو وأعوانه ، وصاروا يتصلون بالناس ، ويتعاملون مع الشعب ، وليس للملك دور غير تسليم المدينة مع النهار . وصار الملك يتأمل الوجوه شاحبا صامتا ، وقد تمكنت منه البرودة الشديدة ، ولم يغن الفحم الملتهب شيئا ، وهو يجهد نفسه ليبدو متماسكا شجاعا بلا فائدة ، والقناديل المضاءة تنقله من وجه إلى وجه ، وهو كالغريق يقاوم بحراً عاتياً غاضب الموج ، ويتمنى لو تنشق القاعة ويغوص فيها ليحتمى من نظرات المشاهدين .

محكوم عليه بالموت وهو ينظر إلى قضاته ، ويأبى كبرياؤه أن يستعطفهم . وقد حكم عليهم بالذل والموت أيضا ، وهم يريدونه أن يجهز عليهم .

ويقلب النظر فى الوزير والقائد والكبير !

مَنْ حكم على مَنْ ؟

من أراد هذا لمن ؟

هل هو الذى أرغمهم ؟ أم هم الذين أرغموه ؟

القاعة غارقة فى لجة من الذل والمهانة وضياع الدين والكبرياء .

وقطع الصمت صوت خطوات موسى بن أبى الغسان ، وحذاؤه يدق الأرض الرخامية بإيقاع منتظم ، وهو يقطع الطريق إلى حيث يجلس الملك . وسارع إليه أحد الخدم وتناول منه جبته التى رفعها عن كاهله ، وسارع آخر يمد له مقعدا ، ولكنه ظل واقفا يحدق فى الملك ثم يدور بعينيه فى جموع الجالسين ، وأشاح بيده عندما قدم له واحد من العبيد شراب اللوز الساخن .

وخرج صوت أبى عبد الله الصغير مترددا ضعيفا :

– ألا تجلس ياموسى ؟

وتردد موسى بن أبى الغسان لحظة ثم قال وهو يجلس :

– لأى شىء دعانا الملك ؟

وأخفى وهج الفحم المتوقد شحوب وجه أبى عبد الله الصغير ، الذى أشار إلى وزيره أبى القاسم المليح ، فقام ليتكلم واشرأبت إليه الأعناق .

ووقف الوزير وهو رجل فى الأربعين ، يرتدى ملابس فاخرة قد صُنعت على النمط الأندلسى ، ولكنه وضع على رأسه – وربما لأول مرة – قبعة قشتالية سوداء ، وخلعها وهو يأخذ مكانا متوسطا بين الملك والمجتمعين ، وربما قد خجل من ارتدائها فهو يخفيها ، ولكن سرعان مالمح أن معظم الجالسين قد وضعوا مثلها على رءوسهم ، وأرتج عليه فلم يدر ماذا يقول ، وصار يقلب بصره بين الملك والناس .

وقام الوزير ابن كماشة لينقذ الموقف دون إذن من أحد . وشرح الظروف التى أدت إلى توقيع معاهدة تسليم غرناطة ، والتى عرضت عليهم فى شهر نوفمبر الماضى ، وكيف ناقشوا بنودها بندا بندا قبل إقرارها فى هذه القاعة ، وكيف أنه وزميله أبا القاسم المليح ومن معهم من المفاوضين

قد بذلوا غاية جهدهم مع مفاوضين أذكياء أقوياء من رجال فرناندو وإيزابيلا ، ليستخلصوا هذه الحقوق لشعب غرناطة المسلم ، وأنهم بهذه المعاهدة قد أنقذوا مايمكن إنقاذه ، واستخلصوا حقوقا كان لايمكن لها أن تكون إذا استمرت الحرب ، واقتحمت جيوش فرناندو وإيزابيلا ساحة غرناطة .

واختلطت همهمات التأفف والاستحسان بين الجالسين ، وبدا هرج يشمل القاعة بدده صوت موسى بن أبى الغسان :

– لم يخبرنا الملك أو وزيره عن سبب هذا الاجتماع .

ونظر الملك يائسا إلى أبى القاسم المليح الذى استعاد جأشه وقال :

– سوف يتسلم مندوبو صاحب الجلالة فرناندو الخامس وصاحبة الجلالة إيزابيلا المدينة غدا ، ويجب أن نتعاون جميعا من أجل أن يمر هذا اليوم بسلام حرصا على أرواح المسلمين وأموالهم . وهذا هو سبب الاجتماع .

وارتفعت الضجة هنا وهناك ، وعاد أبو القاسم يقول :

– نحن لم نجتمع هذه الليلة لنناقش المعاهدة فهى قد وقعت بالفعل ، وقد نوقشت فى حضوركم ، نحن نحاول أن نمنع المزيد من إراقة الدماء . امنعوا سفهاءكم من التصدى لجند الملك فى الغد ، أو تسوء عاقبة الجميع .

وقام موسى بن أبى الغسان ليتكلم وقد بدا مضطربا قلقا وكأنه يقذف الحمم من فمه وهو يواجه من بالقاعة :

– تعلمون أننى الوحيد الذى رفضت هذه المعاهدة التى يقضى بموجبها على الإسلام فى الأندلس . وقد قلت لكم من قبل إننى أفضل أن أحصى مع الذين استشهدوا عند أسوار غرناطة الإسلامية دفاعا عنها ، من أن أحصى مع الذين شهدوا تسليم المدينة ، أو وافقوا على هذا التسليم ، وقد أتيت إلى هذا الاجتماع وغاية أملى أن يثوب الملك إلى رشده وكذلك الوزراء ، وأن يعلنوا رفضهم لهذه المعاهدة ، ويدعوا الشعب ويقودوه إلى المقاومة وإلى الشهادة ، وكان أسفى عظيما عندما سمعت الوزير يطلب منا الاستسلام فى هدوء ، ويحذرنا مغبة التصدى لجنود فرناندو

وإيزابيلا . وإنى أود أن أتقدم إليكم بسؤال : إن كان الإسلام قد ذهب من نفوسكم وأنتم قادة الشعب ، ألا تقاتلون عن بلدكم ونسائكم وأموالكم ؟ إن كنتم تظنون أن النصارى سوف يحفظون عهدكم فأنتم واهمون إن ظننتم ، سوف يخدعونكم ويقضون عليكم ، إن الموت أقل مانخشاه منهم ، فما ينتظرنا هو نهب المدن وتدميرها ، وتدنيس المساجد ، وخراب البيوت ، وهتك الأعراض ، وهناك الظلم الفادح ، والتعصب الوحشى ، والتعذيب فى سجون النصارى ، والأنطاع والمحارق ، يجب علينا أن نعى درس التاريخ أيها المساكين ، سوف يأتى عليكم يوم تبحثون فيه عن الموت الشريف فلا تجدون فرصته ، سوف تموتون كالعبيد واحدا واحدا فى ذل وكرب ، ولن ينفعكم نصحى وقتها .

ثم اقترب من مكان الملك الذى ازداد شحوبه وقال له :

– هل هذه هى كلمتك الأخيرة أيها الملك ؟

وغمغم الملك يائسا :

– لقد وقعنا معاهدة معهم ، والوفاء بالعهد من شيم المسلمين .

وتحول موسى بن أبى الغسان إلى الناس وهو يهز رأسه فى أسى وحزن :

– إنى أشهدكم أننى لن أشهد هذا اليوم ، وإن أقل مانفعله أن نموت فى سبيل الله ، إن كنا حقا نؤمن به .

ثم أسرع الرجل ليغادر القاعة ، ووقف قليلا حيث يجلس الفقهاء والعلماء ، ونظر إليهم حزينا آسفا ، وقال لهم وهم يتوارون خجلا منه :

– أنتم أعلم الناس بقدر الشهادة فى سبيل الله ، وتعلمون مقام الشهيد ، وكنت أود أن يكون لكم موقف غير هذا .

وأخذ جبته وغادر المكان فى عصبية ظاهرة ، وقد استقر قراره على أمر عظيم .

صار الملك يحدق فى أثره حزينا واجما لايكاد يصدق حتى اختفى وراء الأعمدة المقامة فى

آخر القاعة ، ثم نكس رأسه خجلا وأسفا ، ورفعها فالتقت عيناه بعينى ابن كماشة أحد وزرائه الذين وقعوا المعاهدة ، وكأنما لمح فى وجهه شبح ابتسامة ساخرة ، سرعان ماتبددت أمام تحديق الملك . ووقف أبو عبدالله الصغير ووقف مَنْ بالقاعة احتراما له وقال لهم :

– اذهبوا فانظروا مصالحكم ، وإياكم والتعرض غداً لنقمة فرناندو . أنتم تعلمون جميعا أحوالى كلها ، لقد حاربت وقاتلت . ولكن لم تعد هناك فائدة من هذا كله . لقد كتب الله علىّ أن أكون أشقى الناس ، على يدى وباسمى ينزل لواء الإسلام عن هذه البقاع : لم يكن أمامى غير التسليم للنصارى وأنتم تعلمون .

وبدا الملك مضطربا حزينا خائفا قد تجمدت الدموع فى مآقيه ، وتقدم منه واحد من الفقهاء ليعزيه ، فأشار له بيده فتوقف .

– انصرفوا على بركة الله ، كان الله فى عونى وعونكم .

وصار الناس يغادرون القاعة فى همهمة ظاهرة وصخب واضح والملك ينظر فى أثرهم ذاهلا ، فهذه آخر مرة يجلس فيها فى هذه القاعة كملك ، ومن الغد سوف يصير واحدا من عامة الناس ، صحيح سوف يكون له معاملة خاصة ، ولكنه فى النهاية أحد رعايا الملكين الكاثوليكيين ، وكان الناس قد أحسوا بهذا وعرفوه ، فغادروا القاعة دون أن يسلموا عليه كما تقضى بذلك التقاليد ، ربما احتقارا له ، وربما لسرعتهم فى الاستعداد ليوم عصيب سوف يأتى مع الشمس من الغد ، وكل واحد يريد أن يدبر شئون أهله ، فالغيب غامض والمدينة غارقة فى الضباب ، والتاريخ يحيط بها من كل جانب ، وهو يحصى لحظات هذه الليلة فى دقة وصبر . والتفت الملك إلى الوزيرين اللذين بقيا بعد أن انصرف الناس وقال لهما عاتبا لائما :

– أنتما اللذين أشرتما بعقد هذا الاجتماع ، ولم نجن منه غير السخرية والشماتة والاحتقار ، لم يكن هناك من داع له .

وقال له الوزير أبو القاسم وهو يبتسم :

- عندما يسمع الملك فرناندو بخبر هذا الاجتماع سوف يرضيه هذا منك ، وكما تعلم يامولاى نحن نبحث عن رضائه .

وقال ابن كماشة :

- لقد جمعت الناس وطلبت إليهم أن يتم الاستسلام فى سلام .

- ومن يخبر الملك فرناندو بخبر هذا الاجتماع ؟

- اطمئن يامولاى ، هناك الكثيرون سوف يخبرونه . لقد صار قبلة العيون .

- هل حضر رئيس الشرطة هنا الليلة ؟

- بالتأكيد يامولاى .

- لم أره .

- كان يجلس فى آخر القاعة .

- انصرف دون أن يسلم علىّ .

- لابأس بهذا يامولاى . هل تريد منه شيئا ؟ أرسل فى استدعائه ؟

- كلا ياأبا القاسم ، لاضرورة لهذا ، لم تعد لنا به حاجة .

وقال ابن كماشة :

- هل نراجع معا يامولاى بعض الخطوات التى ينبغى أن تتخذ فى الغد ، حتى يظهر مولاى فى أحسن صورة أمام الجند القشتاليين

- تريد أن تراجع معى دورى فى تسليم المدينة غدا ؟

وأجابه ابن كماشة فى قسوة :

- نعم يامولاى .

– لابد أن أسلم راية المسلمين بيدى للقائد الذى يرسله فرناندو ؟

– نعم يامولاى .

– ألا يتم هذا دون تعريضى لهذا الهم المقيم ؟

– قد مرَّ علينا ماهو أعظم منه يامولاى .

– ماذا ؟

– التوقيع على المعاهدة .

وقال الملك :

– لا ياابن كماشة . لاشيء يضارع مايحدث فى الغد . نحن ننتظر الذل الأعظم مع إشراقة الشمس ، سوف أسلم غرناطة بنفسى إلى النصارى .

وقادهما الملك حزينا واجما إلى قاعة صغيرة قد ألحقت بالقاعة الكبرى ، وجلس وأشار لهما فجلسا ، ووضع الوزير عبد الملك حقيبته فوق ركبتيه وقد ملئت بالأضابير والأوراق ، وصار يفتحها ويخرج مابها . والملك ينظر إليه وقد خلا وجهه من أى تعبير .

وسعل الوزير سعلة خفيفة متأهبا للكلام الذى يقرأه من إحدى هذه الورقات :

– سوف يرتدى مولاى غدا جبته الصفراء المحلاة بالشرائط السوداء .

والتفت الملك دهشا إليه :

– ماهذا الكلام ؟ لست أفهم .

وتدخل ابن كماشة :

– مولاى .. هذه هى رغبة الملكين الكاثوليكيين .

– أن أرتدى جبتى الصفراء ذات الشرائط السوداء ؟

– نعم .

– ومن أدراهما أن عندى جبة بهذا الوصف ؟

وحدق عبد الملك فيه وهو يطوى الورقة ويخرج أخرى وهو يقول :

– لاشيء يخفى على فرناندو يامولاى . ولاأظن أن هذا الطلب يمثل مشكلة لنا .

وصار الملك يقلب وجهه يائسا بين الوزيرين :

– لعله قد اختار الحصان الذى ينبغى علىَّ ركوبه فى الصباح ؟

وفى قسوة ناوله الوزير ورقة وهو يقول :

– هذا ماحدث بالضبط يامولاى .

وغضب الملك وانتفض واقفا :

– والله إن هذا لهو الذل بعينه .

ووقف الوزيران وقال ابن كماشة :

– مولاى لاتغضب . فارتداء ثوب قد اختاره فرناندو أو امتطاء حصان لا يساوى تسليم المدينة فى الصباح . هذه أمور تافهة ولاينبغى لمولاى أن يغضب .

وتأملهما الملك يائسا ثم عاود الجلوس وهو يغمغم :

– سوف نكون معاً فى الصباح وسأنفذ كل مايطلبه فرناندو ، ولاداعِىَ لإزعاجى بكل هذه التفاصيل .

– كما تشاء يامولاى .

وصار الملك يحرك يده بعصبية يريد أن يقول شيئا ولكن الكلام لايساعده .

– هل هناك مايود مولاى قوله ؟

وصار الملك يتفصد عرقا وهو يردد فى اضطراب :

– كان فرناندو قد وعد بمنحة مالية عند الانتهاء من التسليم .

– سيكون المال حاضرا عند الظهر غدا .

– أخشى أن يخدعونا بعد تسليم المدينة .

وتبادل الوزيران نظرة ببسمة ساخرة قد نجح كل واحد منهما فى إخفائها :

– اطمئن يامولاى . أنا مسئول أمامك عن وصول هذا المال .

ونظر الملك فى شك إلى ابن كماشة :

– أراك مطمئنا إلى وعود فرناندو .

وقال الوزير عبد الملك :

– أمام فرناندو طريق طويل ليُحكم سيطرته على بلاد المسلمين فى غرناطة ، ولن يغامر بإخلاف وعوده . ربما يكون الغدر من خلفائه يامولاى .

ونظر أبو عبد الله الصغير ناحيته بريبة ثم قال :

– هل معك المعاهدة التى وقعها الملك ..

وقاطعه أبو القاسم عبد الملك وهو يخرج ورقة من الحقيبة :

– هاهى ذى يامولاى وهى تضمن حقوق أهل غرناطة .

وفى استياء واضح قال أبو عبد الله :

– ليس عن هذه أتكلم ياعبد الملك . المعاهدة الأخرى التى لم يطلع عليها أحد . الاتفاق السرى الذى ..

وأسرع عبد الملك بمقاطعته مرة أخرى وهو يدخل ورقة ويخرج أخرى :

– قد فهمت يامولاى . هل أقرأ لك ؟

– نعم .. نعم .

وبدأ عبد الملك فى القراءة :

– باسم الآب والابن والروح القدس . نحن ..

وقاطعه الملك فى استياء ظاهر :

– بعد الديباجة ياأبا القاسم . اقرأ علىّ المفيد .

وصار أبو القاسم عبد الملك يغمغم بكلمات الديباجة ثم ارتفع صوته :

– أن يقوم الملكان فى اليوم الذى تسلم إليهما فيه الحمراء والحصن والأبواب كما تقدم فى المعاهدة المعلنة التى ناقشها وأقرها أعيان غرناطة وفقهاؤها – بإصدار الأوامر الملكية لأبى عبد الله وعليها توقيعهما ، ومختومة بخاتم الرصاص ذى الأهداب الحريرية ، وأن يصدق عليها ولدهما الأمير والكاردينال دى سبينا وكل الرؤساء الدينيين والعظماء والدوقات وكل مركيز وكل كونت .

وفى ضيق وغضب قاطعه الملك :

– ليس هذا ماأريده ، قد قرأت هذا الكلام ألف مرة ..

– الصبر يامولاى ، هاهو ذا ماتريد .

واشرأب الملك مستمعا بينما مضى أبو القاسم فى القراءة :

– سوف يعطى الملكان الكاثوليكيان لأبى عبد الله ولأولاده ولأحفاده وورثته إلى الأبد حق الملكية الأبدية فيما يملكانه من محلات وضياع فى بلاد برجة ، ودلاية ومرشانة ، ولوشار ، وأندرش ، وأجيجر ، وأرجبة ، وبلاد أخرى مجاورة يحددها أبو عبد الله ويوافق عليها الملكان الكاثوليكيان ، وكل مايخصها من ضريبة وريع ، وما بها من دور وأماكن وقلاع وأبراج ، وأن يتولى القضاء فى النواحى المذكورة باعتباره سيدها ، ويقر أنه تابع وخاضع لجلالتيهما ، وعليه أن يعرض مايريد بيعه أولا على صاحبى الجلالة فإن لم يريدا فله أن يبيع إلى من يشاء .

وسكت عبد الملك وهو ينظر إلى أبى عبد الله الصغير الذى قال :

– لماذا سكت ؟ استمر فى القراءة .

وواصل أبو القاسم عبد الملك القراءة :

– وأن يعطى جلالتاهما للملك المذكور ، مولاى أبى عبد الله ، منحة قدرها ثلاثون ألف جنيه قشتالى من الذهب عقب تسليم الحمراء وسائر القلاع الأخرى فى الموعد .

وتكلم الملك أبو عبد الله الصغير قلقا :

– قد كان هناك كلام عن البساتين والطواحين وأشياء أخرى .

– نعم يامولاى . كل هذا مكتوب .

– استمر إذن .

– وأن يهب جلالتاهما للملك المذكور ، كل الأراضى والطواحين والحدائق والمزارع التى كان يملكها أيام أبيه السلطان أبى الحسن ، سواء فى غرناطة أو جبال البشرات .

ويقاطعه الملك مرة أخرى مستوثقا :

– ملكية أبدية أتصرف فيها كما أشاء ؟

– نعم يامولاى .

– وماذا عن حقوق الملكة الوالدة وزوجتى وسائر العائلة ؟.

– نفس الحقوق يامولاى .

– أهذا معقول ؟ على أى حال ، ليتهم يوفون بهذه التعهدات ، وماذا عن حرية السفر والانتقال إلى المغرب ؟

ويواصل عبد الملك القراءة :

– وأنه إذا شاء الملك المذكور أبو عبد الله ، والملكات المذكورات وقوادهم وخدمهم وأهلهم صغارا وكبارا العبور إلى المغرب ، فإن جلالتيهما يجهزان الآن أو فى أى وقت سفينتين لعبور الأشخاص المذكورين متى شاءوا دون أجر أو نفقة ، وإن لم يتمكنوا من بيع أملاكهم فلهم حق توكيل من يشاءون فى فعل ذلك دون أى قيد أو غرم .

وأنه يحق للملك المذكور متى أراد أن يرسل من يراه من خدمه أو قادته إلى بلاد المغرب بحاصلاته أو غيرها من إيراداته دون أى قيد أو غرم .

وأنه يحق للملك المذكور متى خرج من غرناطة أن يسكن أو يقيم متى شاء فى الأراضى التى منحت له ، وأن يخرج هو ومن معه بخيلهم وماشيتهم متقلدين أسلحتهم ، وكذلك نساؤهم وخدمهم وألا يؤخذ منهم شىء سوى المدافع .

وأشار أبو عبد الله بيده إلى الوزير فتوقف عن القراءة :
- هل يأخذون المدافع منا ؟
وتبادل الوزيران النظرات،وقال ابن كماشة :
- وماذا نفعل بالمدافع يامولاى ؟
- سلاح جديد سوف يغير الكون ، ولنا الفضل فى صنعه .
ويواصل عبد الملك القراءة :
- وألا يفرض عليهم الآن أو فى أى وقت وضع علامة خاصة على ثيابهم ، وأن يتمتعوا بسائر الامتيازات المقررة فى عهد تسليم غرناطة .
- حسن وجميل ، استمر فى القراءة ياأبا القاسم .
- قد انتهت الوثيقة يامولاى ، ليس فيها غير توقيعات الملكين الكاثوليكيين ، وخاتمهما ، وكذلك توقيع الكونت فرناندو دى ثافرا أمين سر الملك .
وشرد الملك ببصره ثم سأل :
- كم الساعة الآن ؟
والتفت ابن كماشة إلى الساعة فى آخر البهو :
- تمام العاشرة يامولاى .
وقال عبد الملك :
- سنقوم الآن وسوف نأتى إليك يامولاى بعد أن تصلى الصبح فى تمام الخامسة من فجر الغد .
وانحنى كل منهما أمام الملك الشارد الذى لم يشعر بانصرافهما .

● ● ●

وكانت الملكة عائشة أم أبى عبد الله الصغير تقف فى ناحية ، وقد استمعت إلى حوار الملك مع وزيريه ، وشهدت جانبا من الاجتماع من خلف ستار . وكانت امرأة قوية الشكيمة ، جميلة

القسمات ، فى وجهها جلال وجمال ، فى الثالثة والخمسين من عمرها ، واقتربت من ابنها الذى بوغت بمرآها :

– قد أخذت القليل ثمنا لملك المسلمين .

ونظر إليها حائرا جزعا وقد غلبه الضعف :

– هذا غاية مااستطعناه وأنت تعلمين .

– هل ستبقى هكذا طوال الليل ؟

– لست أدرى ماذا أفعل ؟

– عليك أن تنام فوراءك يوم طويل ثقيل .

– سوف تجمع مهانة الدنيا كلها فى كأس أشربها دفعة واحدة .

– ألم تكن تعرف هذا ؟

– وماذا كان فى وسعى فعله ؟

– لومت فى هذه الليلة لكان خيرا لك من أن تموت بعد ألف عام .

– أنت تكلمين رجلا قد فقد الحيلة والأنصار .

وانقلب وجهها ازدراء واحتقارا :

– رجلا ؟ هل قلت رجلا ؟ أنا أكلم أبا عبد الله الصغير ، هكذا سماك ملوك قشتالة . أنت أصغر الملوك وأقلهم شأنا .

وطأطأ أبو عبد الله رأسه ضعفا وعجزا أمام أمه :

– أين ذهبت مريم ؟

– مريم ؟ وماسؤالك عنها ؟ هل فرغت لها ؟ هى مع الجوارى يقمن بحزم الأمتعة والصناديق . ماأتعسك ياأبا عبد الله الصغير !

وغادرت القاعة وهو ينظر فى أثرها مأخوذا ، وشعر بتعاسة لاحدود لها . وقام ينظر هنا

وهناك ، والعبيد يحملون الصناديق فى سرعة وقلق إلى أسفل فى ساحة قصر الحمراء ، وهم لايلتفتون إليه ، وهو لايدرى هل هم يستصغرون شأنه ، أم هم فى شغل عنه بما هم فيه ، وتمنى ألاّ يطلع صبح هذه الليلة . واجتاز الأروقة شاردا واجما إلى حيث ينبغى أن ينام ، ووجد زوجه مريم تعاون الجوارى على تعبئة الصناديق ، وماإن رأته حتى ألقت إليه بحقيبة جلدية صغيرة تلقفها دون أن يفهم ، ونظر إليها حائرا فقالت له :

– هذه جواهرى احتفظ بها حتى أفرغ وآخذها منك .

– أين يمكننى أن أنام ؟

وهزت رأسها وقالت :

– تنام ؟ وهل يمكنك أن تنام ؟ لست أدرى على أى حال .

وتضاعفت أحزانه ، وشعر بروحه تغوص فى لجة بحر لاقرار له ..

إنه لم يعد ملكا بعد ذلك .

● ● ●

الوزيران الكبيران في الليل

كان الوزير أبو القاسم عبد الملك بعيد النظر هو وزميله يوسف بن كماشة . كان كل واحد منهما يعرف النهاية المحتومة التى تسير إليها غرناطة منذ أكثر من عام على وجه التقريب . ثم جاء الوقت الذى عرفوا فيه الموعد على وجه التحديد .

وقبل ذلك وعندما أحس كل واحد منهما بقرب هذه النهاية وأنها قادمة لامحالة ، وأنه قضاء لاراد له صار كل واحد يبيع مايمتلك من عقار وأرض سرا دون أن يعلم أحد ، فلم تعد بلاد الأندلس الإسلامية بدار مقام .

واستطاع عبد الملك أبو القاسم أن يبيع داره الواسعة الرحيبة التى هى إلى القصر أقرب ، واشترط على من اشتراها أن يسلمها له بعد عام كامل ، وتهاون له فى السعر لإتمام الصفقة ، وكان موعد تسليمها يأتى بعد شهر من تسليم المدينة ، وهكذا أثبت أن له علما بالسياسة وأنه قدير بعيد النظر يعرف علامات الأزمنة والمواعيد التى تتغير فيها الدول والبلاد .

وكان كثيرا مايسير فى شوارع غرناطة ودروبها يفكر فى المصير الذى انتهت إليه ، ويعجب كيف اشترك جميع المسلمين فى صنع هذا المصير .

وكان عبد الملك على صداقة مع يوسف بن كماشة على تنافسهما ، فهمس فى أذنه بما فعل بعد أن باع بشهرين ، وكان الوقت قد تغير ، وليس هناك من يشترى ، فقد نضب المال وقل الأثرياء فى مملكة تشرف على الموت .

واحتار الوزير ابن كماشة ، وأصبح لايدرى ماذا يفعل ، فهو لايجد من يشترى منه ، وصارت هذه المشكلة تشغل باله وفكره فى الليل والنهار .

وعندما بدأت مفاوضات التسليم سراً واشترك فيها الوزير ابن كماشة كان اهتمامه ببيع أرضه وداره كبيرا أثناء المناقشات التى جرت لصياغة معاهدة تسليم غرناطة .

وأثناء المفاوضات استطاع بيع أراضيه لبعض النبلاء الجالسين من الجانب الآخر ، ولكن داره لم تجد من يشتريها منهم .

فعندما يدور الحديث عن الحقوق الممنوحة للمسلمين فى غرناطة من الملكين الكاثوليكيين بعد التسليم كان ابن كماشة يبدى الهم والغم ويتكلم عن داره العظيمة وما فيها من خصائص ومميزات ، الأمر الذى أصاب المفاوضين القشتاليين بالدهشة الشديدة ، وظنوه مجنونا فى أول الأمر ، ثم فهموا بعد ذلك أنه رجل واقعى جدا عملى التفكير .

وكادت قصة داره تفسد المفاوضات بعد أن شغلت المفاوضين .

ولم يكن القشتاليون كرماء فى تفاوضهم وتحاورهم ، بل كانوا أصحاب بخل وعناد ، وكانوا يقولون لابن كماشة :

– ولماذا تبيع دارك بعد تسليم غرناطة ؟ تستطيع البقاء بها لو أردت . أم أنت لاتثق فى الوعود المبذولة والعهود التى ستكتب ؟

ولم يكن ابن كماشة يستطيع الإجابة السليمة الصحيحة ، فقد كان سياسيا بعيد النظر عميق الغور ، يعرف ماذا ينتظر المسلمين من هول وعذاب تحت حكم النصارى ، فكان يسكت قليلا ، ثم ينتهز الفرصة أو يخلقها ليعود فى الحديث عن داره من جديد ، بين ضيق المفاوضين وتأففهم من الجانبين .

ثم طرأت للمفاوضين القشتاليين مشكلة حسمت قصة دار الوزير ابن كماشة،فقد ظهرت مسألة

تدبير أماكن لسكنى كبار الموظفين ، المطلوب تواجدهم فى غرناطة على وجه العجلة ، وليس هناك وقت كاف للبناء .

وجاء دور ابن كماشة للتأفف والضيق عندما يتحدث معه القشتاليون عن شراء داره ، بعد أن أبدى زهدا فى بيعها عندما عرف حاجتهم إليها .

وتطورت القضية وأوشكت أن تحدث أزمة سياسية ، وفى الوقت المناسب أبدى الوزير ابن كماشة لينا وموافقة .

وتم الاتفاق على شراء دار الوزير على أن تسلم فى اليوم الذى يتم فيه تسليم غرناطة .

وفى هذه النقطة تشدد الوزير وساومهم فى ثمنها حتى حصل على ماأرضاه .

وكتب عقد البيع للدار مع ماكتب من عقود العطيات والهبات التى حررت لكبار المفاوضين وكبار الأعيان ومن يخشى منهم .

● ● ●

وبعد أن تحدد موعد الجنازة لغرناطة الشهيدة انتقل الوزير ابن كماشة إلى دار زميله أبى القاسم عبد الملك . وأخلى داره مما بها من نفيس الرياش بعد أن رفض القشتاليون شراءه ، فعندهم أثاثهم الجديد من صنع المسلمين الذين كانوا يملئون بلاد إسبانيا ، والذين كانوا يطلقون عليهم اسم « المدجنين » . وكان هؤلاء « المدجنين » هم أهل العلم والفن والحضارة ، وهم الذين أقاموا الإنشاءات الضخمة التى عملها الإسبان فى قرون ثلاثة تلت السقوط .

حتى إن الكاتدرائيات الضخمة التى اشتهرت بها المدن الإسبانية كانت من صنع هؤلاء المسلمين « المدجنين » الذين حكمهم النصارى قبل القضاء عليهم نهائيا . وكانوا يزينون أبواب هذه الكاتدرائيات بآيات من القرآن الكريم ظلت حتى الآن على أبواب هذه الكنائس العظمى شاهدا على عظمة الشعب الإسلامى المغلوب واقتداره .

وكان الوزير أبو القاسم عبد الملك يفكر فى الأثاث الكثير الذى يملأ داره المبيعة ، والذى كان عليه أن يتصرف فيه قبل تركها . وكان يغيظه أن زميله ابن كماشة قد حصل على ثمن كبير فى داره التى باعها ، رغم أنه قد تأخر عنه فى موعد البيع . وأراد مرة أن يثير مشكلة أثاث بيته فى المفاوضات ولكن القشتاليين رفضوا مجرد مناقشة هذا الموضوع أو عرضه عليهم .

وسكت يومها الوزير أبو القاسم عبد الملك ، وعاد يتكلم عن حقوق المسلمين بعد التسليم . وعزى نفسه بأنهم لاشك سوف يحتاجون إلى أثاث ، وأن الفرصة سوف تأتى يوما ، وأن صلته الطيبة بالقشتاليين سوف تجعلهم يجاملونه،ومن ثم يشترون منه مايريد بيعه .

وعندما دارت الأيام وطلع صبح الذل على غرناطة كانت المشكلة الكبيرة التى تشغل ذهن الوزير أثناء مراسم التسليم هى أثاث بيته لمن يبيعه ومن يمكن أن يشتريه . ويُذكر أنه فى ذلك اليوم انتحى جانبا بأحد مساعدى الكونت فرناندو دى ثافرا وسأله إن كانت لديهم رغبة فى شراء أثاث جديد ثمين ، وأشاح عنه مساعد الكونت ازدراء ولم يرد عليه .

● ● ●

خرج الوزير ابن كماشة وزميله أبو القاسم عبد الملك من قصر الحمراء بعد انتهاء مقابلتهما للملك أبى عبد الله الصغير ، ونزلا الدرج معا متزاملين صامتين ، وفى نهايته وجدا ركائبهما فى الانتظار ، وكان كلاهما يرتدى جبة سميكة من الفرو الثمين ، فلم يشعرا بالصقيع الذى يملأ الساحة .

ناول الوزير عبد الملك أحد مساعديه الأوراق التى يحملها ، وكان يقف منتظرا مع الركائب ، وتبادل مع ابن كماشة النظر فى وجوم وأسى وقال :

– مازلنا فى أول الليل .

ورد عليه ابن كاشة وقد خلا وجهه من التعبير :
- وراءنا نهار شاق .
وقال له عبد الملك حزينا :
- هذه ليلة لاينام فيها إلا البهائم ، سوف نسلم غرناطة مع الصبح .
وشرد ابن كاشة قليلا ثم قال :
- مارأيك فى الذهاب إلى حانة هنريكو القشتالى ؟
ورد عليه عبد الملك مستهجنا :
- نشرب الخمر فى الحانات ؟
وقال له ابن كاشة ببساطة :
- سوف نشرب شيئا ساخنا ، ونسلى أنفسنا بما يدور حولنا هناك .

وقال له عبد الملك :
- مارأيك أن نذهب سيرا على أقدامنا ؟
- لا بأس ، يكفينا أحد الخدم يسير أمامنا بقنديل
ويمما صامتين صوب حانة هنريكو القشتالى .

● ● ●

أجلسهما هنريكو القشتالى فى ركن خفى من الحانة وسعد بوجودهما كثيرا ، وقام على خدمتهما بنفسه ، وعرض عليهما ماعنده مما يحرمه الشرع ، فأبيا وشكرا وطلبا لوزا ساخنا فقدمه لهما وتركهما ، وانصرف يرتب للتدريبات التى ستبدأ بعد قليل لحفل الغد بعد استكمال المغنيين والمغنيات ، وذلك الذى يقوم بالتدريب .

كان فى الحانة نفر ممن لايعلمون ماذا يدور حولهم فى هذه الحياة ، أو يعلمون ماذا يدور ولايقدرونه حق قدره ، فكل شىء فى نظرهم سواء .

وكان فيها أيضا نفر ممن يعلمون مايدور ، فهم فى ذهول منه وفى شك ، ولايصدقون أن فى الغد سوف تنطبق السماء على الأرض ويهوى آخر معاقل الإسلام فى الأندلس . وجلس الوزيران يحتسيان شراب اللوز الساخن فى صمت ، ثم بدأ الحديث بينهما على كره واستحياء .

وقال ابن كماشة :

– ماذا تنوى أن تفعل غدا بعد التسليم ؟

ورشف الوزير عبد الملك رشفة من كوبه وشرد قليلا ثم قال :

– سوف ينتهى عملى وعملك معا قبل صلاة العصر من الغد .

– لاأدرى ماذا ينبغى لنا أن نفعل .

– لم يعد أمامنا اختيار .

– معك الحق . الأمور تسير بنا بمقادير .

– لاأكاد أصدق ماحدث .

وقال ابن كماشة مبتسما فى مرارة :

– ولكنه رغم كل شيء قد حدث . ترى هل كان لنا دور فى السقوط ؟

وقال عبد الملك أبو القاسم :

– تتكلم عنى وعنك ؟

– نعم !

– لاأظن ، وماذا يكون دورنا فى رأيك ؟ تقصد أننا قد قمنا بمفاوضات التسليم واشتركنا فى صياغة المعاهدة ؟

ولم ينتظر أبو القاسم عبد الملك رد ابن كماشة بل أكمل :

– كان مفروضا علينا كل هذا ؟ لم يكن فى إمكاننا أن نرفض ، والمعاهدة نفسها قد ناقشنا كل بنودها على الناس فى ذلك الاجتماع الذى عقد بقصر الحمراء .

وقال ابن كماشة فى مرارة :

– فى هذا اليوم جئنا بأمين سر الملك الكونت فرناندو دى ثافرا،وأعددنا له مقعدا خلف الستر ، وكأنه قد حضر الاجتماع معنا . مامعنى أننا ناقشنا بنود المعاهدة مع الناس ؟ هل كان فى وسع أحد أن يرفع حرفا منها ؟

وقال عبد الملك أبو القاسم :

– هناك من اعترض على بعض النقاط .

ورد ابن كماشة :

– وماذا كانت نتيجة اعتراضه ؟ سفهنا رأيه وأسكتناه . هل تذكر ؟

– نعم أذكر .

– هل نسيت كلام موسى بن أبى الغسان ؟

واعتدل أبو القاسم متنمرا :

– كأنك تحملنى وزر هذه المعاهدة ؟

وقال ابن كماشة فى لحظة صدق مع النفس :

– أنا أحملك ونفسى وزر تسليم غرناطة للنصارى .

وانقلب وجه الوزير أبى القاسم عبد الملك :

– هل تقول هذا الكلام على محمل الجد ؟

ونظر ابن كماشة إلى زميله ساخرا :

– كأنك لا تعرف أننا الذين ارتكبنا هذا الوزر فى حق المسلمين ؟

وقال له أبو القاسم :

– ماهذا الكلام الذى تقول ؟ والملك ؟ ذلك المأفون المرتعد الذى نفخ فينا من روحه الخسيسه ، ماذا عن دوره ؟ وأولئك التجار الذين كانوا يأتون لنا كل ليلة ويتكلمون عن التجارة التى بارت ، والبيع والشراء الذى توقف . وهؤلاء الزراع الذين جاءوا

يشكون من عدم قدرتهم على الخروج لمزارعهم خارج الأسوار . والجماهير التى هاجت مرات ومرات تسألنا الخبز والدقيق . يبدو أنك نسيت ياابن كماشة .

– لم يكن أمامنا غير الغدر بالمسلمين .

واستمر عبد الملك :

– وأولئك الأمراء والرؤساء عبر البحر من سادة البلاد الإسلامية الذين أرسلنا إليهم شعور نسائنا ولم يردوا علينا . ألم يكن هؤلاء أيضا مسئولين عن هذا الخطب الجلل .

– نحن الذين كتبنا المعاهدة ونحن الذين وقعناها .

وقال أبو القاسم عبد الملك فى هدوء :

– اسمع ياابن كماشة،سأخبرك رأيى فيما حدث .

وسكت قليلا فقال له ابن كماشة :

– وما رأيك ؟

وقال أبو القاسم عبد الملك :

– معاهدة تسليم غرناطة للعدو النصرانى قد قمنا بكتابتها كما قلت ولكن الذين وقعوا عليها بالموافقة كل المسلمين فى أنحاء الأرض صغيرهم وكبيرهم ، نعم ياابن كماشة،لقد وقع على هذه المعاهدة جميع المسلمين . ومانحن غير مساكين لعبنا دورا صغيرا حقيرا حتمته علينا الظروف . لقد حاولنا أن ننتزع شيئا من فم الأسد لإخواننا المسلمين المساكين . حاولنا أن نحصل لهم على حق التنفس ليس أكثر .

– وهل تظن أن تلك الحقوق التى أخذناها تدوم .

وغمغم أبو القاسم عبد الملك فى صوت خفيض :

– بطبيعة الحال لن تدوم ، وكل ماقاله موسى بن أبى الغسان صحيح .

وقال ابن كماشة مغيرا الحديث :

– ترى ماذا يكون حال موسى بن أبى الغسان فى الغد .

– قال إنه لن يشهد هذا اليوم .

– سوف يعتكف فى بيته أسبوعا أو أكثر ، ثم تسير به الحياة مثلما تسير بكل أهل غرناطة .

وقال أبو القاسم عبد الملك :

– لأظن ياابن كماشة ، ليس موسى بن أبى الغسان الذى يرضى أن يعيش تحت حكم القشتاليين ، ولو رضى هو فلن يرضى القشتاليون عنه .

– هناك معاهدة تحميه .

– ماأسهل نقضها والتخلص منها .

وقال ابن كماشة :

– لماذ لانغير هذا الحديث ؟

– لماذا لانغير هذا المكان ؟

وقاما كلاهما متثاقلا مهموما حزينا،وألقيا قطعة من الفضة على المنضدة وانصرفا خارجين ، ولم يلاحظا وهما يغيبان فى ظلمة الطريق وبرده أن موسى بن أبى الغسنان يدلف داخلا إلى الحانة قد جذبه صوت المنشدين .

● ● ●

جلس الوزير أبو القاسم عبد الملك وزميله ابن كماشة يلعبان الشطرنج حتى يسمعا المؤذن يعلن عن موعد صلاة الفجر فيقوما إلى الملك ويبدأ العمل .

وكانا أثناء لعبهما يتحدثان فى أمور شتى لاعلاقة لها بالحدث العظيم الذى يوشك على الوقوع .

وكان أبو القاسم عبد الملك قد أفرد قسما من داره لابن كماشة وأسرته منذ مدة ، وكان هذا يثير فى نفسه الغيظ كلما تذكره .

وشرد ابن كماشة قليلا وقال :

– هل ستخرج غدا مع الملك ؟

– نعم سوف أخرج . هل تفكر فى البقاء ؟

– أنا ؟ كلا . لقد بعت كل شىء كما تعلم . لابقاء لنا هنا .

– والأثاث الذى تركت ؟

– سوف يجد كلانا مشتريا له .

وقال عبد الملك أبو القاسم :

– قد أعدت النسوة الأمتعة وجهزن الركائب .

وقال ابن كماشة :

– كلما حاولنا الهرب من هذا الحديث لم نجد غيره .

وفى هذه اللحظة سمعا الأذان الأول الذى ينادى به المؤذن ليوقظ الناس . وكان أذانا شجيا حزينا رخيما يبعث الشجن والأسى ، وتبادل كل منهما النظر مع صاحبه ، وكأنهما يدركان ماينطوى عليه الليل الذاهب،والصبح القادم بعظيم الأمور .

وقال عبد الملك أبو القاسم :

– كم تمنيت لو متنا قبل هذا اليوم .

وقال ابن كماشة :

– سوف أجدد وضوئ للصلاة ، وعلينا أن نذهب لإيقاظ الملك،فنومه ثقيل ولن يفعل معه صوت الأذان شيئا .

ماذا فعل موسى بن أبى الـغسان ليلـة الـتسليم

خرج موسى بن أبى الغسان من اجتماع الملك بقصر الحمراء حزينا مهموما ، .وأسرع إليه غلامه وقد أمسك بلجام بغلته ، وقد وضع تحت سرجها غطاء من الصوف ليحميها من شر البرد ، فى تلك الليلة العجيبة التى بدأ بها العام .

وطلب موسى من غلامه أن يذهب إلى البيت ، وسوف يلحق به بعد قليل ، ورضخ الغلام لطلب سيده وهو يتعجب من أمره ، كيف يفضل السير فى هذا البرد القارس ، والناس جميعا تسارع بالاختفاء فى المنازل والبيوت .

وأخذ موسى طريقه مغادرا وهو يرد تحية الحرس الذين انتشروا فى الساحة وحول البوابات ، فالكل يعرفه ويحبه ، فقد كان قائد العسكر المظفر حتى تلك الليلة التى تم فيها التوقيع على المعاهدة ، وكان من طلبات الملك فرناندو أن يعزل موسى بن أبى الغسان عن قيادة الجند ، واستجاب أبو عبد الله الصغير .

وكان الجيش القشتالى قد لقى العنت والإرهاق من هجمات موسى بن أبى الغسان المباغتة ، فى ليال لايتوقعونه فيها ، فيخرج إليهم فى كتيبته ، فينال منهم ثم يعود وتغلق البوابات ، ثم يفكر فى هجمة أخرى قريبة يظل يخطط ويرتب لها حتى تحدث .

وكان يحرص على نقل الجرحى من جنده إلى المدينة ، ويظل يزورهم فى بيوتهم حتى يشفوا ، أو يكون على رأس الجنازة إن رزق واحد منهم الشهادة ، ولايزال يتفقد أبناءهم وبناتهم ويسأل عن أحوالهم ، ويعطيهم من حر ماله ، أو يتوسط لدى الملك فيقدم لهم من المساعدة مالا يقدر عليه هو .

كان موسى أحب الناس إلى قلوب أهل غرناطة ، يعرفه الصغير والكبير ويوقرونه ويحسبون له كل حساب ، وكان هذا يثير حفيظة الملك أبى عبد الله الصغير وغيرته . ولم يكن يقدر على الاستغناء عنه عندما كان يرفع لواء قتال القشتاليين ، فموسى هو القائد المظفر ، وهو أدرى الناس بقتال الليل ، وقد أتقن تدريب جنده على هذا ، أما بعد معاهدة التسليم فلم تعد له فائدة ، بل قد يضر وجوده بالتأكيد ، فهو الوحيد الذى رفض المعاهدة ، وعندما سألوه عن البديل لها قال لهم : الموت الشريف والشهادة فى سبيل الله . وهذا على عكس مايريده الملك والوزراء والأعيان والكبراء .

وكان الملك فرناندو يعرف طبيعة موسى بن أبى الغسان ، وقد أرسل إليه رسلا كثيرة يغريه بالمال والثروة ، ثم عرض عليه ملك غرناطة ، وأن يساعده فى خلع أبى عبد الله الصغير ، ولكن الرجل أبى ورفض كل هذا،ولم يقبل حتى مناقشته . واستمر يذيق الجيش القشتالى الأهوال ، ويلحق به الخسائر طيلة العام الذى سبق توقيع المعاهدة .

كان يغادر بوابة القصر وأفكاره تعذّبه ، فهو قائد جيش لم ينهزم ، وفرض عليه التسليم وتحطيم السيف أمام القوة الباطشة ، لم يسمحوا له بشرف الجهاد مع جيش قادر عليه . وهانت عليهم بلادهم ، وضاع معنى الدين فى قلوبهم ، وهو فرد واحد لايملك إلا نفسه وسيفه ودرعه وحصانه . وفى الجانب الآخر من المدينة خارج الأسوار عند نهر « شنيل » تقف القوة النصرانية ويعلو معسكرهم صليب « شانت يعقوب » ، وماعجزوا عن أخذه بالسيف والقتال سوف يأخذونه مع الصباح ، ودفعوا فى سبيل هذا كلاماً قل أو كثر ، قالوه أو كتبوه ، وأعلنوا بعضه وأخفوا البعض الآخر ، قد انهزم المسلمون دون قتال ، وهم يحلمون بسراب كاذب وبعهد من الرخاء ، سوف يبدأ بعد تسليم غرناطة ، آخر معاقل المسلمين فى بلاد الأندلس .

لم يدر لماذا آثر السير على قدميه فى هذا الصقيع عبر طرقات المدينة ، وكأنما أراد أن يعاينها

وهى شريفة نظيفة لم يجللها عار الاستسلام ، أو أراد أن يتزود منها بنظرة وداع قبل صباح قادم بعد دورة ليل ليس للشرفاء فيه مكان .

ولم تكن لديه خطة واضحة أو فكرة مبينة غير عزم قاطع أنه لن يشهد التسليم .

هل يأخذ طريق « مالقا » فى هذا الليل حيث السفن تعبر به إلى بلاد المغرب ، ومن هناك يستنفر المسلمين ؟ لقد صارت « مالقا » وكل بلاد الإسلام فى الأندلس تحت يد النصارى ، وسراياهم تملأ الطريق ، وهم قد أكثروا من إرسال السفارات إلى كل بلاد المسلمين يستنجدون بإخوانهم بلا فائدة ، فالكل فى شغل شاغل بحربه مع إخوانه من جيرانه ، وليس فيهم من يفكر فى هذه الأرض السليبة ، التى كانت تتبدد مع قطرات الليل المتساقط عبر الكون ، مؤذنة بصباح مر عصيب .

لم يكن موسى يفكر إلى أين يذهب على وجه التحديد ، فقدماه تعرفان الطريق إلى منزله حق المعرفة ، ولكن هل هذه هى وجهته ؟ ربما فهو لايعرف .

كان نهر « حَدُّره » يخترق المدينة من الشرق ، عند سفح الهضبة التى يقبع بها قصر الحمراء ، ثم يتصل بنهر « شنيل » عند القنطرة التى بناها المسلمون الأوائل ، ومن ثم يخترق المدينة فى عظمة وجلال ، يتبددان فى ذهن موسى بن أبى الغسان الحزين المغرق فى الوحشة والكآبة .

ووقف فوق القنطرة ودقَّق النظر ، ليبصر جانباً من الأسوار التى تقع على مقربة ، ومن بين الظلام استطاع أن يبصر البرج القريب ، ولم يكن به أحد من الحرس ، فالبرد شديد ، ولاجدوى من حراسة مدينة سوف يسلمها أهلها إلى الأعداء عند طلوع النهار . وهز الرجل رأسه فى أسف ، وعاود السير قافلا ، ووجهته ربض « البيازين » حيث يقيم البواسل من المجاهدين .

صار موسى يضرب فى الليل من جنوب المدينة الغربى إلى ناحية الشمال حيث قرر أن يذهب ، والبرد يجمد الأطراف ، والوحشة تملأ النفس ، وصدم ببعض الكلاب الضالة التى تبحث

عن مأوى يؤويها ، وبعض المارة يلقونه فى الظلام مسرعين ، يحملون فى أيديهم قناديل تهديهم إلى وجهتهم التى يريدون . أما هو فقد كان يعرف المدينة ودروبها ومسالكها معرفة العارف الخبير ، فقد تولى شرف الدفاع عنها لسنوات مضت . وتجاوز قنطرة « الدباغين » مسرعا ، فالليل لايرحم ، وهو يأخذ طريقه إلى الأبد بلا عودة ، وكأن الرجل فى سباق معه ، ولو استطاع لأمسك بخناق الزمن ليمنع الليل من الذهاب . اجتاز موسى قنطرة « العادل » وقنطرة « الفرازين » ، مرة يسير على شرق النهر ، وأخرى على الناحية الغربية منه ، حسبما يعرفه من مخاوف الطريق أو سهولته ، وفى سرعة ليبعث الدفء فى نفسه ، صار يخترق الأزقة الضيقة ، وهو يختصر الطرق إلى ربض « البيازين » ، ومرَّ على جامع « التوابين » ، ثم سار بحذاء القصبة القديمة ، حتى صار فى قلب المكان الذى يريد ، فهاهو ذا جامع « البيازين » ، وهذه هى الساحة الكبرى ، وكان يقطع الصمت نباح يأتى من بعيد ، لكلاب لايراها أحد مهما دقق النظر .

كان يريد أن يجمع جنده من البيوت ، ويخرج بهم إلى الأسوار ويمنع تسليم المدينة فى الصباح ، وامتلأت نفسه حماسة وأملا ، وطرق باب الرئيس عبد الله الشيخ ، وكان من خيرة معاونيه ، ومن أحسن جند غرناطة المقاتلين .

وفتح الباب فى لهفة وسرعة ، ورأى الصبية والفتيات ، وفى أيديهم القناديل كأنما ينتظرون من يطرق عليهم . ثم علم أن الرئيس عبد الله قد خرج ليأتى بالطبيب لطفلة له مريضة قد اشتدت بها العلة .

كان الليل يوشك على الانتصاف ، وموسى بن أبى الغسان يضرب على غير هدى فى طرقات غرناطة ، وأخذته قدماه إلى طرق أخرى عائدا إلى الجنوب ، كأنها تتردد به فى الذهاب إلى منزله ، ومرَّ من غرب القصبة القديمة حيث ربض « المظفر » فدار « الحرة » فربض « باديس » ، ووجد نفسه أمام فندق « الجنويين » ، وحدثته نفسه أن يشرب شيئا ساخنا يساعده على التفكير ويعينه على قرار . وشجعته الأنغام التى تنبعث من الفندق حيث الأضواء ، وكأن أهله فى نهار .

واجتاز عتبة الفندق ، وزادت أصوات الموسيقى والغناء،ووقف موسى يستمع متأملا ، وكانت مجموعة من الجوارى الحسان يعزفن ويغنين ، بإرشاد من واحد قد وقف متصبباً عرقا فى هذا البرد ، وهو يشير إليهن بيده فيعدن من جديد إلى الغناء حسبما يريد . وكان يجلس هنريكو القشتالى صاحب فندق « الجنويين » يستمع سعيدا متحمسا ، يتمايل مع النغم . ولم ينتبه أحد إلى دخول موسى بن أبى الغسان الذى وقف يستمع إلى موشح ابن زهر الأندلسى ، وكأن فرقة تستعد لحفل يقام فى الصباح مع العيد .

أيها السّاقى إليك المُشتكَى قد دعوناك وإن لم تَسْمَع

وندِيم همت فى غُرَّتِهِ
وشربت الراح من رَاحَتِهِ
كلما استيقظ من سَكْرَتِهِ

جذب الزق إليه واتّكا وسقانى أرْبَعاً فى أرْبَع

مالعينى عَشِيَتْ بالنظر
أنكَرَتْ بعدك ضوء القمر
وإذا ماشئت فاسمع خبرى

شقيت عيناى من طول البكا وبكى بعضى على بعضى مَعِى

غصن بان مال من حيث استوى
بات من يهواه من فَرْطِ الجوى
خَفِقَ الأحشاء موهون القوى

كلما فكر فى البين بكى مالـه يبكى لما لم يَقَع

ليس لى صبر ولالى جلدٌ
يالقومى عَذَلُوا واجتهدوا
أنكروا دعواى مما أجدُ

مثل حالى حقه أن يشتكى كَمَدَ اليأسِ وذُلَّ الطمع

كبد حرَّى ودمعٌ يكفُ
يذرف الدمع ولايعترف
أيها المعرض عما أصف

قد نما حُبِّى إليك وزكا لاتَخَلْ فى الحب أنى مُدَّعِ

ووجد موسى نفسه مبهوتا متعجبا مع نهاية الغناء ، والتفت إلى هنريكو القشتالى غاضبا ثائرا :

– ماهذا ؟

وقام إليه هنريكو يرحب به ، ويصفق ويأمر له بشراب ساخن ، فكل من بالمدينة يعرف موسى بن أبى الغسان معرفة جيدة ، ويستوى فى هذا المسلمون وقلة النصارى الذين يعيشون فى أمن وسلام ، وقلة اليهود الذين منهم هنريكو صاحب الفندق .

وقال هنريكو لموسى شارحاً له الأمر دون أن يسأل :

– هناك من جاءنى ودفع لى ماأريد من الذهب ، لأستعد بفرقتى من المنشدين والمنشدات ، فيسمع غدا الملك فرناندو والدونا إيزابيلا هذه الموشحة لابن زهر ، فى بهو السفراء من قصر الحمراء حيث الاحتفال .

– متى يكون هذا ؟

واضطرب هنريكو وهو يرى الغضب فى وجه موسى وقال متلعثما :

- لايغضب سيدى لهذا ، فأنا لاذنب لى ، أنت تعرف أنه لم يؤخذ رأيى فى تسليم غرناطة ، ولم أحضر مناقشة البنود ، عملى لايتجاوز هذا الفندق .

- متى يقام هذا الاحتفال ؟

وفى قلق شديد قال هنريكو فى صوت خفيض :

- فى الغد ياسيدى القائد ، ظننتك مدعوا إليه .

وجاء الخادم بالشراب ، وقام هنريكو مضطرباً ، وتناول القدح ليقدمه بنفسه لموسى الذى أشاح بوجهه خارجاً ، وارتفع صوت المنشدين .

أيها الشاكى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

● ● ●

عاد موسى مرة ثانية إلى منزل الرئيس عبد الله الشيخ ، ومالإن اقترب من البيت حتى سمع أصوات العويل والنواح ، وسرعان ماعرف أن الصبية قد ماتت ، ولم يستطع الطبيب لها شيئا .

وبعد أن قدم العزاء للرئيس عبد الله الحزين قال له :

- كلنا سوف يموت ، ولكن ينبغى علينا أن نموت دفاعا عن غرناطة .

- ماالذى يقصده سيدى القائد ؟

- نجمع المجاهدين من حى « البيازين » ونخرج إلى محلة فرناندو فندهمها ، إما أن نردهم عن مدينتنا أو نموت شهداء .

وتأمله الرئيس عبد الله الشيخ قليلا ثم هز رأسه وأردف :

- قد فات أوان هذا أيها القائد .

- ليس للموت أوان ياعبد الله .

– أتكلم عن رد الأعداء وقتالهم فى محلة فرناندو .
– وهل لقتال الأعداء موعد ؟
– نعم .
وبدا الحزن على وجه موسى :
– ظننتك ترحب بهذا وتخرج إلى شباب الحى فتجمعهم ، ونخرج إلى القشتاليين كما كنا نفعل فى الأيام الخوالى .

وارتفعت من آخر الدار موجة من العويل والنواح ، فى ترجيع أخّاذٍ يبعث الشجن . وسكت موسى وعبد الله قليلا حتى ذهبت هذه الموجة ، ثم قال الرئيس عبد الله :
– معذرة أيها القائد موسى بن أبى الغسان لو تطاولت عليك فى الحديث .
– لاعليك من هذا ، ماالذى تريد قوله ؟
ونظر إليه عبد الله نظرة وانية عاتبة ، وقال له وقد ارتفع صوته قليلا :
– أين كنت يوم وقّعوا هذه المعاهدة اللعينة ؟ .
وقال موسى حزينا :
– كنت هناك حيث وقعوها ، وأنت تعرف موقفى ، لقد رفضت التوقيع وحذرت الجميع..
وارتفع صوت الرئيس عبد الله وهو يقول :
– وأين كنت بعد ذلك ؟
– لم أكن أصدق أن هذا يكون .
– أنت تطلب محالا أيها القائد موسى .
– لماذا ياصديقى ؟
– نريد وقتا لجمع المجاهدين ، ربما نأتى بواحد أو اثنين أو قل ثلاثة ، لن نأتى بأكثر من خمسة .
– وبعدها ؟

– وبعدها ؟ سوف يؤذن للفجر ، ومن ثم ينبلج الصبح .
– ويدخل النصارى غرناطة ؟
– هم يستعدون الآن لدخولها أيها القائد .
وصار موسى يهز رأسه كأنما يطرد منها شيئا :
– لاأظن أن شيئا من هذا يمكن أن يكون .
– وهناك شيء لاأدرى هل تعرفه أم لا ؟
والتفت إليه موسى بن أبى الغسان مستفسرا :
– وماهو ؟
– لقد أحكم رئيس الشرطة قبضته برجاله حول ربض « البيازين » ، وجمعوا من البيوت معظم مابها من سلاح .
وانقلب وجه موسى بن أبى الغسان :
– ومتى كان هذا ؟
– كأنك لم تسمع به ؟
– كلا .
– لقد بدءوا كبستهم على البيوت بعد صلاة الظهر بالأمس ، لم يعد هناك أمل .
وتمتم موسى فى صوت خافت كأنه يحدث نفسه :
– ربما يكون هناك أمل فى موت كريم .
ثم قام موسى يائسا ليخرج ، وقام الرئيس عبد الله ليشيعه لدى الباب ، ومن خلفهما ارتفعت موجات العويل والنواح على الصبية الصغيرة التى ماتت فى الليل .

● ● ●

خرج موسى من بيت الرئيس عبد الله يقطع الدروب فى سرعة ، وقد امتلأ صدره بالغضب والرغبة فى الثأر . وتمنى لو كان يقدر على البطش بفرناندو الخامس وكل رجال جيشه المحيط بغرناطة . وكان الليل على وشك الانتصاف وهو يأخذ طريقه إلى قصره الذى تحيط به البساتين التى يملكها . وكان الناس يطلقون على القصر والبساتين « جنة موسى » نسبة إلى صاحبها القائد موسى بن أبى الغسان .

بلغ البيت فوجد غلامه يقف فى ناحية من البوابة من داخل السور يحتمى بمكان من البرد ، وقد وضع مزيدا من الأغطية فوق البغلة ، ليحميها من لسعة الثلج المتساقط كعهن ضبابى منفوش ، وهو يرفعه عنها كل حين ، فهذه هى ليلة البرد والخوف .

● ● ●

كان موسى قد تجاوز الأربعين بسنوات ، ولكنه عريض الصدر مفتول العضلات ، وسيما كريما ، شجاعا أنفا ، سيدا فى قومه وعشيرته . يحبه الناس وتغرم به النسوة ، وتتعلق الفتيات بهواه ، وينظرن إليه خلسة من خلف النوافذ عندما يخرج على جواده وقد غطاه السلاح والحديد فى غزوة قريبة أو حملة سريعة على جيش العدو .

وكان عفاً يغض بصره عن النساء ولايفتن بهن،واكتفى بزوجته وأم أولاده،ولم يقرب غيرها جارية كانت أو حرة . وكانت نسوة النصارى يرسلن إليه رسلهن يتوددن إليه ويطلبن قربه ، فلا يجيبهن إلى هذا ، بل يلقى بالكتب فى نيران المدفأة إن كان الوقت شتاء ، أو فى نهر « شنيل » حيث مقامه الأثير فى الصيف ، ثم يغمز لزوجته بعينه فتضحك ، فهى تعرف ماذا فى الخطاب ، وربما تطلع على مافيه من كلمات الغزل والهيام فتتنهد وتقول :

– عشنا ورأينا رجلا تأتيه مكاتيب الحب والغرام .

وكان موسى يقيم الصلاة ، حريصا عليها فى الجماعة ، يقرأ القرآن كل ليلة ، ويختمه مرة كل شهر ، وله فى الأسبوع يوم يقضيه بين الكتب ، فلا يخرج فيه إلى أحد ، وعرف الناس عادته فلا يزوره أحد فى هذا اليوم ، وله يوم آخر يستقبل فيه الأصدقاء وأصحاب الحاجات ، الذين يريدون وساطته لدى الملك . ويوم ثالث يذهب فيه يزور أهله وأصحابه ومحبيه . وبقية الأيام يقضيها فى التدرب على استعمال السيف والرمح والفأس وسائر ماعنده من آلات الحرب والقتال .

ثم جاء حصار غرناطة فصارت أيامه كلها تدريباً وقتالاً وحراسة .

كان عنده من الأبناء « محمد » فى العاشرة من عمره ، و« الثريا » فى السابعة ، ثم « ودود » فى الرابعة ، وهى أحب الخلق إلى قلبه . وكانت أمها تغار من حب أبيها لها ، وتنظر إليه عاتبة عندما يعود من القتال مسرعا ليتحسس جبينها إن كانت نائمة بالليل ، أو يرفعها عاليا إن كانت تلعب بالنهار .

وكانت « ودود » تسأله دائما عندما يعود :

– لماذا تعود إلينا ملوث الدماء دائما . أنت ترهق الجوارى فى غسل الملابس .

فيضحك وتسرع أمها فتحملها عنه ، ليضمد جراحه ويستريح .

وقد جاءه أهل غرناطة يوما يسألونه أن يخلع الملك ، ويجلس هو على عرش الحمراء فهو أقدر على مقاومة فرناندو وجيوشه فأبى ورفض وقال :

– نحن أحوج مانكون إلى الوحدة والتآزر ، وليس من مصلحة المسلمين أن ينقسم الناس إلى فريقين .

فلو كان من الناس من هو الكامل لكان موسى بن أبى الغسان .

ومنذ وقعت معاهدة التسليم فى نوفمبر من العام الذى انصرم بالأمس ، وهو صامت لايتكلم ، يمكث الساعات الطوال فى غرفته وحيدا ، ولم يعد يلاعب « ودود » كما تعود وعوّدها ، بل

كان يطيل النظر إليها حزينا ولاينطق بكلمة واحدة ، وكانت زوجه تقدر ماهو فيه من محنة وألم ، فتحاول دائما أن تبعد الأبناء عن مكان أبيهم ، وسرعان ماأدركوا طبيعة الكارثة المقبلة فآثروا الصمت هم أيضا ، ولم يعودوا يلعبون ويضحجون كما كانوا من قبل ، بل هدءوا وسكنوا ، وخيم على القصر حزن عميق .

● ● ●

اجتاز الدرج والردهة المؤدية إلى البهو الكبير بقصره ، وكانت القناديل مضاءة ، وهم بصعود الدرج المؤدى إلى الغرف العليا حيث يقيم هو والأبناء ، ولكنه لمح زوجه تقف فى الناحية اليمنى صامتة ، وقد خلا وجهها من أى تعبير . ووقف موسى للحظة ينظر إليها صامتا ، ولم يلق عليها تحية على غير عادته ، ثم ارتعدت جفونه وهو يقول لها ، ثم يسرع صاعدا :

– ضعى على كتفيك شيئا ، فالبرد شديد هذه الليلة .

سار فى الممر المؤدى إلى غرف الأبناء ،ووقف قليلا أمام غرفة « محمد » ، وصار ينصت فلم يسمع شيئا ، ثم تحول إلى غرفة « الثريا » ووقف ببابها ، ثم أطال الوقوف بباب الغرفة التى تنام فيها « ودود » ، ثم عاود طريقه بسرعة نازلا ، فمر بزوجه وقال لها :

- أيقظى السائس ليعد حصانى ، وليضع عليه الحديد والدروع .

وأسرعت زوجه تنفذ ماأمرها به كالمخدرة ، بينما أسرع هو إلى غرفة السلاح ، ليضع على جسده الدروع وهو يتمتم :

– ليس أمام أحد عذر فى الموت الكريم .

لم يلحظ أحد أن محمداً والثريا وودود كانوا مستيقظين ، يقف كل منهم خلف الباب فى غرفته ينتظرون عودة الأب ، وعندما سمعوا وقع خطواته تبتعد فتح كل منهم الباب ، وأمسكوا بعضهم ببعض وهم يهبطون الدرج صامتين يبحثون عن أبيهم . ومن خلفهم جاءت الجوارى وجاء خدم البيت ، والكل يبكى فى نشيج مكتوم احتراما للصمت .

وقفت زوجه خلفه صامتة فى غرفة السلاح تلبى نداءه ، دون أن تنطق بكلمة واحدة
– الفأس .
فتسرع فتناوله .
– الطبرزين .
فتتحرك كالمسحورة فتأتى به من مكانه وتعطيه له . وفى لحظات كان الحديد يغطيه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وألقى نظرة خاطفة على زوجه ثم غادر الغرفة بطيئا فالحديد يقيد حركته ، وأسرعت تمسك بذراعه كأنما تعاونه فى حمل بعضه ، وكان كل منهما يفهم الآخر ويعرف ماينتويه دون أن يتبادلا الحديث .

وعند أول الدرج ، فوجىء موسى بأبنائه يقفون ينظرون إليه مشدوهين لاينطقون ، فوقف ينظر إليهم للحظة ، ثم تحول عنهم خارجا وصدره يغلى كالمرجل ، وأسرع إليه محمد :
– هل آتى معك ياأبى ؟
وتمتم موسى بصوت خافت :
– سوف تلحق بى يابنى يوما ولكن ليس الليلة .
ثم أسرعت إليه « الثريا » و « ودود » ، وهما تتحسسان الحديد حول ساقيه وساعديه ، وهو ينظر إليهما من خلف المغفر ، ولم ير أحد تعبير وجهه ، ولكنه لمح حزنا نبيلا صغيرا فى عينى « ودود » فأطال النظر إليها ، وأسرعت أمهما تسحبهما بعيدا عنه ، كأنما لتساعده فى اجتياز تلك القنطرة الممتدة بين الحياة والموت .

وعندما اقترب من باب الخروج حيث أعدَّ له جواده ، ارتفع نحيب الخدم والجوارى وصرخت زوجه :

– موسى .
وتوقف واستدار ، وأسرعت زوجه إليه وتوقف النحيب والكل ينظر فى جلال ، ورأى الدمع

ينساب من عينيها وهى تنظر إليه صامتة وتمتم لها عندما طال الصمت :

– تعرفين أن المدينة ستسلم للنصارى فى الصباح .

وخرج صوتها ضعيفا متحشرجا :

– نعم أعرف .

– وتعرفين ماينبغى علىَّ عمله ؟

– نعم أعرف .

ونظر ناحية أبنائه وقال لها :

– درِّبيهم على السلاح منذ الغد ، ولاتنقطعى عن هذا يوما واحدا ..

وصارت تهز رأسها طاعة له ودموعها كالسيل :

– سوف أفعل ياموسى ، سوف أفعل .

واستدار خارجا وحاول محمد والثريا وودود اللحاق به فمنعتهم أمهم ، وانطلق صوت ودود :

– أبى

ولم يرد عليها ولم يلتفت ، فقالت لأمها :

– لماذا لم يرد علىَّ ؟

وقالت لها أمها وقلبها يتمزق :

– لم يسمعك ياحبيبتى .

وصاروا ينظرون إليه والخدم يساعدونه على امتطاء الجواد ، ثم يختفى فى ظلمة الليل والبرد كزائر من عالم غريب قد آن أوان عودته إلى عالمه .

وارتفع عويل الخدم والعبيد ، فقد كانوا يعرفون أن سيد القصر قد خرج ولن يعود مرة أخرى إليه ، وأن هذا هو آخر عهدهم به .

● ● ●

اجتاز موسى بن أبي الغسان دروب غرناطة وطرقاتها وهو يذكر الله تعالى فى نفسه ، ولم يكن يسمع فى جوف الصمت غير حوافر الجواد الذى يسير مختالا براكبه فوق طرقات غرناطة ، التى عبدها المسلمون بالحجارة السوداء . واختار موسى طريقا مختصرا يذهب به إلى القنطرة فوق نهر « شنيل » حيث فرجة فى السور يستطيع الخروج منها إلى معسكر القشتاليين فهو الهدف الذى يريد .

وعندما وجد نفسه يسير بمحاذاة النهر ، أيقن أنه فى الطريق الصحيح ، ووجد لسانه يلهج بالذكر والحمد ، ويرتفع صوته قليلا بالتكبير والتهليل . وكان يسير مطمئن النفس هادىء القلب ، لايعرف القلق أو الخوف ، بل استراحت نفسه ، وهدأت خواطره عندما استقر قراره وعرف مايريد .

وبدت نيران طلائع جيش فرناندو تبدو من بعيد ، وتحسس موسى أسلحته التى وضعت بعناية فوق حصانه بحيث يستطيع الوصول إليها واحدا بعد الآخر ، وكان خبيرا بالقتال مشهودا له ، وكأنه وحصانه على تفاهم فيما يريدان ، فقد أسرعت حوافر الفرس عندما رأى النيران ، ثم صارت عدوا ، وماهى إلا لحظات أو تكاد حتى كان يسابق الريح ، رغم مايحمله وينوء به من حديد .

فجأ موسى هذه الطليعة التى امتطت الخيل على عجل لتواجه هذا المارد الذى انشق عنه ظلام الليل . وكان رمحه مشهرا فخلع قائدهم خلعاً من فوق جواده ، وذهب إلى غايته ، ثم عاد فخلع الآخر ، ودب الذعر فى قلوب الفرسان ، ولم يتبينوا من يقاتلون ، وانطلق النفير يدوى فى الليل ، وجاء فرسان قشتالة من كل حدب ينسلون على صوت النفير .

ولم يشعر موسى بسعادة وغبطة مثل ماشعر به فى هذه اللحظات ، فالفرسان يتساقطون من حوله ، وهو لمّا يستخدم شيئا غير رمح ينبعث من سنانه الرعب والموت كشهاب الليل. لم يشعر بالتعب ، بل كان يؤدى دوره فى سلاسة وتناسق كأنه يقوم بالتدريب على دمى قد أعدت لهذا الغرض .

كان يحصى من قتلهم فلما تجاوز العدد عشرة انتابته نوبة من السرور العارم فلم يعد يهتم بالعدد بعد ذلك ، وشعر أنه يكبد العدو ثمنا غاليا له ، ومن يدرى لعله يستطيع أن ينفذ إلى محلة الملك فرناندو ، فيحيى بقتله ما مات فى وجدان المسلمين . ولكن الفرسان يتكاثرون عليه من كل ناحية ، وجسده كله مغطى بالدروع ، فليست هناك وسيلة للوصول إليه ، وانكسر الرمح ، وجاء دور الفأس والطبرزين فالسيف ، والفرسان يتساقطون من حوله ، وغيرهم يأتى حتى صار المكان كأنه ساحة لقتال حقيقى ، وليس فارسا واحدا يواجه كل هؤلاء الفرسان مجتمعين . وبدأ التعب يسرى فى حصانه الذى أدى أكثر من واجبه ، وانتبه موسى فوجد حصانه يتراجع أمام هجمة القشتاليين الشرسة ، فقد استيقظ المعسكر كله ، ولم يعلم أحد عند محلة الملك بحقيقة مايحدث . وسرت شائعة أن المسلمين قادمون . حاول موسى بن أبى الغسان أن يعفى جواده من هذا العناء الذى لم يعرفه من قبل ، وأراد الترجل ، فهو أقدر على القتال وحده فى هذه اللحظة ، وقذف بنفسه من فوق الحصان ، ولم ينتبه أن قوائمه الخلفية قد غاصتا فى الوحل الذى انتشر على حافة نهر « شنيل » . ورأى لمعة الماء قبل أن يغوص فيه . ورأى السماء تنشق والملائكة يمدون إليه أيديهم ويبتسمون له . وسمع التراتيل العذاب تأتيه من كل ناحية ، ثم جذبته الدروع الثقيلة إلى القاع ، أما روحه فقد تلقفتها الملائكة فى عليين ، وماأدراك ماعليون ، كتاب مرقوم .

● ● ●

جاء الكونت فرناندو دى ثافرا أمين الملك فى حرسه ليستجلى الأمر ، ووجد الجند يجمعون الجرحى ويحصون القتلى ، وتعجب الرجل عندما علم أن كل هذا من فعل فارس واحد ، وترجل من فوق حصانه والحرس حوله ، وقادوا إليه جواد موسى بن أبى الغسان ففحصه ورأى شارته ، وهز رأسه فى توقير واحترام ، وسأله واحد :

– هل تعرف صاحبه ياسيدى الكونت ؟

وهز الكونت رأسه موافقا وهو يمد يده بجلال على رأس الجواد الذى يسيل منه العرق :

– نعم . أعرفه . إنه موسى بن أبى الغسان آخر فرسان غرناطة .

معسكر الملك فرناندو ليلة تسليم غرناطـة الإسلاميـــة

كانت « سانتا فى » أو الإيمان الخالص مدينة صغيرة أقامتها إيزابيلا على بعد تسعة كيلو مترات من غرناطة ، تمهيدا للغزو الأكبر .

مدينة بكل ماتحمل كلمة المدينة من معنى ، فيها الأزقة والدروب والحوانيت ، وأماكن اللهو ، وبيوت للسكنى قد أقامها الجند القشتاليون ، وتزوجوا بها أو أتوا بزوجاتهم من بلادهم فى العمق الإسلامى الذى سلب وفرض عليه التنصير .

وكان بالمدينة مستشفى لعلاج المرضى والجرحى فى الحروب المستمرة بين النصارى والمسلمين .

وكانت هناك مدرسة لتعليم الأطفال ، وكنيسة للقداس فى أيام الآحاد وفى الأعياد ، قد اجتمع بها عدد غير يسير من القسس والأحبار ، فكان لابد من كنيسة ثانية ثم ثالثة ، ثم صارت واحدة فى كل حى من أحياء المدينة التى أعدت لتكون نقطة انطلاق فى القضاء على ملك المسلمين .

● ● ●

انتهى الملك من عشائه فى قصره الصغير الذى أعد له كدار إقامة فى مدينة « سانتا فى » ، وكان يتناول طعامه وحده،ويساعده فى هذا خادمه الخاص « خوان » وكانت إيزابيلا تقيم فى قصر آخر مستقل ، وكان زواجها به زواجا سياسيا - كما عرفنا - الغرض منه القضاء على

الحروب والمنازعات التى كانت تدور بين أراجون وقشتالة ، وكان فرناندو يمقتها فى أعماقه ولايستطيع أن يظهر هذا ، وسبب مقته أنها تنازعه المجد العظيم وتقاسمه إياه ، وهو طرد المسلمين من بلادهم ، وكم تمنى لو كان وحده الذى يطرد المسلمين . وكانت أمنية صعبة فهى ملكة قشتالة حيث القوة والعدد والأسلحة الكثيرة والتاريخ الطويل فى حرب المسلمين . وكانت إيزابيلا أقرب إلى نفوس شعبها وقلوب جندها منه .

وكان الأحبار والرهبان الذين يحكمون كل شىء من خلف الكواليس يفضلونها لسهولة التأثير عليها ووضوحها معهم ، على العكس من فرناندو الذى يكذب ولايلتزم بوعد أو عهد . وكان بيدرو دى مندوسا – مطران إسبانيا – الأعظم يقول لمن يثق فيهم من صحبته وأتباعه :

– هذه ميزة فى فرناندو وليست عيبا ، وسوف تبدو هذه الميزة فى التعامل مع المسلمين بعد سقوط غرناطة .

وبعد أن رفع الخادم « خوان » بقايا الطعام من مائدة الملك وقف ينتظر ما يأمر به . وقام الملك إلى صالون صغير ملحق بقاعة الطعام وقال :

– ادع لى الكونت دى ثافرا .

وأسرع الخادم « خوان » ينفذ ماطلبه الملك .

وجاء الكونت دى ثافرا على عجل ، فقد كان له مكتب ملحق ومتصل بمكان الملك أينما حل . ووقف ينظر إلى الملك فرناندو فى شىء من الدهشة :

– لاتبدو الفرحة على وجه مولاى .

والتفت إليه فرناندو مبتسما .

– الفرحة ! ماهذاالذى تقوله يادى ثافرا ؟ السرور يعربد فى قلبى كطفل ضاع فى زحمة العيد ثم أعادوه إلى أبويه ، ولكنه سرور ممتزج بالقلق والتوتر .

– لماذا يامولاى ؟
– أريد أن يمر الغد بسلام وهدوء ولا يحدث مايكدر الصفو .
– اطمئن يامولاى ، لقد أعددنا العدة لكل شىء . قد انتهى أمر المسلمين فى بلاد الأندلس . لقد شاءت العناية الإلهية أن تقطف أنت ثمار مازرعه أسلافك العظام .
ولم يعجب هذا الحديث فرناندو فقال :
– أسلافى العظام ؟ كل الذين جاءوا قبلى لم تكن لهم عزيمتى وبأسى .
– هذا صحيح يامولاى .
– لو كنت أتيت قبل هذا لكانت النتيجة واحدة يادى ثافرا ، ماالفرق ؟ ماالذى تغير ؟ لو كنت مكان رودريك لهزمت طارق بن زياد فى وادى لكة . لو كنت مكان ألفونسو السادس مالنهزمت أمام يوسف بن تاشفين فى الزلاقة ، لقد جئت متأخرا عن عصرى ياكونت دى ثافرا .

وأخفى الكونت دى ثافرا اشمئزازه من لهجة الملك المتعاظمة ، ولكنه التمس له فى نفسه بعض العذر ، فهم يمرون بأيام تفقد الإنسان ما يشعر به من التوازن والاعتدال . وهم يقضون على ملك للمسلمين وحضارة لهم استمرت ثمانمائة عام . فإن فقد المرء توازنه فى مثل هذه الظروف فلا بأس عليه ، وهو أمر يتناسب مع طبيعة الناس .
وابتسم الكونت دى ثافرا وقال للملك :
– هذا صحيح يامولاى ، لو كنت من قبل لما كان المسلمون فى هذه البلاد .
وانتفخت أوداج الملك وقال :
– هل أعددت للاجتماع ؟
– الكل فى انتظار مولاى فى القاعة الكبرى .
– هيا بنا إذن .
وتحرك الملك لحضور الاجتماع النهائى لبحث إجراءات التسليم ، ومن خلفه سار الكونت فرناندو دى ثافرا .

● ● ●

كان الاجتماع كأنه حفل صغير ، أو ترتيب لمهرجان عظيم سوف يقام فى الغد فى أركان المدينة المسلوبة غرناطة .

جلس الملك فرناندو والملكة إيزابيلا فى مكانهما على كرسيهما الكبيرين فى صدر القاعة ، ومن حولهما بعض الوزراء وكبار النبلاء ، وكذلك كان الكاردينال بيدرو دى مندوسا مطران إسبانيا الأعظم فى جلسته المتعاظمة المليئة بالعجب والخيلاء . وجلس الأستاذ الأعظم جوتيرى دى كانياس رئيس جمعية « شانت ياقب » الدينية ، وهى جماعة شديدة التعصب تاريخية التكوين فى إسبانيا النصرانية ، وهى تقف وراء الأحداث فى إذكاء نار العداوة ضد المسلمين .

وكان يجلس الدون دييجو دى مندوسا ذلك النبيل القشتالى الذى وعد بتعيينه محافظا لغرناطة ، فهو يجلس سعيدا بملابسه المخملية الزاهية الألوان فى شىء من القلق ، لأن المرسوم لم يصدر بعد ، ولكن هناك من همس فى أذنه أن المرسوم قد وقع بالفعل ، لهذا كانت عيناه على الكونت فرناندو دى ثافرا أمين سر الملك الذى يقف على مقربة منه ، ومن خلفه يقف أحد النبلاء الصغار من مساعدى الكونت يحمل « إضبارة » كبيرة مليئة بالأوراق والمستندات .

وتكلم الملك فرناندو فهنأ الجميع بهذه المناسبة السعيدة ، وقال إن كل واحد من المجتمعين سوف يسطر اسمه فى كتاب التاريخ بحروف كبيرة بارزة ، فعلى أيديهم وفى حضورهم تم القضاء على ملك المسلمين . وفى تثاقل وعظمة رفع مطران إسبانيا الأعظم الكاردينال بيدرو دى مندوسا يده يريد الكلام ، وأشار له الملك فرناندو بالإذن فقال الكاردينال :

– أرى الكونت دى ثافرا ومعه الأضابير والمستندات ، فهل لنا ياصاحب الجلالة أن نعرف شيئا عن المراسيم التى صدرت .

وحكَّ الملك أرنبة أنفه يحاول إخفاء استيائه من لهجة الكاردينال ، ولكنه سرعان ماابتسم وهو يقول :

- لهذا اجتمعنا ياصاحب القداسة

وأشار الملك إلى دى ثافرا الذى تناول ورقة من مساعده ثم قدمها للملك ، ونظر الملك فيها ثم قال :

- هذا مرسوم بتعيين الدون دييجو دى مندوسا محافظا على كل مدينة غرناطة ومايجاورها من قرى وبلاد .

وبدت علامات الرضا والاستحسان على وجه الدون دييجو ، وكذلك الكاردينال بيدرو دى مندوسا ، فقد كان الدون دييجو من ذوى قرابته ، ووجدها بداية طيبة للمراسيم وقال :

- يقصد مولاى بهذا المرسوم أن يقوم بكافة الأعمال التى كان يقوم بها الملك أبو عبد الله الصغير .

وقال الملك فرناندو :

- هذا صحيح ، محافظ للمدينة وله كافة الصلاحيات ، وكل شىء مبين بالمرسوم ، وسوف يتلقى نسخة منه ، تهنئتى لك يادون دييجو .

وقام الدون دييجو وركع أمام الملكين الكاثوليكيين ، وقبل يد الملك فرناندو ، وطرف ثوب الملكة إيزابيلا ، ثم عاد إلى مكانه . وكان الكونت دى ثافرا يرقب المجتمعين قلقا ، يريد لهذا الاجتماع أن ينتهى فهى ليلة لن ينام فيها ، وعليه أن يقطع الطريق فى هذا البرد إلى غرناطة فهناك ماينبغى عمله ، وعليه العودة ثانية ، ثم يكون مع الذاهبين فى الصباح لتسلم المدينة . ليلة شاقة مضنية ، صار يبتهل من أعماقه أن تنتهى على خير ، فهو اجتماع لاضرورة له من وجهة نظره ، فالمدينة سوف تسلم فى الصباح ، وقد أعلموا أعوانهم بكافة مايريدون من تفاصيل وإجراءات ، حتى الثياب التى ينبغى على الملك أبى عبد الله الصغير أن يلبسها قد كتبوا قائمة بها ، واختاروها من خزانته ، فهم على علم بكافة التفاصيل ، ولديهم معلومات كافية عن غرناطة .

وصار ينظر فى غيظ إلى الكاردينال بيدرو دى مندوسا وهو يناقش أشياء قد تقررت من

قبل وصدرت بها المراسيم ووقعت من الملك وولده الأمير والملكة إيزابيلا وصارت لها قوة القانون ، ولايجوز الرجوع فيها رغم عدم أهمية ذلك .

واستفاق الكونت دى ثافرا على صوت الكاردينال الغاضب :

– ظننت أننى الذى أتسلم المدينة من المسلمين .

وقال الملك فرناندو فى هدوء :

– لقد صدر المرسوم الملكى أن يقوم الأستاذ الأعظم جوتيرى دى كانياس بتسلم المدينة مع الدون دييجو دى مندوسا .

وأشار إلى الكونت دى ثافرا الذى أسرع بمناولته المرسوم .

وقال الكاردينال بيدرو دى مندوسا محتجا :

– وأنا ياصاحب الجلالة .

وقال الملك فرناندو وهو يخفى استياءه :

– ستكون معى ونحن نتسلم شارات الحكم من أبى عبد الله الصغير . سوف يمر علينا عند نقطة قد حددت على نهر « شنيل » ويسلم لنا كل شىء ثم يذهب إلى منفاه فى قرية « أندرش » .

وارتاح الكاردينال قليلا عندما علم أن مكانه بجوار الملك ، ولكنه غمغم قائلا :

– كنت أود أن أكون أول من يدخل غرناطة .

ثم رمى جوتيرى دى كانياس بنظرة حاقدة حاسدة ، وبادله إياها فى احتقار وازدراء ، بين قلق الملكة « إيزابيلا » التى كانت حريصة دائما على وحدة الصف بين أحبار النصارى .

وقال الملك فرناندو فى حزم حسما للخلاف :

– قد انتهينا من هذه النقطة ، وصدرت المرسومات المنصة لهذا .

وقال بيدرو دى مندوسا فى استياء حذر :

- إن كان صاحب الجلالة قد أعد المراسيم الخاصة بهذه الأشياء فعلام جمعنا إذن .

وفى ابتسامة حازمة قال الملك :

- قد جمعتكم لأعلمكم بالقوانين والمراسيم التى صدرت ، ونحتفل نحن أيضا احتفالا صغيرا بهذه المناسبة ، تمهيدا للاحتفال الكبير فى الغد .

وقالت الملكة إيزابيلا :

- وددت لو اتحد رجال الدين جميعا وصاروا على قلب رجل واحد ، نحن نلتمس منكم البركة والخير فلماذا التناحر والتباغض فى ليلة مثل هذه قل أن يجود الزمان بمثلها .

وابتسم جوتيرى للملكة مشجعا ، بينما اصفر وجه الكاردينال بيدرو دى مندوسا وقال :

- لا أفهم قصد مولاتى صاحبة الجلالة على وجه التحديد .

فابتسمت إيزابيلا بود وقالت :

- فلنوفر هذه العداوة والبغض لاستئصال شأفة المسلمين .

وقال الكاردينال بيدرو دى مندوسا :

- هناك سؤال يلح على خاطرى وأريد أن أطرحه أمام صاحبى الجلالة .

- ماهو ؟

واعتدل الكاردينال دى مندوسا وقال :

- هل تنوى الدولة الوفاء بتعهداتها تجاه المسلمين ؟

وتبادل الجميع نظرات مختلفة الدلالة هنا وهناك،وقال الملك :

- ماذا تعنى ياصاحب القداسة ؟

- ماأعنيه واضح أيها الملك .

وقال الأستاذ الأعظم جوتيرى دى كانياس رئيس جمعية « شانت ياقب » مؤيدا زميله على العداوة التى بينهما :

– مايعنيه صاحب القداسة سؤال يلح علينا جميعا ، وأنا أشاركه التساؤل : هل نترك مسلمى غرناطة على إسلامهم كما تقضى المعاهدة ؟

وقالت الملكة إيزابيلا :

– لابد من تنصيرهم بالتأكيد .

وأردف الملك فرناندو :

– التحلل من بنود المعاهدة يحتاج إلى وقت . نحن لم نتسلم المدينة بعد .

وقال الكاردينال بيدرو دى مندوسا :

– أنا أتكلم عن نوايا الدولة ياصاحب الجلالة .

وضحك الملك فرناندو كثيرا بين دهشة المجتمعين .

وقال الكاردينال دى مندوسا :

– ترى ماالذى سرَّ خاطر صاحب الجلالة ؟

فقال فرناندو الخامس :

– أنت تسأل عن نوايا الدولة ، وأنا أخبرك بنوايا الدولة .

واشرأبت العيون إلى الملك الذى تجهم وجهه فجأة وهو يتكلم :

– إن بيننا وبين المسلمين ثأرا لايشفى منه قتلهم جميعا .

واعترض دى كانياس رئيس جمعية « شانت ياقب » الدينية :

– نحن نريد تنصيرهم ياصاحب الجلالة ، ولو استدعى الأمر إجبارهم على ذلك أو تخييرهم بين الصليب والقتل .

وقال الملك منفجرا كالبركان :

– وأنا لاأريد تنصيرهم فذلك يحميهم من القتل ، لو سألتم عن نوايا الدولة فإنى أجيبكم ، نوايا الدولة هى إبادة المسلمين فى الأندلس.والذى يتنصر سوف يفلت من القتل . أريد جيشا كبيرا قويا أغزو به بلاد المسلمين . أريد أن أصل بفرسان الصليب إلى مكة فأهدم الكعبة وإلى المدينة فأسوى قبر نبيهم بالتراب،وتنتهى هذه الأسطورة التى استمرت مئات السنين . هذه هى نوايا الدولة . ولكنى لاأستطيع . مقيد مجبور على الصبر والانتظار . لابد من احترام المعاهدة إلى حين . الأمر مع المسلمين يحتاج إلى إعمال الفكر والتدبير المحكم . سوف يكونون من رعايا التاج من الغد . وسوف تعلمون حقيقة فرناندو الخامس التقى الشديد الورع المؤمن بالمسيح من قمة رأسه إلى أخمص قدميه .

وخيم على القاعة صمت بليغ .

● ● ●

انتهى الاجتماع بعد استعراض التدابير التى تتخذ فى الغد ، وبعد قراءة المراسيم الخاصة بتنظيم الوضع فى غرناطة ، واطمأن الجميع إلى سياسة الدولة الرامية إلى استئصال شأفة المسلمين ، وأن المعاهدة والحفاظ عليها ليس غير مسألة وقت فقط ، وأنهم سوف يتحللون من بنودها بندا بعد آخر حسبما تسمح به الظروف ، وأن العاقبة فى النهاية هى تنصير المسلمين من وجهة نظر رجال الدين ، وقتلهم من وجهة نظر الملك وحسب رغبة الدولة .

زود الملك أمين سره بتعليماته قبل أن يغادر « سانتا فى » إلى غرناطة ، وألقى أوامره إلى الجميع فى هذه الليلة – المباركة فى رأيهم – بعدم النوم ، وماكان لأحد أن ينام فيها ، فقيامها أمر بدهى لايحتاج إلى تعليمات . واستعد الملك للخروج إلى المحلة التى أعدت له على مقربة من غرناطة عند نهر « شنيل » .

وكانت للملكة « إيزابيلا » محلة أخرى على مقربة من محلة الملك ، والكل يتحرك صوب غرناطة فى الليل ، يستعجلون الصباح فى لهفة وشوق . وأعلن الكاردينال دى مندوسا ضرورة القيام بصلاة الشكر طول الليل . وتحريم النوم على كل مسيحى مخلص .

وجمع جوتيرى دى كانياس أتباعه وخلصاءه من أعضاء جمعية « شانت ياقب » للترنيم حتى تأتى اللحظة المناسبة مع الصبح فيتم تسلم المدينة .

وكانت فرق الجند المكلفة بتسلم غرناطة فى حالة فرحة وسرور فهم ينظفون أسلحتهم ، ويزيلون عنها مايكون قد لحقها من صدأ .

وبات النصارى تلك الليلة كأنهم فى عيد لن يتكرر فهم ينشدون ويصلون ، ويمرحون ويشربون ، ويستعجلون الصباح .

وكانت الأوامر برفع درجة الاستعداد إلى منتهاها ، فقد كان بعض النبلاء القدامى ممن خبروا الحرب مع المسلمين فى السنين الماضية يشككون فى قصة التسليم هذه ، وأشاعوا أنها خدعة من المسلمين لمهاجمة معسكر النصارى ، وأن من يفهم نفسية المسلم يجده يفضل القتل والشهادة على الاستسلام لعدو على غير دينه .

وكادت تحدث فتنة بين الجند القشتاليين حتى جمع الملك فرناندو هؤلاء النبلاء ونهرهم ووبخهم ، وناقشوه وجادلوه كثيرا ، وقالوا إنهم خبراء بالشئون الإسلامية ، ويعرفون نفسية المسلمين جيدا .

وقال لهم الملك فرناندو الخامس :

– أنتم تتكلمون عن مسلمين لم يعد لهم وجود . من ندخل الباب عليهم غدا أمرهم يختلف عمن تتكلمون عنهم .

وعاد الهدوء والنظام إلى صفوف الجيش ولكن بكثير من اليقظة والحذر والدرجة القصوى من الانتباه .

● ● ●

انتهى الملك فرناندو الخامس من اختيار الملابس التى سيرتديها من الغد عند دخول غرناطة ، واختار الأخرى التى سيلقى فيها أبا عبد الله الصغير وهو يتسلم منه مفاتيح المدينة ، وكان يغير رأيه كل لحظة ، ويأمر فيأتون له بطاقم قد أمر برجوعه ، فوقف أمامه جيش من الخدم يحملون الملابس ويعرضونها عليه ، وهو يستبعد هذا ويختار ذاك،ثم يعود فيغير رأيه حتى انتهى إلى ذلك الثوب التاريخى الذى دخل به المدينة والذى لايزال محفوظا فى المتاحف .

أما أبو عبد الله الصغير فقد اختاروا هم له مايجب عليه أن يرتديه . وأما إيزابيلا فقد كادت تسقط إعياء من كثرة ترددها فى اختيار مايناسب الصبح ، وحملت إليها الوصيفات صناديق الجواهر الثمينة مختلفا ألوانها ، من الزبرجد والعقيق والماس والمرجان واللؤلؤ .

وباتت « سانتا فى » كلها فى غمرة من الأضواء التى ملأت البيوت والشوارع،وتعالت الهتافات للملك الذى خرج فى منتصف الليل يريد محلته حيث يتسلم المدينة من المسلمين .

وبعد لحظات كان الكونت دى ثافرا يقطع الليل بجواده ليصل إلى غرناطة .



ليلة رئيس الشرطة
بغرناطة الإسلامية

كان يجلس فى الصف الأخير من القاعة ، وعيناه كالصقر المدرب تدوران فى المكان ، ثم تستقران بالنظر على الوجوه واحدا بعد الآخر ليعلم ماخفى عنه فيها ، ونظرته الساحرة الماكرة تمسح المكان جيئة وذهابا ، ليرى أثر الكلمات على وجوه الناس ، فهذا سوف يفيد عندما يخلو لنفسه ويكتب التقارير . وكان يبحث أيضا بين الوجوه المجتمعة فى بهو قمارش عن رجاله وكيف يتوزعون بين الصفوف ، وهل يؤدون عملهم على الوجه الأكمل أم يعبثون ، ولم يكن لهم من عمل غير مراقبة الناس التصنت على مايقولون .

كان فتوح الوادى آشى من شر الخلق وأكرههم على الخلق ، وكانت به وسامة ، وله ابتسامة باهتة قد رسمت على شفتيه الوقت كله فكأنما قد خلق بها أو ولدت معه ، وكانت تزيده غموضا ، فلا يفهم الناظر إليه فيم يفكر ، أو ماذا يريد أن يقول ، ولايفهم محدثه انطباعه عن الحديث أو رأيه فيه ، فهو رجل كريه غامض يبغضه الناس جميعا ، ويهربون من طريقه عندما يبصرونه فى درب مقبلا أو مدبرا ، فهو لايظهر إلا لشر أو أذى ، ولم يكن يعرف فى هذه الحياة غير عمله الذى يقوم به ، ويأتيه فى بساطة وبلادة ولا يهمه فى خدمة من يكون . فليتغير الرئيس أو الملك ، ولكنه لايتغير ، بل يظل على الدرجة نفسها من الحماسة والوضاعة والردىء من الأعمال .

كان غاية مايتقنه – كما قلنا – هو مراقبة الناس وملاحقتهم هو ورجاله ، وكان عليه أن يعرف فيم يتكلم الناس كل ليلة وفيم يفكرون . وهو ينشر رجاله فى كل ربض من أرباض غرناطة وقراها ، فيرفعون إليه التقارير ، ويعكف هو بعد ذلك على قراءتها ومذاكرتها ، ليحسن الجواب

إن سأله الملك أو كبير الوزراء . وكان يعن له أحيانا أن يرى بنفسه بعض هؤلاء المساكين الذين ترفع عنهم التقارير ، وكان يتمتع بخوفهم وذلهم عندما يمثلون أمامه .

ولم يكن يقدم للملك أو كبير الوزراء من المعلومات إلا مايتفق مع خططه وطموحه ، فهو يعكس لهم صورة يريدها هو ، وهى تختلف بالتأكيد عن واقع الناس وظروفهم وحياتهم ، وهى صورة ليس للواقع والحق فيها نصيب ، من بعيد أو قريب ، فهو لم يكن أمينا بأى حال مع الملك ومع الناس ، فالملك يتغير حسب التجارب التى مرت به ، والوزراء يذهبون ويروحون ، فعليه أن يقدم المعلومات بقدر ، فكل جديد يأتى يريد منه الجديد ، وإلا فلا معنى لوجوده وبقائه فى منصب خطير مخيف ، يخشاه الجميع ويعملون له كل حساب .

ذلك هو صاحب الشرطة فى مدينة غرناطة التى تفض بكارتها مع الصبح القادم .

● ● ●

خرج من الاجتماع الذى عقده الملك بقصر الحمراء مسرعا إلى داره ليجتمع بمساعديه ، وكانوا جميعهم فى مثل شره وعلى شاكلته ، فهو يختارهم بعناية ويجربهم ويدربهم ، ويعلمهم كيف يشون بإخوانهم وذوى قرابتهم ، ومن ثم يظفرون عنده بالمكانة ورفيع الدرجات .

ولم تكن قصة التسليم هذه تعنيه فى قليل أو كثير ، ويستوى عنده أن يكون الملك نصرانيا أو مسلما ، وكان كل مايعنيه هو مكانه من التغيير الجديد . وبينا الناس فى شغل شاغل وهم مقيم ، إذ هو يفكر بمدى مايمكن أن يحصل عليه من القشتاليين القادمين .

دار فتوح بعينيه فى المجتمعين ، وعلى فمه ابتسامته التى لاتفارقه ، وهم يرتعدون فرقا منه ، فهم يكرهونه ولكنهم لايستطيعون عصيانه ، وينفذون إرادته ويتمنون موته فى الوقت نفسه وسألهم :

– ماذا فعلتم ؟

وقام واحد منهم وفى يده الأوراق يعرضها ، ورائحة البخور والعنبر تملآن المكان ، والدفء يشع من مدفأة قد عبئت بالفحم والخشب ، وصار يقرأ مافيها ، بينما أسرع إليه أحد الخدم بالشراب ، وكان خمرا معتقا يخفيه فى قبو داره التى لايستطيع أحد أن يقترب منها .

ولم يكن يقيم الصلاة أو يعبأ بأحكام الدين ، وكان يسخر ن العلماء والفقهاء ويحاول أن يوقع بينهم وبين الحكومة كلما استطاع أن يصنع فرصة لهذا ، وكان لايدخل المسجد مختارا أبدا ، وإن اضطر إلى ذلك ، فهو يصلى الجمعة مع الملك بلا وضوء . وكانت له صلة بالنصارى لايعرفها إلا قلة من مساعديه المختارين ، وكان يحرص على رضاهم فهم من حكام المستقبل ، وكان يقول هذا لبعض من يثق بهم منذ سنين ، وجاء الوقت الذى يثبت فيه حكمته وبعد نظره لمن قال لهم هذا من قبل ، فهو أسعد الناس بتسليم غرناطة مع الصبح .

انتهى فتوح من تصفح الأوراق ثم التفت إلى مساعديه عابسا مؤنبا وابتسامته هى هى لم تتغير ، ولو أنه لامكان لها فى هذه المناسبة :

– ماهذا العبث ؟

واضطرب جمع المساعدين وقال من قدم له الأوراق :

– لقد نفذنا كل ماأمرت به ، جمعنا السلاح من كل المشتبه فيهم ، وضعنا فى الحبس من يظن أنهم يقومون بشغب أثناء تشريف جلالة الملك فرناندو إلى غرناطة ، وجار مراقبة من هو مبين بالقوائم . كل شىء على مايرام ونحب ياسيدى ، وكل من معنا لم يذق طعم النوم منذ أيام ، وهم منتشرون فى كل مكان حول أماكن الخطر يتبادلون الرقابة ، وفى أقصى حالات الانتباه .

– لم يفلح تعليمى لكم .

– نحن نتعلم من سيدنا كل يوم .

وأطاح فتوح بالأوراق فى يده وهو يرغى ويزبد :

– ليس بين المعتقلين موسى بن أبى الغسان .

وكان المساعدون قد أسرعوا بجمع الأوراق التى تناثرت هنا وهناك ، ولكنهم تجمدوا من الدهشة عندما سمعوه يقول هذه العبارة . وأسرع أقدمهم إليه مستفسرا متأكدا :

– هل قال سيدنا موسى بن أبى الغسان ؟

وفى لهجة واثقة حادة باردة كنصل سكين قال فتوح :

– نعم .

وتلفت المساعدون إلى بعضهم وهم لايكادون يصدقون وقال قائلهم :

– هذا ياسيدنا الذى حمى المدينة طوال السنين المنصرمة .

– قد تغير الزمن أيها الولد وعليك أن تعى درس التاريخ .

– وسيدنا لم يأمرنا بالقبض عليه .

– قد قلت المشتبه فيهم ، وموسى بن أبى الغسان هو أول المشتبه فيهم . نحن ننتظر حاكما جديدا سوف يأتى مع الصبح ، ويجب أن نكون عند حسن ظنه . أو نفقد جميعا وظائفنا ، ولا أظنكم تحبون هذا .

وتململ مساعده وبدت فى وجهه علامات الحيرة فنظر إليه فتوح نظرة باردة وقال :

– ماذا بك ؟

– لاشىء ياسيدنا ، ولكن القبض على موسى بن أبى الغسان يحتاج إلى فرقة كاملة من الجند المدججين بالسلاح .

– اجمع كل رجالك واذهب إلى بيته واقبض عليه وضعه فى السجن .

– جمع رجالى يحتاج إلى ساعات فهم منتشرون فى أماكن كثيرة من المدينة .

وسار فتوح الوادى آشى فى الغرفة مفكرا ، ورجاله من حوله فى صمت كامل ورهبة شديدة ، وعيونهم عليه فى تجواله ذهابا وإيابا . وتوقف فشخصوا إليه فقال :

- فلتجمعهم فى ساعات كما تشاء . المهم أن يأتى الصبح وهو فى الحبس .

واضطرب الجميع نشاطا وقال قائلهم :

- أمرك ياسيدنا،سيكون كل شىء كما تحب وتهوى .

وتسللوا لواذاً من حوله خارجين وقد كست وجوههم غبرة وذلة فى حماس مهين غريب . وغابوا فى الباب وفتوح يرقبهم بابتسامته التى لاتفارقه ، ومد يده إلى منضدة قريبة وأخذ قدحاً به بقية من خمر ألقاها فى جوفه،ثم التفت إلى خادم يقف صامتا كأنه تمثال من شمع وأشار إليه فأسرع نحوه فقال له فتوح :

- أنت لاتدرى ماذا نصنع الليلة أيها البهيم ؟

ونظر إليه الخادم مضطربا خائفا لاينطق ، فأكمل فتوح :

- نحن نصنع التاريخ ، نحن نشارك فى تمكين دولة جديدة فى غرناطة تحكم بالعدل والإحسان وتنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى .

وامتلأ الخادم دهشة وتمتم بكلمات :

- علمى يامولاى أن المدينة سوف يتسلمها النصارى من الغد . هل هم من يعنى مولاى ؟

- نعم ياغبى .

واصفر وجه الخادم وهو يقول :

- لاأصدق مايقوله مولاى . المسلمون هم الذين يحكمون بالعدل والإحسان ، وهم الذين ينهون عن الفحشاء والمنكر والبغى . والنصارى لايفعلون شيئا من هذا .

- ألم أقل لك إنك بهيم ؟ اذهب إلى القبو وأتنى بأقدم زجاجة خمر تجدها هناك . هذه ليلة لاينام فيها العقلاء .

وأسرع الخادم ينفذ إرادة مولاه ويبحث له عن أجوَد مافى القبو من خمر . وجلس فتوح

يراجع بقية الأوراق ، ويدون بريشته بعض الملاحظات والأوامر . ولم يكن متزوجا . وكان قد قدم من وادى آش قبل أن تسقط فى يد النصارى ، ليبحث عن نجمه فى غرناطة التى كانت آخر مئذنة يؤذن من فوقها الإسلام . وكان خليعاً ماجنا فى قصره المخيف الذى يبتعد عنه المارة ، فلا يسيرون بجانبه إن جمعهم به الطريق . فهو يأتى بالمغنين والمغنيات ، يعزفن له ويغنين طول الليل ، ثم يأخذ واحدة منهن إلى فراشه فى آخر الليل . وكان يقول دائما :

– أنا الذى أرسم صورة الشعب للملك . والحقيقة لايعرفها غيرى .

جاء إلى غرناطة فعمل مخبرا صغيرا يكتب التقارير عن بعض التجار ، ثم وشى ببعض زملائه ورؤسائه حتى صار صاحب الشرطة وموضع ثقة الملك . وصار يخافه الوزراء والكبراء ويحسبون له كل حساب ، فالملك لايصدق غيره ولايأتمن سواه ، رغم كذبه وخداعه وأنه لايذكر الحقيقة أبدا فى كل مايذكره أو يقدمه من تقارير .

ومد يده إلى القدح فوجده فارغا ، فألقاه بعصبية،وصفق بيديه فجاءه غلام يرتعد ، فصرخ فيه :

– أين الوغد الذى طلبت منه الخمر ؟

– يكون عندك يامولاى على التو .

فأشاح بوجهه وانكب على الأوراق يقرأها ، بينما أسرع الغلام خارجا .

وشعر فتوح ببعض البرد فلملم جبته حوله،ثم نظر إلى المدفأة فوجد نيرانها تخبو ، فصفق بعصبية فجاء غلام ، فأمره أن يزيد الفحم والخشب ، ثم غاب مرة أخرى فى عالم التقارير والأسرار .

● ● ●

جاءوه بالخمر المعتقة وبشيء من اللوز والفستق ، ووقفوا من حوله يرتعدون من البرد والخوف ، والرجل عاكف يقرأ ويكتب ويعلق على بعض الأوراق . وانبعثت ضجة من خارج القاعة ، فانتبه الغلمان حوله إلى مصدرها ، وزادت فرفع فتوح رأسه منصتا مستمعا ، واقتربت فوقف خائفا مصفر الوجه ، فمثله يتوقع القتل أو السجن فى أية لحظة لو تغير الزمن . ومثله يحسب حساب التغير ، ولكنه لايستبعد المفاجآت فى حياته المثيرة القذرة التى بدأها منذ أربعين عاما أو يزيد .

ترى ماذا حدث ؟ وانكمش على نفسه متراجعا يريد أن يحمى ظهره بجدار ، وقد أمسك مرتعدا بقضيب الحديد الذى يصلحون به النار ليدافع عن نفسه وقلبه يكاد ينخلع من الخوف .

وأسرع الخدم يهربون من الباب الذى انفتح فى قوة واقتحمته فصيلة من الجند يختبئون تحت عباءات لاتميز ملابسهم ، ومن بينهم يسير رجل يحرسونه ويحيطون به . وماإن رآه فتوح حتى أسرع وألقى بالقضيب الحديدى فى نيران المدفأة بعصبية ظاهرة ، وهرع إليه وركع عند قدميه يقبل أطراف أصابع ذلك الغريب الذى اقتحم الغرفة يحرسه الجند .

كان ذلك الغريب هو الكونت فرناندو دى ثافرا أمين سر الملك فرناندو ، وهو خبير بالشئون الإسلامية ، ويجيد اللغة العربية كأبنائها ، وهو المهندس القدير الذى رسم خطة استسلام غرناطة ، وصاغ بنفسه كل شروط المعاهدة . ناول دى ثافرا عباءته القشتالية وقلنسوته إلى أحد أتباعه ، وأشار لهم بالخروج فخرجوا جميعا ثم استلقى هو على مقعد وثير مريح فى القاعة ، وألقى نظرة عابرة على التقارير والأوراق التى كان يفحصها فتوح ثم رفع وجهه إليه :

– اجلس يافتوح .

وقال له فتوح وهو يفرك يديه :

– لايامولاى الكونت دى ثافرا . ليس من الأدب الجلوس فى حضرتك .

وابتسم دى ثافرا ممتنا وأشار إلى قنينة الخمر فأسرع فتوح يصب له قدحاً ثم يناوله له فى أدب جم وذلة ظاهرة .

ورشف دى ثافرا رشفة من القدح وقال :

– معذرة لقدومى على هذا النحو المزعج .

وركع فتوح الوادى آشى عند قدمى الكونت دى ثافرا وهو يتمتم :

– مولاى ! ماهذا الكلام ؟ أنت تؤذى خادمك « فتوح » به . أنت صاحب القصر وماأنا إلا عبد من عبيدك . وحسناً فعلت يامولاى بقدومك ، فهناك ماأود أخذ رأيك فيه ، ولم أكن أعرف طريقة سريعة لألتقى بك الليلة .

ونظر دى ثافرا ممتنا إليه ، ولو تأمل فتوح فى وجهه للمح نظرة إحتقار ظاهرة فى العين ، لم يستطع دى ثافرا أن يخفيها للحظة ، ثم عاود النظر إلى المنضدة حيث الأوراق والأضابير والتقارير وقال :

– ماهذا كله ؟

وامتلأ وجه فتوح بالرضا والسعادة وهو يقول :

– مولاى الكونت دى ثافرا . هذا جهد سنين فى خدمتكم . هذا كل شىء عن كل شىء فى غرناطة . هذا كنز ثمين يامولاى الكونت .

وأشاح الكونت دى ثافرا بوجهه باسما ، ثم رشف رشفة أخرى من القدح ، ثم ضحك ضحكة مدوية انزعج على أثرها فتوح واقترب منه قليلا وقال :

– ماذا يضحك مولاى ؟

ورد دى ثافرا وهو يغالب الضحك :

– لاشىء . لاشىء .

وأمسك فتوح ببعض الأوراق يناولها الكونت الذى لم يلتقطها وقال له :

– ألا يريد مولاى الاطلاع عليها ؟

وقام الكونت دى ثافرا واقفا ، وتراجع أمامه فتوح وهو ينظر إلى شفتيه وهما تنطقان بكلام صك سمعه وجعله حائرا :

– لم يعد هناك مانريد معرفته عن غرناطة يافتوح . لاحاجة بنا إلى هذه التقارير . هذه أوراق قد فقدت قيمتها .

وبدا الخوف والذعر على فتوح :

– لست أفهم يامولاى .

وابتسم دى ثافرا وهو يصب لنفسه قدحا ويتحول بوجهه إلى فتوح :

– كنت أظن أننى أجيد العربية ، ومن ثم تستطيع فهمى . أقول لك إن هذه أوراق لاقيمة لها . لقد جئتك لأمر آخر .

– أنا فى خدمتك يامولاى .

– أنت تعرف أن صاحب الجلالة فرناندو الخامس سوف يدخل غرناطة غدا .

– سوف تخرج المدينة كلها لاستقباله فى الغد . مولاى الكونت أنت لاتعرف البهجة والسرور الذى يملأ البيوت فى هذه الليلة السعيدة انتظارا للصباح الجديد . سوف ترى بنفسك يامولاى .

– ماذا فعلت لتأمين الملك ؟

– مولاى ..

وقاطعه دى ثافرا :

– نحن لانعتمد عليك فى تأمين صاحب الجلالة . ولكن عليك أن تثبت إخلاصك للتاج لتظل فى مكانك ياصاحب الشرطة .

وبدا فتوح مهتاجاً مضطربا :

– سترى بنفسك يامولاى ماذا فعت وأعددت . وإن حدث حادث لأقل جندى من الفرقة التى ستدخل المدينة فى الغد فأنا مسئول عن ذلك .

– مامعنى أنك مسئول عن ذلك ؟

ونظر إليه فتوح حائرا ثم قال :

– إن حدث شيء فمعناه أننى غير جدير بالوظيفة التى أشغلها .

وابتسم دى ثافرا ساخرا :

– تقصد أن نعزلك من وظيفتك ؟

– لا يامولاى . لا . أقصد أن تأمر بقتلى . هذا أقل ماينبغى أن أناله لو حدث أى حادث ولو بسيط .

وتفرس فيه دى ثافرا قليلا ثم قال :

– إن موعدك الصبح وليس الصبح ببعيد .

واقترب فتوح خلف دى ثافرا الذى صار يقطع القاعة متأملا :

– مولاى دى ثافرا . أعرف أننى فى اختبار . وأؤكد لك نجاحى .

– لاسبيل أمامك غير النجاح . هذا هو الأمل الوحيد أمامك . ليس فى البقاء فى وظيفتك ، ولكن فى البقاء حيا . أنت لاتعرف الدماء التى سالت ولا الأموال التى أنفقت من أجل الوصول إلى هذه المدينة .

وأسرع فتوح فى ذلة وخوف :

– بل أعرف يامولاى . بل أعرف . ولكن هناك ماأود فعله ، ولا أستطيعه بغير إذن منك . يجب أن يرجع المرء للرؤساء دائما .

وتوقف دى ثافرا ، فى اهتمام والتفت إلى فتوح :

– ماالذى تريد فعله ؟

– وأسرع فتوح إلى الأوراق وأخذ واحدة منها ووضعها تحت بصر دى ثافرا :

– هذه القائمة .

– ماذا عنها ؟

– يجب قتل كل من بها لأضمن أن يمر الغد فى هدوء .

وأمسك دى ثافرا بالقائمة يقرأها باهتمام ، ثم بدا عليه الهم والتفكير :

– كم عددهم ؟

– ثلاثون . وربما أزيد عليهم اثنين أو ثلاثة ، وربما أربعة ، لاأدرى على وجه التحديد .

– المعاهدة التى وقعناها مع أبى عبد الله الصغير تؤمن أهل غرناطة على أرواحهم وأموالهم .

– أعرف يامولاى . ولكن مسئوليتكم تبدأ مع تسليم المدينة .

– ماذا تعنى ؟

– أعنى أننى سأقتل هؤلاء قبل أن يطلع الصبح . سيتم كل شىء قبل دخول صاحب الجلالة غرناطة .

– سوف يدخلها فى الظهر بعد أن ينتهى التسليم بنجاح مع الصبح .

– وأنا سوف أنتهى منهم قبل هذا .

وبدت فى وجه دى ثافرا علامات التردد :

– نحن لانريد مشكلات يافتوح .

– مولاى أنا مسئول عن هذا .

– هل رتبت كل شىء جيدا ؟

– وهم يخرجون للصلاة ، رتبت من يتولى خنقهم وطعنهم ، وهناك الحفر التى أعدت لذلك ، ومن ثم يختفون إلى الأبد ولايذكرهم أحد .

– ومن لم يخرج للصلاة ؟
– قد عملت حسابا لهذا أيضا .
– والقتلة ؟ ربما يتكلمون يوما .

– وهؤلاء أيضا لهم ترتيب ، سوف نتخلص منهم واحدا بعد الآخر بمعرفتى أنا شخصيا . السم يامولاى علاج ناجع لمثل هذه الحالات . ولكن سيتم هذا بالنسبة لهؤلاء بعد تسليم المدينة واستتباب الأمن ، ولن يشعر بهذا أحد . وربما قبل ذلك .

ونظر إليه دى ثافرا معجبا محتقرا :

– أنت تستحق مكانا أعلى من رئيس الشرطة .

– كل مأأريده من هذه الحياة أن أمكن من تقبيل حافر جواد مولاى صاحب الجلالة فرناندو الخامس عند دخوله غرناطة .

ونظر إليه الكونت دى ثافرا مليا :

– سوف أمكنك من هذا يافتوح . ليس تقبيل حوافر الجواد بل تقبيل يد صاحب الجلالة نفسه ، مثلك فى هذا مثل أشراف قشتالة وآراجون وليون وأشتوريش .

وانهمرت دموع الفرحة من عينى فتوح بين عجب الكونت دى ثافرا ، وفاز [illegible]رح :

– هل أفهم من هذا أن مولاى موافق على خططى ؟
– تماما يافتوح . تماما .

واقترب فتوح متوسلا ذليلا من الكونت دى ثافرا،ولعق شفتيه بلسانه قبل أن يتكلم :

– وهل أفهم من هذا أن مولاى راض عنى ؟

وزمّ الكونت فرناندو دى ثافرا شفتيه وقطب جبينه مفكرا ، بينما ينظر إليه فتوح قلقا ينتظرماينطق به ، وسرعان ماانفرجت أسارير الكونت عن ابتسامة أراحته بعض الشيء ، واقترب منه ووضع ذراعه على كتفه وسار به فى القاعة وقال :

- أنت ولد طيب يافتوح ولكن ينقصك شيء .

واستاء فتوح من وصف الكونت له بالولد ولكنه ازدرد الإهانة وتمتم :

- وماالذى ينقصنى يامولاى ؟

- أنت تريد بطبيعة الحال أن تحتفظ بوظيفتك كرئيس للشرطة .

وازدرد فتوح ريقه الذى جف وقد عاوده القلق من جديد :

- كل ماأرجوه هو رضاكم عنى ، وأنا على يقين أننى لم أقصر فى خدمتكم يامولاى الكونت .

وحدق الكونت دى ثافرا فى عينى رئيس شرطة غرناطة الإسلامية وقال :

- حتى تظل رئيسا للشرطة يجب أن تكون كاثوليكيا مخلصا .

وحدق فتوح هو الآخر فى وجه الكونت ذاهلا :

- أترك دينى ؟

- لست مرغما على هذا بحكم المعاهدة التى وقعت . أنا أتكلم عن وظيفتك . إن أردت الاحتفاظ بها فأنت تعرف الطريق . آمن تخلص أنت وأهل بيتك .

- ليس لى أهل .

واقترب الكونت دى ثافرا من المدفأة واصطلى بنيرانها ليبعث الدفء إلى جسده ، وظهر وهجها جليا واضحا على وجهه، ثم التفت إلى فتوح بصوت صارم كالسيف :

- سوف يبدأ من الغد مجتمع جديد فى غرناطة ليس فيه مكان للمسلمين .

- والمعاهدة ؟ ليس فيها أن يرغم مسلم على ترك دينه .

وابتسم الكونت وهو يقول :

– أنا أتكلم مع رئيس الشرطة ، أحدِّثُ رجلا قد عركته التجارب وعلمته الأيام ، لن يبدأ التنصير من الغد ، ولاأدرى متى يبدأ ، ربما بعد سنوات . فإن كان لابد من ترك دينك ، فلتتركه وأنت رئيس الشرطة خير لك من أن تتركه وأنت واحد من عامة الناس .

– معك الحق يامولاى الكونت .

– هذه المعاهدة التى وقعت ليس الغرض منها إنقاذ المسلمين بل الحفاظ على أقل قطرات من دماء القشتاليين . وبعد ذلك هناك أساليب أخرى ، ولاأظن أن هذا يخفى عليك أو على الملك أو على أى عاقل من أهل هذه البلاد . سوف يأتى يوم يخير فيه المسلم بين التنصير والقتل . ومن يدرى لعلنا نجد من يختار القتل .

– لايوجد فى هذا الكون من يختار القتل يامولاى الكونت .

– أنت لم تفهم المسلمين جيدا رغم أنك منهم . ولم تقرأ تاريخ الإسلام . ولعلك لم تفتح المصحف يوما فى حياتك يافتوح . ولو فعلت لفهمت ماذا أعنى .

وحدق فتوح فى وجه الكونت ذاهلا لايرد بينما أردف دى ثافرا :

– ماذا قلت ؟

– بماذا تأمر يامولاى ؟

– سوف تأتى إلى محلتى بعد تسليم غرناطة عند معسكر صاحب الجلالة فرناندو الخامس وسأجعل القس يعمدك بعمودية التوبة والغفران ، ثم أستصدر لك مرسوما ملكيا تستمر فى عملك رئيسا لشرطة غرناطة فى رعاية المسيح ورعايتى .

واستمر فتوح ذاهلا ينظر إليه محدقا وهو لاينطق ، وامتلأ وجه الكونت بالتعجب :

– كأنك ترفض .

وأسرع فتوح وكأنما قد أصابه مس من جنون :

– أنا يامولاى ؟ كلا . أنا فى حقيقتى مسيحى مخلص ، أستطيع أن آتى معك الآن .

وابتسم الكونت فى انتصار وهو يربت بأصابعه على جبين فتوح الذى يحدق فى بلاهة :

– ليس الآن ياصديقى . أمامك واجب ثقيل أرجو أن يساعدك المسيح على أدائه .

وصفق الكونت ففتح الباب ودخل الجند الذين كانوا فى صحبته ، وتقدم واحد منهم ليضع الرداء على كتف دى ثافرا الذى حيا فتوح خارجا :

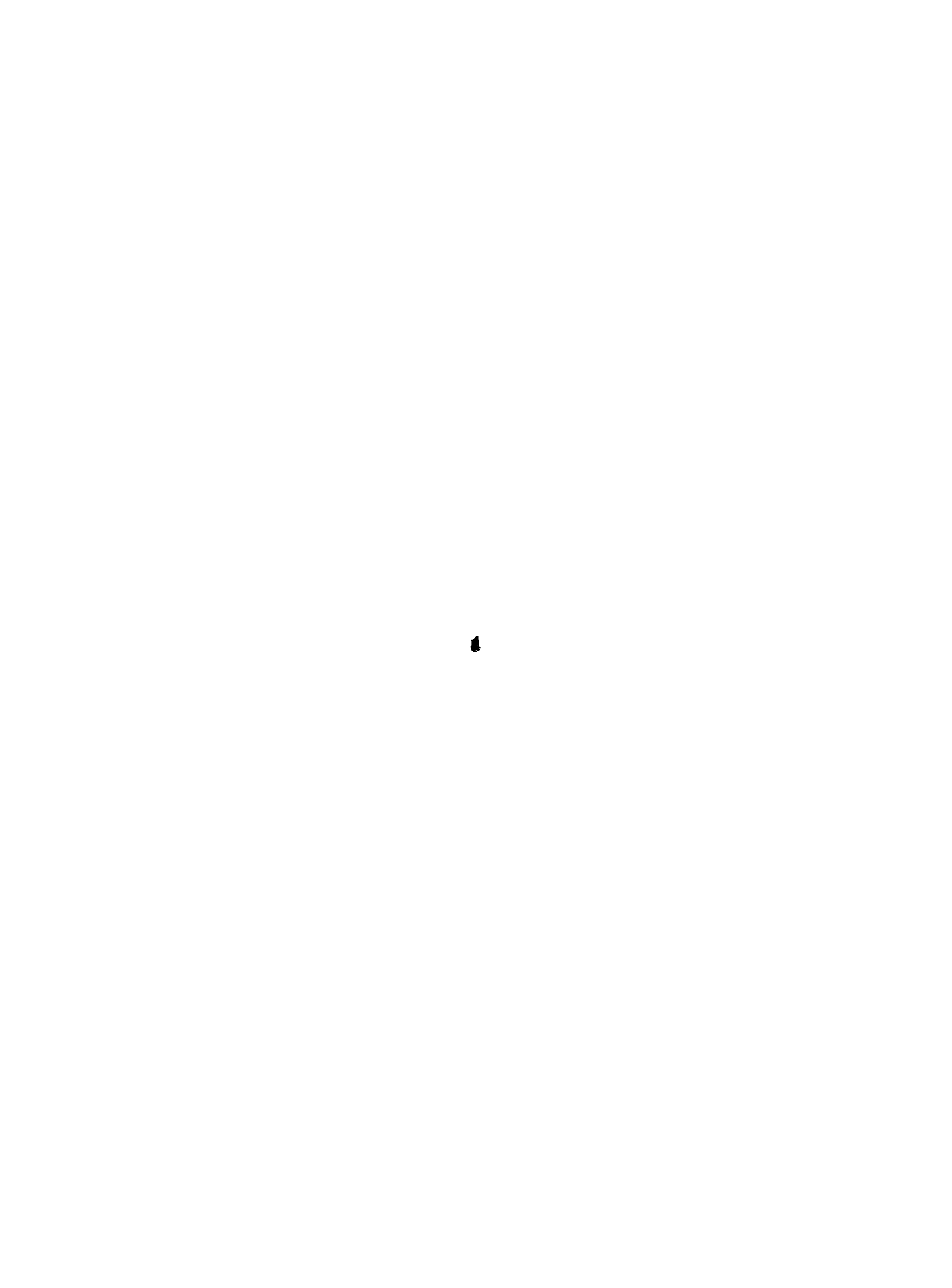
– سوف أراك غدا فى المعسكر .

– أتمنى لك ليلة هانئة يامولاى الكونت ، وأرجو لك نوما طيبا .

والتفت إليه الكونت الذى كان قد وصل إلى الباب وقال :

– نوما طيبا !! هذه ليلة لاينام فيها غير الحمقى والبهائم .

وأسرع خارجا من القاعة وحوله الجند ، وبقى فتوح واقفا يحملق خلفه وهو لاينطق . واقترب من المنضدة وأمسك بقنينة الخمر وصار يعب منها عباً ، ثم وضعها ومسح فمه بكمه،ووقف متأملا وصدره يعلو ويهبط ونفسه تمور بالأفكار والأحاديث ، وماذا يعنى أن أتظاهر بالنصرانية ؟ نعم فلأتظاهر بها وأبق على دينى فى الخفاء ، ولن يعلم بهذا أحد،لن تكون هناك صلاة ، وماذا فيها ؟ فى الواقع أنا لاأصلى ، فلن تكون هناك مشكلة ولكن أن أقول المسيح هو الله ذلك هو أصعب الأمور ، فى الحقيقة أنت لاتؤمن بالمسيح ولابغير المسيح يافتوح ، أنت تؤمن بنفسك فقط ، هى إلهك الذى تعبد . نعم لن يتغير شىء غير الذهاب إلى الكنيسة أيام الآحاد . ولابأس من هذا فهناك نسوة جميلات لعلى أصادق واحدة منهن ، من يدرى لعلى أظفر مرةبكونتيسةأو مركيزة أو شيئا كبيرا من هذا القبيل تساعدنى فى مواجهة أمور صعبة لاأدرى كيف تكون .



ليلة المجاهدين فى غرناطـة

جلس الرئيس عبد الله الشيخ حزينا ساهما بعد خروج موسى بن أبى الغسان ، ينصت حينا إلى أصوات العويل والصراخ تنطلق من أفواه وصدور زوجه وأخواتها ، وبقية أهلها وأهله ، يندبون الصغيرة التى ماتت بليل .

وهو يفكر كيف يدفنها بالنهار .

هل يقوم بهذا أثناء مراسم تسليم المدينة ؟
أم يتم قبل ذلك أو بعده ؟
ثم يقطع حبل تفكيره الصراخ والعويل .

وكانت هناك واحدة تعدد مآثر الصغيرة اللطيفة ، وتذكر محاسنها ومزاياها وجمال عينيها ودقة تقاسيم وجهها ، فى شعر مؤثر مرتجل ، ربما كان وليد اللحظة ، ولكنه ينطبق على الحالة التى هم فيها ، ويذكرها بالاسم ، ويعدد ماكانت تشعه فى الدار من بهجة وفرحة وجمال .

ثم ترد عليها النسوة عند كل مقطع بآهات وصرخات منغمة تقطع نياط القلب . وتنحدر دمعتان بين الحين والآخر على وجنتى الرئيس عبد الله الشيخ الصارم الذى أسند رأسه إلى الحائط فى شرود .

وقال فى نفسه:لنؤجل الدفن حتى تنتهى مراسم تسليم المدينة ، ليس من المناسب أن تسير الجنازة تحت أصوات الكرادلة والشمامسة الذين سيملئون الطرقات بالترتيل فى الصباح .

وكان هذا لابد أن يكون من الغد .

وكان قليل من العزاء يغزو قلبه ، فالمدينة كلها فى حزن ووجوم .

وينقطع تفكيره على صوت العويل والنواح الذى يرتفع على الصمت والليل ، فيملأ قلبه من جديد بوحشة ، ويشعر برغبته فى فعل شىء .

ويقوم واقفا لايفكر فى شىء محدد ، ولكنه يقطع الردهات متشاغلا قلقا حائرا ، ثم يجد نفسه يفكر فى كل شىء .

وكان وجومه تاما كاملا ، وشعر كأنه ينسلخ عن الكون ، أو هو فى حلم ثقيل لابد أن ينتهى لحظة باليقظة ، ويستعجلها ويطلبها ، ولكنها لاتأتى أو لاتريد .

وصار يسير فى الدار إلى أبعد ركن فيها ، ويأتيه النواح من بعيد هادرا من كل الجنبات ، كأنه ينطلق من نقطة قد توغلت فى القدم ، وبدأت مع الزمن أو تكاد .

وتذكر أيام الجهاد الخوالى التى مضت وكأنها لن تعود .

كانوا يخرجون مجاهدين فى سبيل الله بليل ، ويأتون منتصرين بفجر ، فمنهم من يذهب إلى الجامع الكبير ليؤدى فريضة الصلاة قبل أن يرى أهله وأولاده . ومنهم من أثخنته الجراح فهم ينقلونه إلى بيته حتى يشفى أو يستشهد .

كانت أياما وليالى حافلة بالروعة والجلال ، ولم ينهزموا مرة واحدة فى خروجاتهم الليلية ، فهم ينتصرون دائما على الإسبان .

ورغم هذا كله فهم ينوون تسليم غرناطة فى الصباح .

• • •

قام الرئيس عبد الله من مقامه إلى غرفة سلاحه ، وأشار إلى واحد من بنى أخيه وهمس له فى أذنه ، فانطلق ينفذ ماطلبه منه .

أما هو فدخل وصار يختار دروعه وأسلحته ، وصوت العويل لاينقطع ، ولكنه بعد عن أذنيه كذكرى بعيدة أو كأنها لم تكن .

وامتلأت نفسه ببهجة وفرحة ، ونسى الموت والتسليم ، وقدر أن القائد موسى يرتدى أسلحته فى هذه اللحظة ، وتخيل لحظة يلقاه عند فرجة السور على مقربة من القنطرة الأندلسية على نهر « شنيل » ، وتخيل وجه قائده ، وهو يبتسم ابتسامة رضا من خلف المغفر ، وتخيل سيرهما إلى معسكر العدو فامتلأ سرورا وراحة ، وانقلب العويل والصراخ إلى أغان لعرس يقام فى بيته وتعجب للحظة ، ثم واصل ارتداء مايرتدى ، وانتقاء مايختار من سلاح . وكانت البهجة تلاحقه وهو يفعل ، ويردد الأغانى العذاب التى يأتيه صوتها من بعيد ، فالدار فى عرس ، والأناشيد تملأ المكان .

لم يلحظ ارتفاع أصوات الصراخ والعويل ، فقد كان فى أذنه رجع أناشيد وترتيل . ولم يلحظ الباب وهو يقتحم عليه،ويدخل عليه ثلة من رجال الشرطة .

أحاطوا به وأمسكوا بذراعيه فى صرامة وقسوة وهو يكاد لاينتبه لما يحدث ، وظن للحظة أن شباب الحى من المجاهدين قد جاءوه يساعدونه فى ارتداء الدروع ووضع السلاح .

ثم انجلت الحقيقة أمام ناظريه .

لقد تم القبض عليه ووضعت يداه فى الحديد .

وساقوه بغلظة وقسوة إلى خارج الدار ، وهو لايكاد يعى .

وترك النسوة الصبية الصغيرة المغطاة بملاءة بيضاء على فرشها وقد غادرتها الحياة ، وتبعن الجند يؤدين واجب الوداع لصاحب الدار .

والجند يدفعونهن بمقابض سيوفهم ، ويضربونهن بأسواط طويلة حتى استطاعوا مغادرة البيت .

وخرجت بعض المصابيح من الدور القريبة ، وزجر الجند أصحابها ، فانطفأت واختفت فى البيوت ، وخيم الظلام على الدرب من جديد .

كان الرئيس عبد الله الشيخ فى قائمة من ينبغى القبض عليهم ليلة التسليم .

وكان أيضا فى قائمة رئيس الشرطة الخاصة .

قائمة من ينبغى قتلهم ليلة التسليم !

وصار الجند يسوقون الرئيس عبد الله فى الدرب المظلم وهم ينزعون عنه أسلحته ، ويلكمونه ، بينما تفرقع سياطهم فى الليل فوق جسده العارى المغطى بقطع صغيرة من الثياب ، وشعر بدفء دافق ينبعث من دمه الذى يسيل مع فرقعة السوط .

وقادوه إلى دار الحبس .

وكانت أول مرة يدخلها .

وهى الأخيرة أيضا بالتأكيد .

اجتاز المكان عبر طريق معبد بالحجارة قد ملىء بالحرس والجند ، وأبرز واحد من حرسه ورقة ، وقرأها آخر يقوم بحراسة البوابة على نور مصباح زيتى فى يده ، ثم أشار لهم فدخلوا المكان آمنين ، عدا عبد الله الذى فقد الأمن والراحة والأمل . وانقلب البواب ليستقبل آخرين وهو يغمغم ساخطا .

صعدوا درجا وهم يجرون عبد الله الصامت الذاهل ، وصاروا يتبادلون النكات والضحكات . فدار الحبس هى المكان الآمن لرجال شرطة غرناطة . وخارجها أرض مخوفة مليئة بالمجهول

والمفاجآت . فكثيرا مافاجأتهم رمية سهم ، أو ضربة خنجر بليل ، فهم خارجها يرتعدون خوفا وفرقا ، وداخلها تعود إليهم طمأنينتهم وروعتهم .

لأنهم يعيشون على نحو يختلف عن حياة سائر الناس .

وتجدهم أحرص الناس على حياة ، «يود أحدهم لو يعمر ألف سنة»، ويبذلون فى الحرص على هذه الحياة كل مرتخص وغال ، ولايتقيدون بشرف أو دين أو طيب من الخلق والعادات الحميدة ، فهم قساة أرذال ، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، ولايحفظون حدود الله . وأهل غرناطة يمقتونهم ويكرهونهم من أعماق قلوبهم ، ويعرفونهم رغم تخفيهم ، ويميزون وجوههم من بين ألف وجه .

● ● ●

كان فى آخر الدرج المرتفع رواقان عن اليمين وعن الشمال .

وقادت الشرطة عبد الله الشيخ إلى ذلك القائم على الشمال ، واجتازوه به بين أصوات الصراخ والأنات المنبعثة من الحجرات .

وانتبه عبد الله الشيخ وهم يوقفونه على منضدة خشبية قد جلس خلفها أحد رجال شرطة غرناطة من أصحاب المكانة ، بينما وقف الباقون متأدبين ، وهو ينظر إلى عبد الله ببسمة ساخرة يحاول أن يقلد بها رئيسه فتوح ، ولكنه تقليد ردىء لايضارع الأصل فى روعته وخسته ودناءته .

وبعد لحظات من الصمت ارتفع صوته الساخر :

– لاتعجبك المعاهدة .. أليس كذلك ؟

وينظر إليه عبد الله ولايرد .

وتنتفخ أوداج الشرطى الكبير الجالس خلف المنضدة المليئة بالأوراق ، ويتحدث كأنه اشترك فى المفاوضات وصنع الأحداث ، وهو فى حقيقة الأمر لايساوى دانقا واحدا ، وغاية من يستطيع مقابلته هو « فتوح الوادى آشى » وليس كل يوم بطبيعة الحال ، ولكن عندما يستدعيه .

– كانت المفاوضات مع القشتاليين صعبة وقاسية ، لقد فرضنا عليهم كل مانريده من شروط . وقد نجحنا فى إحراجهم ، وانتصرنا عليهم ، وأرغمناهم على التوقيع وكانوا لايريدون . قد حققنا انتصارا عسكريا عليهم فى المعارك العديدة التى جرت فى شهور الحصار التى انصرمت . ولولا كل هذا مارضوا بالتسليم .

وابتسم عبد الله الشيخ ساخرا :

– هل قلت التسليم ؟

واعتدل الشرطى الكبير :

– نعم . التسليم بالشروط التى فرضناها عليهم ، لقد انتصرنا عليهم عسكريا وسياسيا . وهذه المعاهدة التى وقعناها معهم ، والتى يرفضها أمثالك ، ستكون نقطة تحول فى تاريخ الكون كله . لقد اجتزنا حاجزا من التوتر والقلق فى شجاعة لاتوجد لدى دولة أخرى فى كل بلاد المسلمين ، كلهم يريد الصلح مع النصارى ، والفرق بيننا وبينهم أننا انتصرنا عليهم فى الحرب ، ثم وقعنا معهم معاهدة الصلح رغم أنوفهم . مثلك لايفهم هذه المسائل الكبيرة ، وصعب علىَّ أن أشرح لك . أنتم تضيِّعون وقتنا ، وتفسدون خططنا .

– لماذا جئتم بى ؟

وابتسم الشرطى ساخرا :

– جئنا بك للضيافة والسمر .

ثم اعتدل واقفا فى حزم . وانتبه الحرس خلف عبد الله الشيخ فى قلق وفى توتر . وخرج الشرطى من خلف منضدته ، واقترب من عبد الله :

– لقد جئنا بك هنا للتأديب والتهذيب ، نحن نمنع حصول الشغب في الغد .

ودقق عبد الله الشيخ النظر فى وجه الشرطى الكبير وقال له :

– هل أنت من « المدجنين » ؟

– أنا من « المدجنين » ؟ من قال هذا ؟ أنا عربى الأرومة ، ينتهى نسبى إلى « الأوس » أعرف الدين خيرا منك ، أنتم من الغوغاء التعساء الذين يغرمون بإفساد البلاد والعباد . لاعلم لكم ببواطن الأمور . هناك الكثير من الأسرار لايتيسر لكم معرفتها . وليس من الصواب معرفتها ، فلو تم لكم هذا لصرتم مثلنا ، وهذا أمر صعب .

– متى كان آخر عهدك بالصلاة ؟

– هل جئت لتستجوبنى ؟

– لقد جئتم لى .

– ماهذا الدم الذى يسيل من جبينك ؟

– بعض من لسعات سياط رجالك .

وتحول الشرطى الكبير إلى رجاله :

– لاينبغى أن يعامل الرئيس عبد الله الشيخ هكذا . هيا ضعوه فى الحبس . وهم جند الشرطة بجر عبد الله،ولكنه تحول إلى الشرطى الكبير :

– إلى متى يدوم حبسى ؟

وابتسم الشرطى الكبير :

– حتى ينتهى الغد فى سلام ، ليس أكثر من هذا ، هيا خذوه .

وهم الجند بسحبه ولكنه تملص منهم وعاد إلى الشرطى الكبير الذى بدا ذاهلا ، وبدت فى وجهه أمارات الخوف والقلق فتراجع خطوتين ، ثم تمالك نفسه ووقف أمام الرئيس عبد الله الشيخ الذى كان يخرج الكلام من فمه كالحمم :

- أنت وغيرك سبب نكبتنا ومصيبتنا ، ولكننى لم أكن أعرف ، أو سمعت ولم أصدق ، من أى طينة أنتم ؟ ومن أى جبلة خلقتم ؟ لو عاد بى الزمن لبدأت بكم .

وحاول الشرطى الكبير أن يرسم ابتسامة رئيسه الصفراء على وجهه ، وفعلها بصعوبة ، ورأى الجند يحكمون أيديهم حول الرئيس عبد الله فقال مطمئنا :

- هل عندك شىء آخر ؟
- أخبرنى . لحساب من تعملون ؟
- لحساب من نعمل ؟ من تظن ؟
- أنتم تعملون لحساب النصارى ، لحساب فرناندو وإيزابيلا والكاردينال .

وقاطعه الشرطى الكبير فى ثقة وهدوء :

- أنت مخطىء أيها الرئيس عبد الله . نحن نعمل لحساب أنفسنا .
- ودينكم ؟ ووطنكم ؟ وأهلكم ؟

وفى براعة ونعومة واقتدار رفع الشرطى الكبير أنفه ورأسه عاليا بشموخ وقال :

- أنا الدين والوطن والأهل .

وحدق فيه الرئيس عبد الله دهشا وقال :

- أنت ؟
- نعم .
- إن كنت أنت تقول هذا ، فماذا يقول « فتوح الوادى آشى » ؟ وماذا يقول ابن كاشة الوزير ؟ أو ماذا يقول الملك الصغير ؟
- ومادخلك أنت بهؤلاء . هل تريد شيئا آخر ؟
- نعم .
- ماهو ؟

– رسالة تبلغها للذى وقع معاهدة الاستسلام للعدو .

وحدق فيه الشرطى الكبير مليا ثم قال :

– لابأس ، هات الرسالة .

– وتستطيع أيضا أن تبلغها للوزير ولصاحب الشرطة ، ولكل من ألقى سلاحه ووضع يده فى يد العدو .

– لاأظنك تستمر طويلا . ما الرسالة ؟

وقال له عبد الله فى هدوء :

– هاهى ذى .

ثم استجمع نفسه ونظر إليه بازدراء وبصق فى وجهه .

وانكمش الشرطى الكبير خائفا وقال من بين تردده وقلقه :

– سوف تدفع ثمنها غاليا .

– لاأظن . أنت مخطىء .

وأخرج الشرطى الكبير منديلا من كم جبته القشتالية التفصيل ومسح به وجهه وألقى بالمنديل ، وأسرع أحد الجند بالتقاطه ، وجاء آخران ومعهما طست وإبريق ، وثالث يحمل منشفة ، وصبوا له ماء ساخنا غسل به وجهه ، ومسحه بالمنشفة ، وانتعش الشرطى الكبير وعاود حديثه مع الرئيس عبد الله :

– انظر إلى هذا الرواق .

والتفت عبد الله حذرا بنصف وجهه إلى الناحية التى أشار إليها ، وواصل الشرطى الكبير حديثه :

– كان المفروض أن تبيت فى الغرفة الأخيرة منه ، ثم تذهب إلى بيتك عند غروب شمس الغد ، بعد أن تمر الأحوال بهدوء . ولكن بعد الذى فعلت فقد تغير القرار . سوف تبيت فى

الرواق المواجه ، من هذه الناحية .

ثم التفت إلى من يمسك به من الجند :

– أول غرفة إلى اليمين .

وقال له عبد الله ساخرا :

– وما الفرق ؟

وبدت النشوة فى وجه الشرطى الكبير وقال سعيدا :

– قد قلت لى ماالفرق . وأنا أجيبك .

وتبادل مع بعض الحرس نظرات باسمة ساخرة ، وعبد الله الشيخ يرد عليهم بابتسامة واثقة ساخرة أيضا ، وقال الشرطى الكبير :

– الغرفة التى ستدخلها سوف يقتل من فيها قبل أن يؤذن آخر فجر .

وفى هدوء وطمأنينة .. قال الرئيس عبد الله :

– لن يكون آخر فجر إن شاء الله ، وستظل شمس الإسلام تشرق دائما على هذا الكون ، فإن غابت فى مكان ، فإنما لتشرق فى مكان آخر .

– ومافائدة هذا لك بعد أن يواريك التراب ؟

– فى هذا يكمن الفرق بينى وبينك أيهاالمسكين ، أنا أومن بالبعث والنشور ، وأنت تشك فى هذا . والعاقبة للمتقين .

– هيا خذوه ، الوداع أيها الرئيس عبد الله الشيخ ، لن أكون حاضرا ساعة قتلك ، ورائى مهام جسام .

وهَمُّوا بأخذه ، ولكنه لمح سيفا مسنودا على جدار ، يبدو أنه لرئيس الشرطة ، فانقض عليه كالبرق اللامع ، بعد أن ضرب رأس من يمسكان به وتركهما يتلويان على الأرض ، ثم أخرج

السيف من غمده ، وأسرع الجند من أمامه ، كأنهم فئران مذعورة ، وارتبك الشرطي الكبير وهو يحاول الهرب فتعثر فسقط ، بينما اقترب منه الرئيس عبد الله الشيخ باسما هادئا كأنه القدر :

– الرحمة أيها الرئيس عبد الله لاأظنك تقتل أعزل ..

– هل هذا سيفك ؟

– هو لك ولكن لاتقتلني ، سوف آمر بالإفراج عنك .

– لعلهم يقتلونني عند الفجر كما تقول .

– لا .. لا .. أقسم لك إنهم لايستطيعون . سوف أفرج عنك .

وفي هدوء شديد قال له الرئيس عبد الله :

– مثلك لايستحق شرف حمل هذا السيف .

ورفع الرئيس عبد الله السيف ليضرب الشرطي الكبير الذي ارتفع صراخه :

– ارحمني ، سوف أفرج عنك ، لو قتلتني فلن تخرج حيا.

وفي هذه اللحظة انطلق سهم من قوس كأنه شهاب الليل اخترق يد الرئيس عبد الله التي كانت تحمل السيف فسقط ، بينما ولى الشرطي الكبير ، وهو يصرخ ويهذي ولايصدق أنه وأسرع الحرس وتكاثروا على الرئيس عبد الله وقيدوه بالحبال ووضعوا الحديد في معصميه .

وعاد الشرطي الكبير وقد استعاد رباطة جأشه ، وصار يرسم ابتسامة رئيسه على وجهه بفجاجة وركاكة ، فقد كان الخوف كامنا في أعماقه .

وكان الدم يسيل بغزارة من يدي الرئيس عبد الله الشيخ المقيدتين بالحديد بعد نزع السهم منها ، ولم يكن أحد يهتم بأمره ، وكان هو أيضا كذلك ، ولعله كان أكثرهم هدوءا في هذه الليلة .. وقال لهم ساخرا :

– إن كان تصويبكم على هذا [illegible] من الجودة فلماذا لم توجهوا سهامكم إلى صدور الأعداء ؟

وتشجع الشرطي الكبير وقال :

– اصمت أيها الوغد . سوف أشهد بنفسى قتلك قبل الفجر .

واستدار فى عظمة وكبرياء زائفين وغادر ، وتعاون الحراس على جره إلى الغرفة التى ينبغى أن يوضع فيها ، وكان واحد منهم يحاول ربط يده خفية بقطعة من قماش قديم ، لاأدرى من أين جاء بها ، ولكنه كان حريصا على ألا يراه أحد من زملائه .

وألقوا به فى الغرفة وأحكموا غلقها ثم انصرفوا .

● ● ●

ارتطم جسم عبد الله الشيخ بأجسام لم يتبين أصحابها فى ظلمة الليل ، وحاول أن يعتدل جالسا فآذى واحدا من المحبوسين فتأوه متألما ، فقال له :

– معذرة ياأخى لاتؤاخذنى .. فيداى بهما الحديد ، وذراعاى ملفوفتان بالحبال .

وسمع غمغمة وهمسا فى الغرفة وانطلق صوت :

– من القادم الجديد ؟ الرئيس عبد الله الشيخ ؟

– نعم .

– ألا تعرفنى ؟

وتجاوبت صيحات الفرح والسرور من المحبوسين ، فقد كانوا جميعا من المجاهدين المسلمين الذين تآخوا فى المعارك والحروب .

– كيف أمسكوا بكم ؟

– كما أمسكوا بك .

وغمغم الرئيس عبد الله الشيخ :

– أخشى أن يكونوا قد أمسكوا بالقائد موسى بن أبى الغسان .

- سوف يمسكون به بالتأكيد .

- هناك من هرب إلى الجبال وتسلل خارجا من غرناطة .

وقال الرئيس عبد الله مترددا :

- هل هنا أحد غريب ؟

- كلا ، نحن تسعة ، أبو الليث ، وأبو أحمد، وأبو الحسن ، وأبو الخطار ، ومحمود السكين،..

وعلت وجه عبد الله بسمة لم يرها أحد وقال :

- ومحمود الطبرزين ، وذو الذراع الحديدية على بن أبى الجهم.

- نعم أيها الرئيس ، محسوبكم على بن أبى الجهم .

- قد جمعوا القادة كلهم ، سوف يقتلوننا عندما ينتهى الليل .

- من يدرى ؟ هناك من يقدم فى الطريق بالتأكيد .

- وهناك من هرب إلى الجبال ، أنا واثق من هذا ، ودعونى إلى هذا فرفضت .

- والمدفع ؟ ماذا تم بشأنه ؟

- قد أخذه الإخوة إلى جبل الثلج .

- سوف يضربون به النصارى يوما .

- هذا هو ثالث ثلاثة مدافع بالمدينة .

- اثنان منهما سوف يأخذهما النصارى فى الغد .

- سوف نصب من الحديد رابعاً وخامساً وسادساً ، وسوف نقاتلهم فإن قتلنا فلنا الجنة ، ثم يحذو أبناؤنا من بعدنا حذونا ، نحن أبناء دين لن يموت .

وانطلق واحد منهم يرسل نشيدا كانوا يرددونه فى سفراتهم وقتالهم ، وكأنه يسترجع موقفا قد عاشه الجميع من قبل ، وصاروا ينشدون معه فى أسى وصبابة وحزن ، والدم ينبثق من جرح يد الرئيس عبد الله الشيخ ، وسقطت دمعتان كبيرتان من عينيه لم يستطع مسحهما .

ثم عاد الصمت إلى المكان من جديد عندما اقتحم الباب .

كان الشرطى الكبير ومعه بعض الحرس ، وفى يد واحد منهم قنديل زيتى أضاء المكان ، ورأى كل واحد منهم الآخر للمرة الأولى .

وانطلق صوت الشرطى الكبير كالفحيح :

– تغنون ياأوغاد ؟ هل أنتم فى عرس ؟ أم تراكم جننتم ؟

وضحك التسعة ساخرين ، بين دهشة الشرطى الكبير وحرسه ، وقال له الرئيس عبد الله الشيخ :

– ماذا تريد ؟

ولمعت عينا الشرطى الكبير :

– قد جاء أوان الحساب .

وانطلق صوت من الغرفة :

– مرحبا بالجنة .

– الله أكبر .

– لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وتعالى صوت التسبيح والتهليل والتكبير ، والشرطى الكبير يكاد يتميز غضبا ، فهم لايسألون فيه ولايردون عليه ، وهو يصرخ فيهم :

– هل تلقون القتل بالفرح والسرور أيها التعساء ؟

وتزداد الضجة ويرتفع صوت التكبير .
- كفى ، كفى ، سوف تنالون ماتريدون .
وانقلب مكفهر الوجه إلى الحرس :
- لن نصبر عليهم حتى تأتى ساعتهم ، هيا خذوهم واحدا واحدا .
ودخل الحرس وجروا واحدا ، فقد كانوا جميعا مقيدين لايستطيعون حراكا .

وسار معهم ذلك الذى أخذوه ، وكان محمود الطبرزين ، خير من جاهد النصارى بالطبرزين فأطلق عليه اللقب .

وابتسم لزملائه وحياهم وودعهم ، وقال لهم خارجا :
- ألقاكم فى الجنة بعد قليل .

ومن بين الضجة التى ملأت الغرفة قال الشرطى الكبير لحرسه :
- الجثة فى الحفرة التى قمتم بحفرها ، واجمعوا الرءوس حتى يراها فتوح ، وسوف أخبركم بما تفعلون بعدها .

وعاد الحرس بعد أن غابوا وأخذوهم واحدا واحدا . وعندما أرادوا سحب الرئيس عبد الله قال لهم الشرطى الكبير :
- ليكن هذا آخرهم ، أريده أن يتعذب أكثر . وأريد أن أراه وهو يموت ، لقد أهاننى وسب الدولة كما رأيتم .

وقال له الرئيس عبد الله الشيخ :
- كم أنت مسكين يامسكين .

● ● ●

اقتادوا الرئيس عبد الله الشيخ وجسده يرتعد من شدة البرد ، ولكنه كان رابط الجأش ، شديد الشجاعة ، واثقاً أن هذا هو أعظم ماينبغى أن يكون ، لن يشهد ذل الصبح ، وتمنى لو أطاع القائد موسى ، ولكن إرادة الله غالبة ، وشعار الدولة النصرية « لا غالب إلا الله » .

فقد شاءت الإرادة الإلهية أن يموت صبرا بيد إخوانه من المسلمين ، وللحظة شعر بأسف غير قليل ، فلو استطاع الخروج إلى النصارى لقتل اثنين على الأقل قبل أن يموت ، وهاهم أولاء يقتلونه بلا ثمن ، وكذلك فعلوا بقادة المجاهدين وأصحاب الخبرة فى القتال ، يسوقونه إلى حتفه كنعجة تسلم لجزار يذبحها ، أضحية فى يوم عيد .

وتعجب الرئيس عبد الله الشيخ وصار يتأمل وجوههم على ضوء القنديل ، فهم مازالوا بعد فى ردهات دار الحبس ، هل يمكن أن يقتلوه ثم يذهبوا إلى صلاة الفجر فى الجامع الكبير ؟ هل يمكن لهم أن يقتلوه ثم يكبروا خلف الإمام ويقرءوا الفاتحة ؟ ومن ثم يقولون فيها :

﴿ اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ ؟

وازداد عجب عبد الله وصار يقلب وجهه فى الوجوه ، ولمحه الشرطى الكبير ، فقال له شامتا مزدريا :

– هل تخشى القتل ؟
– أنا ؟ كلا بالمرة .
– لايبدو عليك .
– أنا أرثى لك .
– تريدنى أن أطلق سراحك ؟ هذا أمر صعب . المعاهدة تقضى بألاّ يؤذى أحد من المسلمين ، ولايرغم على تغيير دينه .
– ورغم هذا يأمرون بقتلنا فى السر ؟

– عمن تتكلم ؟
– عن النصارى . فرناندو وإيزابيلا .
وضحك الشرطى الكبير وقال :
– هم لايعلمون شيئا من هذا ، ولم يأمروا به ، ولم يتسلموا المدينة بعد . نحن نقتلكم على مسئوليتنا ، ودمكم علينا ، فنحن لانستطيع أن نفعل هذا من الغد ، لهذا نحن نفعله اليوم . ستكون الأمور من الغد أكثر دقة ونظاما ، ومن الصعب علينا فعل هذا ، ولكنه سهل الليلة كما ترى .

وامتلأ الرئيس عبد الله دهشة وعجبا وقال :
– كأنكم تقتلوننا متطوعين ، لم يرغمكم على هذا أحد ، ولم يطلبه منكم إنسان ؟
– بالضبط .. ماقلته صحيح ، نحن نقدم هدية للنظام الجديد ، وهو أمر فى صالح الوطن والبلاد بالتأكيد .

– والله هذا أعجب مارأيت فى حياتى .
وقال له الشرطى الكبير ساخرا :
– وآخر مارأيت أيضا ، فبعد لحظات ستموت . والمجانين من أمثالك لاينبغى لهم العيش فى هذه الحياة ، أو لايطيب لهم ذلك ؟
– والله لا أدرى أينا المجنون ، أنا أم أنت ؟ وكأن المسألة مسألة عقل أو جنون ، هى إيمان أو كفر يامسكين ..

وكانوا قد غادروا دار الحبس وانطلقوا فى طريق قريبة من الأسوار ، والبرد يزمجر ، والريح تعوى من بعيد مؤذنة بصباح عاصف بالثلوج . واقتربوا من ناحية حيث حفرة كبيرة قد ملئت بأصحاب الرئيس عبد الله ، ودمعت عيناه حين رآهم وقد كوموا فوق بعضهم بلا رءوس ، والدم يغطى المكان ، وقال فى رصانة :
– السلام عليكم أيها المؤمنون ، أنتم السابقون ونحن إن شاء الله بكم لاحقون .

، والتفت إليهم ... ، كان من عالم آخر لاينتمى إلى هؤلاء ،
... لاينتمى إليه ، كل يفكر بطريقة تختلف عن الآخر ، وينظر إلى
... فرناندو وإيزابيلا ، وهو يرى الله ومكانه من الجنة .

... الكبير :

عبد الله الدهشة تزداد فى نفسه وقال :

... ، وكانوا فى حالة شديدة من المرح والتندر، وقال له الشرطى الكبير
... منهم .

- تعرف ماذا ... عليك أن تفعل ؟
الرئيس عبد الله الشيخ صادقا :

... ضحك الشرطى وكبيرهم . وازدادت دهشة عبد الله وقال :
- ... لى ... بهؤلاء الغر الأماجد من المجاهدين المسلمين ؟
... الشرطى الكبير .
- هؤلاء غر أماجد ؟

- ... لاتعرف ماذا ينبغى عليك فعله ؟
- كلا لا أعرف .
وازدادت ابتسامة الشرطى الكبير اصفرارا :
- ... أن تجلس للقتل ، تمكن هؤلاء من ضرب عنقك ، فقد تعبوا كثيرا هذه الليلة ،
... أن يظفروا بقسط من الراحة قبل أن يطلع النهار ، وأنت تضيّع وقتنا .

– أنا أضيّع وقتكم ؟

– نعم ، هيا اجلس للقتل .

وامتلأت نفس الرئيس عبد الله اشمئزازا وازدراء :

– كم أنتم مساكين ، بل أنتم كافرون ، لستم بمسلمين ، لقد فكرت بشأنكم طيلة الطريق ، من تكونون ؟ وبأى ملة تدينون ؟ ، وهل تقبل صلاتكم إن ركعتم ؟، وهل يجاب دعاؤكم إن دعوتم ؟ لاأظن لقد اهتديت إلى ماغاب عنى . لستم بمسلمين !

– ألم أقل لك ياعبد الله أنت تضيّع الوقت بكلام لايضر ولاينفع .

– من يدرى لعل فى هؤلاء رجلا رشيدا .

– هيا . اجلس للقتل .

واقترب الرئيس عبد الله من الحفرة ونظر إلى إخوانه وصار يقلب النظر فيهم حزينا :

– لاحول ولاقوة إلا بالله ، لم يجلس واحد منهم للقتل ، هاهى ذى أجسادهم قد شدخت ، ولو جلسوا للقتل لظلت سليمة على حالها بعد فصل الرأس ، انظر ، هاهو ذا واحد منهم قد شق صدره بملابسه بضربة سيف ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا حول ولا قوة إلا بالله . والتفت إليهم صارما كالسيف :

– اسمعوا جميعا ، أنا رئيس هؤلاء ، وقد أبوا الجلوس للقتل ، فافعلوا ماتشاءون .

وفجأة شعر بالدماء تسرى حارة فى عروقه ، وأحس بالدفء يملأ جسده ، ووجد دغدغة لطيفة تنبعث من رأسه ، وتبددت الوحشة ، وذهب القلق ، وجاء الأنس ، وحلت الراحة ، وشعر بالأمن يتخلله ، ورأى موسى بن أبى الغسان فى ثياب جميلة رائعة يقبل عليه معانقا ، ومن خلفه محمود الطبرزين يسرع نحوه هو الآخر مرحبا ، وأبو أحمد ، وذو الذراع الحديدية ، وسائر الأصحاب ، وقال لهم دهشا :

– ماذا حدث ؟

وقال له موسى بن أبى الغسان وهو يضع ذراعه فوق كتفيه :

– لم يحدث شىء ياصديقى ، لقد نجوت ، قد نجونا جميعا .

وانسابوا فى موكب قد غَشَّاه الجلال والجمال لم ير مثله فى الأرض من قبل . ورأى صغيرته التى لم تدفن بعد وهى تشق طريقها إليه ، وقد انسابت جدائل شعرها على كتفيها فوق ثوبها الحريرى ، وصار يقبلها فى دهشة وشوق وهى تحتضن رأسه ، وأصحابه يدفعونه إلى مكانه من صدارة الموكب ، فقد كان هذا هو مكانه دائما .

وانساب النغم أبديا سرمديا بسر الوجود الذى لم يطلع عليه أحد ، ولم يشرف بمعرفته إنسان ، فى عالم الطين والقتل والقتال .

● ● ●

كان الحرس يضربون الرئيس عبدالله الشيخ بسيوفهم ، ويشدخون رأسه بأغمادهم ، ويطعنونه ماحهم ، يريدون أن يتأكدوا من موته .

وصار الشرطى الكبير يصرخ فيهم :

– كفى لاتضيعوا الوقت ، قد مات .

وقاموا من حوله منهكين لاهثين ، قد تلوثت أيديهم وثيابهم وأسلحتهم بدمائه ودماء أصحابه وقال لهم الشرطى الكبير :

– ليجتز واحد منكم رأسه وينقلها إلى الحفرة الأخرى حتى يأتى سيدنا فتوح الوادى آشى .

وتقدم أكثر من واحد ليجز رأسه ، وحملها أحدهم وكان ظلوما جهولا ، ثم أمسك بعضهم بما تبقى من الرئيس الشهيد وألقوا به فى الحفرة ، وهموا بالذهاب ، ولكن الشرطى الكبير صرخ فيهم :

- اردموا الحفرة ياأوغاد قبل أن تذهبوا ، ألم أخبركم من قبل .

وأسرعوا فى حمية وحماسة يهيلون التراب على أجساد الشهداء .

واقترب واحد من الحرس قلقا ، وكان يحمل رأس الرئيس عبد الله الشيخ ، بينما انهمك زملاؤه فى دفن الجثث ، وقال للشرطى الكبير هامسا :

- ألا نصلى عليهم ياسيدنا ؟

وانقلب إليه الشرطى الكبير كأنما قد لسعته عقرب وقال :

- يبدو أنك مجنون أنت الآخر !

وصار يقهقه فى مجون وجنون،ويشاركه فى هذا بقية الحرس وقال :

- نصلى عليهم ؟ هذا ماكان ينقصنا !

وتراجع الجندى معتذرا فسقط منه الرأس ، وصار يفتش عليه بيديه فى ظلمة الليل .

ثم انقلبوا صامتين خائبين .

● ● ●

وفى ساحة دار الحبس كان فتوح الوادى آشى ينتظرهم وقد وضعت أمامه قنينة خمر وأقداح ، وكان يقف وحده فى الساحة على مقربة من مدفأة قد أعدت له .

وقفوا أمامه فى احترام وإجلال ، وحكى له كبيرهم ماجرى ، وكان وجه فتوح يمتلىء سرورا وهو يسمع ، وقال :

- المهم أنكم انتهيتم بنجاح .

وقال الشرطى الكبير آسفا :

- ولكننا لم نقبض على كل من كان بالقائمة .

- لابأس من هذا ، سنحاول البحث عنهم ، والظن أنهم قد خرجوا إلى الجبال . إلى أين يذهبون ؟ لقد دانت البلاد كلها للملكين الكاثوليكيين ، هيا اشربوا ، انتظروا ، ماذا فعلتم بالرءوس .

وقال الشرطي الكبير :

- نريد أن يراها سيدنا قبل أن ندفنها .

- لاضرورة لهذا ، المهم ألاّ يعرف أحد بسر ماحدث .

- قد أوصيتهم جميعا ، ونحن كما يعرف سيدنا فى الناحية الشمالية من دار الحبس ، ولايعرف مايدور فى هذه الناحية غير هؤلاء الستة الذين أمامك ، وأنا ، وأنت .

وازدادت ابتسامة فتوح الوادى آشي وقال :

- لقد صنعت شيئا عظيما [illegible] نعم شيئا عظيما ، وستكون الجائزة عظيمة كما فعلتم ، هيا ادفنوا الرءوس ، وتعالوا لتشربوا معى .

وأسرع الحرس إلى الخارج ينفذون ماأمر به فتوح الوادى آشي الذى انقلب إلى الشرطي الكبير وقال له :

- وأنت . بماذا أكافئك ؟

وابتسم الشرطي الكبير :

- يكفينى رضاؤك عنى ياسيدنا .

وضحك فتوح من جديد وأعاد عليه السؤال :

- هل أنت على يقين أن سر القتلى لايعرفه غير هؤلاء ؟

وعاد الشرطي الكبير يؤكد :

- ثق بى ياسيدنا .

– أنا أثق بك بالفعل . أخبرنى ، هل ... وا فى هدوء ؟

– أثاروا قليلا من الضجة قبل أن يموتوا .

وسار فتوح الوادى آشى جيئة وذهابا ، والشرطى الكبير يتابعه خائفا قلقا يرقبه فى ... بينما يحاول فتوح أن يقلد الكونت دى ثافرا – أمين سر الملك فرناندو – فى مشيته ويحاول من جديد ، ويتخيل مشية الكونت وطريقته فى الكلام ويحاول تقليده جاهدا ... فى أعماقه معجبا بهذا الكونت إعجابا فاق كل حد ، وهو يراه أسطوريا التركيب ... قدرته ، يجيد اللغة العربية كأبنائها ، وهو يحاول تعلم اللغة القشتالية فلم يقدر ، ولم ... سوى بعض كلمات قليلة .

وراح يحدث الشرطى الكبير عن آرائه السياسية وأفكاره عن المجتمع الجديد الذى ... الغد ، وكيف تعب مع ساسة قشتالة فى تحديد أبعاد هذا المجتمع !

وأخذت فتوح الوادى آشى الحماسة فصار يحكى للشرطى الكبير عن لقائه مع الملك ... الخامس ، الذى تم منذ أسابيع ، وكيف أخذ رأيه فى مشكلات كثيرة تتعلق بإدارة البلاد ... تسلمها من المسلمين ، بينما الشرطى الكبير ينظر إليه فى انبهار وإكبار ، وتقدم إليه متزلفا وقال :

– هل يأذن لى سيدنا فى سؤال صغير ؟

وتوقف فتوح الوادى آشى عن الحديث وبدا عليه بعض الضيق وقال :

– ماهو ؟

– هل يرى سيدنا مولانا الملك فرناندو مثل ماأراك الآن ؟

وامتلأت نفس فتوح بالعجب والكبرياء وأخفى ابتسامة الرضا وقال :

– بطبيعة الحال ، أراه كما أراك الآن ، وأتحدث معه ، ودعانى إلى العشاء عدة مرات ، و ... وحدى معه ، والملكة .

ولم يكمل حديثه ، بل قطعه بضحكة طويلة كأنما يتذكر شيئا طريفا قد حدث ، والشرطى الكبير ينظر إليه بانبهار وتقدير وقال له :

– الملكة ؟ هل يقصد سيدنا الدونا إيزابيلا ؟

ومن بين ضحكه قال فتوح :

– وهل هناك غيرها ؟ دخلت علينا ونحن نتناول العشاء فقالت للملك : « أنت هكذا دائما يافرناندو ماإن ترى فتوح حتى تنسى الجميع » .

وسأله الشرطى الكبير وهو فى قمة الإثارة :

– وماذا قال الملك ياسيدنا ؟

– قال لها الملك .

وسكت فتوح قليلا ويبدو أنه قد شعر بضآلته وهو يحكى هذه الأكاذيب ، فغاية مايرجوه أن يقبل حافر حصانه عندما يدخل غرناطة ، وقد وعدوه بتقبيل أطرافَ ثوبه ويده بعد أن ينتهى من سلسلة الجرائم التى يرتكبها ، وشعر بالخزى والعار ، وأنه شىء قليل حقير ، ليس فى العير أو النفير ، ووجد أنه لاينتمى إلى أحد ، ففى الغد سوف يترك دين الإسلام ويعتنق النصرانية ، وأحس للحظة أن عمره قد ضاع سدى ، وأنه يلهث خلف المجهول ، وليس وراء هذا المجهول غير الرذيلة والعار والتدنى إلى قاع لايعرف منتهاه .

وقطع عليه فكره صوتُ الشرطى الكبير :

– لماذا سكت سيدنا ؟

وقال فتوح فى حزم :

– هذه أسرار لاينبغى الخوض فيها .

وانكمش الشرطى الكبير خائفا ، فهو يعلم خطورة الكلام فى السياسة أكثر من غيره ، والويل لمن يعرض نفسه لغضبة الحكومة ، أميرا كان أم خفيرا .

ولكن فتوح قال :
– قد دعاها الملك إلى الطعام معنا ، وتكلمنا فى بعض الأمور ، ثم انتهت الليلة على خير وعدت إلى غرناطة ، هذا هو كل ماهناك . وفى توقير شديد قال الشرطى الكبير :
– قد فهمت ياسيدنا ، قد فهمت .

● ● ●

عاد الحرس الستة بعد أن دفنوا رءوس الشهداء ، وأعلنوا هذا فى توقير شديد ، وتقدم فتوح وصب لهم أقداحا من الخمر ودعاهم إلى احتسائها ، وأقبلوا على ذلك فى فرحة ظاهرة ، بينما تردد واحد منهم ، ذلك الذى سأل الصلاة على الشهداء بعد قتلهم .

ولحظ ذلك فتوح والشرطى الكبير الذى ارتبك من تصرف تابعه ، بينما اقترب فتوح منه :
– ماذا بك ؟
– لاشىء ياسيدنا .
– لماذا لم تشرب قدحك ؟
وفى قلق وخوف وتوجس قال الحارس :
– أنا لم أشرب الخمر من قبل ياسيدنا .

واغتاظ الشرطى الكبير الذى يقف خلف فتوح المواجه للحارس ، وصار يشير له بعينه ووجهه أن يطيع ويشرب ، وقال فتوح وهو يضحك :
– لم تشرب الخمر من قبل ؟ حسن هذا وجميل ، فلتشرب هذه الكأس فقط مكافأة لك ، لأجل خاطرى يا .. ، ماأسمك ؟
– محمد .
– هذا اسم لاينسى ، هيا اشرب .

وألقى الحارس بما فى القدح دفعة واحدة فى جوفه ، ونظر إليه فتوح مليا ثم ابتسم وتحول عنه ، فوجد الشرطى الكبير قد صب لنفسه قدحا وهم بشربها فأمسكها منه وقال له فتوح :

– ماذا تفعل ؟

وفى ارتباك وحيرة قال الشرطى الكبير :

– أشرب قدحا ياسيدنا .

وفى حزم وصرامة قال فتوح :

– ليس بعد .

وحمل فتوح القنينة فى يده وتحول إلى الحرس وقال لهم باسما :

– تريدون أكثر ؟ هه ! من يريد ؟

وتقدم واحد أو اثنان يمدون أيديهم بأقداحهم ، واقترب منهم فتوح ببطء وهو يحدق فى وجوههم ، وإذا بهم يسقطون واحدا بعد الآخر ، بين ذهول الشرطى الكبير الذى صار يغمغم :

– يفقدون وعيهم من قدح واحد ؟ هذه خمر عجيبة ..

وصار فتوح يحدق فيهم قليلا ثم عاد إلى الشرطى الكبير :

– هل تريد قدحا ؟ هذه خمر مسمومة ، قد ماتوا جميعا .

وأصيب الشرطى الكبير بالذهول وهو يقلب النظر بين الموتى وقنينة الخمر ووجه فتوح الباسم وتمتم :

– لم يخبرنى سيدنا بنواياه .

وفى استهانة بالغة قال فتوح :

– هذه هى الطريقة الوحيدة لحفظ السر .

وقال الشرطى الكبير وحلقه قد جف من الرعب :

– وأنا وأنت ياسيدنا ؟

– أنا وأنت ؟ لاتخف ، قد منعتك من شرب القدح منذ لحظة ، وكنت أستطيع تركك لو أردت ، أنت ساعدى الأيمن وأنا فى حاجة إليك . وبدت علامات الارتياح على وجه الشرطى الكبير وقال :

– وماذا نفعل بهؤلاء الحمقى ؟

– دبر أحوالك ، قوم شربوا من الخمر حتى ماتوا ، هذه قضية سهلة ، جلية واضحة ، لكن لابد من بعض القوارير الفارغة .

فلتحضرها بنفسك ولتضعها بجوارهم .

– والدماء التى فى ملابسهم وأجسادهم ؟

وفى غضب أجابه فتوح :

– لاأظن أننى أعلمك ماينبغى عليك فعله .

وصار الشرطى الكبير يعوى مسترضيا فتوح :

– فليسامحنى سيدنا ، سوف أحسن التصرف ، ولكن لاتغضب منى .

– لابأس عليك ، فلتمر علىّ بعد أن تنتهى .

– سوف أفعل ياسيدنا ، سوف أفعل .

وتحرك فتوح خارجا وهو يحمل القنينة المسمومة فى يده ، ثم توقف وقال :

فلتمر علىّ بعد صلاة الفجر .

ونظر إليه الشرطى الكبير مشدوها :

– هل سيصلى سيدنا الفجر هذا اليوم ؟

وضحك فتوح وهو يغادر قائلا :

– يبدو أنك أصبت بالخبل والجنون . معذور على أية حال .

وغادره وتركه يحدق فى جثث الحرس الذين قتلوا بالسم لإخفاء جريمة قتل المجاهدين اتقاء لما كانوا ينوون تنفيذه بالليل ، أو عندما يطلع الصبح .

صباح الذل فى غرناطة !

كان المسرح يعد طوال الليل لظهور الممثلين مع أول خيط للنهار .

وكانت مباراة للقوة والقهريين فريقين ، وعلى كل جانب أن يتقن ماينبغي عليه أداؤه إلى غايته القصوى من الإجادة وحسن الأداء . ولم يتهاون الفريق القوى فى إظهار قوته وتسلطه ، ولم يتوان الفريق الذليل فى التدنى والتهالك وإظهار ماهو فيه من قهر وذل وضياع .

بكر أهل غرناطة فى الظهور فوق البيوت والشرفات يرقبون صامتين ذاهلين ، وهم يبكون فى نشيج مكتوم فى انتظار المأساة والممثلين .

وقد خلت الشوارع والسكك من المارة فقد أسرعوا إلى بيوتهم ، خوفا من غضبة الجند أو معرة الجيش ، فرغم الأمان الذى أعلن للناس، إلا أنهم لم يطمئنوا ولم يصدقوا أن غرناطة تسلم للقشتاليين .

والناس فى غرناطة فى ذلك اليوم نظارة مغلوبون على أمرهم ، ولو خيروا لخرجوا فماتوا كما فعل موسى بن أبى الغسان . قد فرض عليهم سادتهم وكبراؤهم الرضوخ والتسليم للعدو ، ولم يكن أمامهم خيار .

كان البرد قارصا وشديدا ، وكان الناس فى أغلبهم فقراء ليس عندهم مايضعونه فوق أجسادهم ليقيهم ذلك الصقيع الذى يبعث الوحشة والخوف . ورغم هذا فقد خرجوا من البيوت والغرف ليشهدوا عزيزة عليهم يشيعونها إلى مثواها الأخير .

وكانت مراسم الجنازة لغرناطة الشهيدة لم تبدأ بعد .

● ● ●

دخل أبو القاسم عبد الملك ومعه ابن كاشة إلى قصر الحمراء ، وهرعا من فورهما إلى جناح الملك أبى عبد الله الصغير .

وفى طريقهما التقيا بالملكة عائشة ، كانت مثلهما لم تنم بعد ، وأنى لمثلها أن ينام ، وسألاها عن الملك فأشارت لهما إلى باب غرفته دون أن تقول شيئا . وأسرع أبو القاسم ليوقظ الملك ووقف ابن كاشة ينظر فى إثر الملكة عائشة وهى تختفى فى نهاية الممر ، وتخيل الحزن والمرارة التى تملأ نفس هذه المرأة القوية الشكيمة ، وكيف حافظت على الملك لهذا الغلام السفيه الذى ضيعه بالتأكيد ولم يقاتل دونه، وفضل الحياة بغيره .

وتذكر ابن كاشة كيف كادت ثريا أو إيزابيلا ضرة الملكة عائشة لها ، وكيف استطاعت التأثير على زوجها السلطان أبى الحسن فحبسها هى وولديها ، وأحدهما الملك أبو عبد الله الصغير - وكان بالفعل غلاما صغيرا - فى برج قمارش الشاهق تمهيدا لنزع ولاية العهد من أبى عبد الله الصغير إلى أحد ولديها ، وكانت ثريا أو إيزابيلا تدبر لقتلها وولديها ، واستطاعت الملكة عائشة بقوة شكيمتها أن تتفق مع أنصارها ، وتصنع حبالا من أغطية السُّرر وتهبط مع أولادها من شاهق فى ظلمة الليل إلى مكان آمن حتى بلغ الغلام أشده، وأخذ حقه من ملك ضيعه بعد حين .

وهزَّ أبو القاسم رأسه أسفا وحزنا ، ولكن ماذا يمكنه أن يفعل ؟

خرج ابن كاشة خلف الملك الصغير الذى ظهر من فرجة الباب ليقول :

- لحظات وأرتدى ملابسى وأصل .

ثم غاب فى الغرفة، وانضم ابن كاشة إلى زميله باسما فى سخرية مرة :

- قد بذلت جهدا فى إيقاظه ، لست أدرى كيف عرف النوم طريقه إليه ؟

ومشى بجوار أبى القاسم عبد الملك صامتين فى أروقة القصر فى انتظار الملك .

ثم سمعا صوت امرأة تتلو القرآن وفى ترتيلها حزن ولوعة ، فاتجها إلى ناحية الصوت فوجدا الملكة مريم ، زوج الملك ، قد جلست على صندوق مما يستخدم لنقل الأمتعة فى ذلك الزمن ، وقد ارتدت ملابسها وأمسكت بالمصحف تقرأ فيه ، ووقفا أمامها مذهولين .

وشعرت بهما الملكة مريم فأنهت التلاوة ورفعت رأسها إليهما :

– هل جاء موعد الخروج ؟

وقال لها ابن كماشة بصوت متهدج :

– ليس بعد ، تستطيعين إكمال التلاوة .

وقالت فى حزن :

– هل استيقظ الملك ؟

وأجابها أبو القاسم عبد الملك :

– هو يرتدى ملابسه الآن .

وقالت فى لوعة وحزن :

– ذلك الطاقم الذى فرضه عليه النصارى ؟

وهزّ ابن كماشة رأسه موافقا دون أن ينطق .

وفتحت المصحف بعد أن تمتمت :

– شكرا لكما .

وتركاها تتلو قرآنها وعادا يستعجلان الملك وهما يشعران بخزى وعار وهوان من نظرة الملكة مريم العاتبة اللائمة .

● ● ●

كان الملك قد استعد هو وأهله جميعا ونزلوا إلى ساحة قصر الحمراء، وقد أعدت الخيل لركوبهم ، وحملت أمتعته وأمواله على البغال والحمير .

وكانوا فى انتظار أوامر ابن كماشة فقد كان هو « مأمور التسليم » - إن جاز هذا التعبير - وكان يقف معهم أبو القاسم عبد الملك .

وفى تمام الساعة الخامسة والنصف من صباح ذلك اليوم الأغبر الحزين ، أصدر الوزير ابن كماشة أوامره للجند فى أعلى القلعة بإطلاق قذيفة فى الهواء من المدفع الوحيد الذى بقى مما صنعه المسلمون إيذانا ببدء إجراءات التسليم حسب الاتفاق .

ومع صوت هذا المدفع الذى انطلق كالرعد ثلاثا متتابعة أعلن رسميا انتهاء دولة الإسلام فى الأندلس والتى استمرت ثمانية قرون .

وبدأت مراسم الجنازة .

وهزت أصوات القذائف مشاعر الناس فى كل أحياء غرناطة الذين لم يناموا فى انتظار هذه اللحظة الصعبة المرة ، والتى كتب عليهم اجتيازها .

وارتفع بعده بلحظة أو أقل صوت النحيب والبكاء والعويل وهو يأتى مروعا أخاذا من كل جنبات غرناطة .

وانتبه أبو القاسم للملكة عائشة على صهوة جوادها ، وقد جمد التعبير فى وجهها فهو لاينبىء بشىء . وتحول ناحية الملكة مريم فوجدها متهالكة على جوادها والدمع ينزل مدرارا على وجنتيها بلا صوت . ونظر ناحية أبى عبد الله الصغير فوجده يبتسم ببلاهة ويتلفت متعجبا مما يرى ويسمع .

ومد أبو القاسم أصابعه وأزاح دمعتين سقطتا من عينيه فى غفلة منه ، وقد كان الموقف مثيرا أخاذا يبعث الحزن فى صخور الحمراء الرابضة كالمارد مع غبش النهار القادم .

وازداد صوت البكاء والنحيب وصار قريبا ، وتلفت أبو القاسم عبد الملك فوجد بعض الحرس المسلمين يبكون ، وبعضهم الآخر لم يستطع كتم صوته .

ومد أبو القاسم أصابعه وأزاح دمعتين مرة أخرى .

وكلمه الملك أبو عبد الله الصغير بعصبية ظاهرة :

– ماذا بعد هذا الصوت الذى سمعناه ؟

وأجابه الوزير فى هدوء :

– لاشىء يامولاى ، نحن نعلمهم أننا هنا فى انتظارهم لتسليمهم كل شىء .

– وأين هم الآن !؟

– لحظات وتجدهم أمامك يامولاى .

● ● ●

كان صباحا شديد البرد ، وكان الضباب يلف المدينة ، فهذا يوم لن تشرق شمسه خجلا مما يجرى ، وتعلقت الأعين بالبوابة الكبرى للقصر الرابض وسط القلعة فوق الهضبة .

وسمع صوت النفير عن قرب ، ومعه ردت المدينة كلها بالعويل والبكاء والنحيب ، والملك يتظاهر بالتماسك فتبدو عليه علامات البلاهة وهو يتحرك فى عصبية بلا معنى .

وملأ صوت النفير الآذان كلها ، واجتاز الباب الأستاذ الأعظم جوتيرى دى كانياس ومعه الكونت دى مندوسا ومائة من الفرسان ، والكل يرتدى الملابس الزاهية الألوان ، ومعهم من يحملون صليبا فضيا كبيرا .

وكان مع الموكب فتوح الوادى آشى صاحب الشرطة فى غرناطة الإسلامية ، ثم فى غرناطة النصرانية !

وترجل الأستاذ الأعظم من فوق جواده وحيا أبا عبد الله الصغير ولم يخلُ وجهه من نظرة شماتة أخفاها على عجل .

وكانت مراسم التسليم تقضى أن يقوم الملك أبو عبد الله الصغير بتسليم القلعة والقصر بعد أن يتفقد الحرس الإسلامى مع الأستاذ الأعظم ، وقال الملك فى صوت متهدج للأستاذ الأعظم :

– هيا ياسيدى تقدم فى هذه الساعة الجميلة الطيبة بتسلم قصورى باسم الملكين العظيمين اللذين أراد لهما الله القادر أن يستوليا عليها لفضائلهما وخبث المسلمين .

وأشار له الأستاذ الأعظم أن يرافقه ، وارتفع صوت أبى عبد الله الصغير :

– هاهو أمامك كل شىء ، تفضل وخذ كل شىء ، ماذا يمكن أن أقدمه ؟ أمامك كل شىء ، كل شىء .

وتهدج صوت أبى عبد الله الصغير ، وصار قريبا من البكاء ولكنه تماسك .

وفكر الأستاذ الأعظم جوتيرى دى كانياس رئيس جمعية « شانت ياقب » الدينية قليلا ، وتبادل النظر مع الكونت دى مندوسا الذى هزَّ رأسه ، وكأنه خشى من مضاعفات هذا الموقف مع أصوات العويل والنحيب التى تهز المكان .

وأسرع ابن كماشة يقول للأستاذ الأعظم :

– تفضل ياسيدى ، أنا معك سأتولى تسليمك القصر والقلعة ، وأشهد معك تغيير الحرس . أنا معك ياسيدى . تفضل .

وهز الأستاذ الأعظم رأسه موافقا ، ووجد حديثه للملك فى ود مصطنع :

– يستطيع صاحب الجلالة – لو أراد – أن يستريح فى خيمتى من المعسكر ، وهو على مقربة من هنا كما تعلمون .

ورد أبو عبد الله الصغير :

– شكرا لك .

ولم يستطع الأستاذ الأعظم أن يمنع نظرة الازدراء التى شمله بها قبل أن يتحول عنه ليجد الملكة

عائشة على جوادها تنظر شاردة ذاهلة بفم نصف مفتوح ، وحياها الأستاذ الأعظم باحترام شديد فلم ترد تحيته وظلت على حالها هذه . وتقدم ابن كاشة يصعد الدرج مع الأستاذ الأعظم ، وقبل أن يلحق بهما الكونت دييجو دى مندوسا قال له الملك وفى صوته رنة القلق :

– هل أستطيع أن أذهب ؟

وقال الكونت دى مندوسا :

– بالتأكيد ياصاحب الجلالة تفضل ، سوف يلقاك صاحب الجلالة الملك المعظم فرناندو الخامس ملك إسبانيا فى محلته قرب نهر « شنيل » .

وقاطعه أبو القاسم عبد الملك :

– أعرف المكان .

وهز الكونت دى مندوسا رأسه وقال :

– أتمنى لكم حظا طيبا .

وأسرع يصعد الدرج ليلحق بالأستاذ الأعظم وابن كاشة ، ومن خلفه صعد الفرسان الذين ترجلوا ومعهم صاحب الشرطة فتوح الوادى آشى الذى تنصر عند الفجر فى خيمة الكونت دى ثافرا حيث عمده الكاردينال بيدرو دى مندوسا بنفسه .

وأدارت الملكة عائشة وجهها لتبصر الصاعدين ينتهكون حرمة القصر ، وصرخ أبو عبد الله الصغير :

– لحظة .. أريدك لحظة أيها الكونت .

وخيم الصمت على المكان ، وقطعه خطوات الكونت دى مندوسا وهو يهبط إليه ، وهرول خلفه ابن كاشة وصاحب الشرطة وبعض الفرسان وبقى الأستاذ الأعظم فى مكانه ينظر ويرقب ، وقال دى مندوسا :

– ماذا هناك ياصاحب الجلالة ؟

وانتبهت الملكة عائشة وتحفزت وهى ترقب ولدها يتكلم وانتبه الجميع أيضا :
– لى رجاء عندك أيها الكونت .
ونظر إليه الكونت دى مندوسا طويلا قبل أن يجيب :
– ماهو ؟
– سوف أجتاز عند خروجى من غرناطة باب « الطباق السبع »
– نعم أعلم .
– أريدك أن تبنى هذا الباب فلا يجتازه غيرى بعدى .
وامتلأ وجه الملكة عائشة بالمرارة وهى تسمع ، ونظر إليه مندوسا بازدراء :
– سوف أفعل ياصاحب الجلالة .
وقال الملك أبو عبد الله الصغير بعصبية وإلحاح :
– هل تقسم بشرفك كفارس أن تفعل ؟
ورد عليه دى مندوسا بازدراء وبرود :
– أقسم .
– شكرا لك .
وتحول عنه الكونت دى مندوسا وقد فارقه الاحترام هذه المرة وسمع من أعلى الدرج الأستاذ الأعظم ينادى :
– ماذا هناك ياكونت دى مندوسا ؟
ورد عليه الكونت مُهوِّنا :
– لاشىء ياصاحب القداسة ، لاشىء .
ثم أسرع يرق الدرج ليتم التسليم .

● ● ●

كان الملك أبو عبد الله الصغير يجتاز طرقات غرناطة فى موكبه الحزين الذليل ، وهو يشيع من الشرفات بالعويل والبكاء والنحيب .

وكان الضباب يتخلل الطرقات والأشياء ، وكأن مايحدث مشهد أسطورى لا ينتمى إلى هذا العالم .

دولة تخرج من التاريخ مع وقع حوافر جواد الملك الصغير وهو يخرج من غرناطة إلى الأبد .

وأخرى تصعد إليه مع خطوات الأستاذ الأعظم إلى أعلى البرج ليثبت الصليب ، حيث تتربع « الكثلكة » فوق منابر الإسلام .

﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ .

وفى الوقت نفسه كانت فرقة أخرى من الفرسان تتجاوز الألف فارس ، ومعها جوقة الموسيقيين والعسكريين تجتاز قصبة الحمراء بعد خروج أبى عبد الله الصغير منها .

ورفع الصليب الكبير على أعلى برج فى قصر الحمراء ، وهو الصليب الذى كان يحمله فرناندو دائما معه فى حروبه مع المسلمين ، ولا يزال باقيا .

وبجواره رفع علم قشتالة ، وعلم القديس يعقوب الذى قامت باسمه جمعية « شانت ياقب » الدينية .

وارتفع صوت جهورى يهتف :

« القديس يعقوب » ثلاثا .

« غرناطة لمولانا الدون فرناندو والدونا إيزابيلا » ثلاثا .

وكان الفرسان يرددون الهتاف فيدوى فى الجو ويراجعه العويل والنحيب والصراخ من شعب غرناطة الذى هاله مايجرى .

ثم أطلقت المدافع ابتهاجا .

وصدحت الموسيقى أثناء خروج الجند المسلمين من القلعة حيث كان آخر عهدهم بها وحل محلهم الحرس النصرانى .

ثم ارتفعت أصوات المرتلين والمنشدين من فرقة الرهبان الملكية والتى جاءت على عجل ترتل صلاة الحمد على أنغام الموسيقى .

وكان الملك أبو عبد الله الصغير يسمع كل هذه الأصوات وهو فى طريقه ليتجرع كأس الذل حتى الثمالة عند لقائه بالملك فرناندو والملكة إيزابيلا ليقدم لهما بنفسه كل شارات الحكم من خاتم ومفاتيح .

● ● ●

وأثناء الأناشيد وصدح الموسيقى كانت الركائب محملة بالدقيق والسمن والعسل تدخل غرناطة حيث يأخذ منها من يشاء .

وعندما رأى الملك فرناندو الصليب الفضى يعلو الأبراج من مقامه عند نهر « شنيل » ترجل عن جواده وركع على الأرض ، وأمر بإطلاق المدافع ابتهاجا وسرورا بما حدث .

وعندما اقترب موكب أبى عبد الله الصغير من محلة الملك فرناندو حيث ينبغى تقديم الولاء والخضوع امتنعت الملكة عائشة ، وأمرت مريم وسائر أخوات أبى عبد الله الصغير بعدم الذهاب بين حيرة الملك أبى عبد الله وقالت له :

– هذه كأس شربناها معك ، فاشرب ثمالتها وحدك .

وذهب أبو عبد الله الصغير فى نفر من أتباعه وفرسانه لملاقاة الملك فرناندو فى محلته وحوله نبلاؤه وأمراؤه وقادة الجند .

وعندما اقترب أبو عبد الله الصغير من مقام الملك الذى كان على جواده ينتظره ترجل الملك الصغير عن جواده وسار إليه ماشيا على قدميه . وتظاهر الملك فرناندو بأنه يحاول منعه من الترجل ، ثم تركه بعد ذلك يتقدم إليه ويتجرع ثمالة الكأس كما قالت له الملكة عائشة منذ قليل ، وقدم أبو عبد الله الصغير للملك فرناندو خاتمه الذهبى الذى يبصم به المراسيم والقرارات ، وقدم له مفاتيح القلعة والقصر ، وتناولها منه الملك فرناندو فى تواضع زائف وناولها إلى أحد نبلائه .

ثم قدم له مفتاحى البابين الرئيسين للحمراء وقال :

– أيها الملك العظيم : هذان مفتاحا الجنة التى تراها الآن ، يقدمهما لك خديمك أبو عبد الله محمد ، وهما آخر ماتبقى للمسلمين من دولة فى هذه البلاد ، وقد أصبحت يامولاى سيدنا وصاحب أرضنا وأشخاصنا ، وهكذا قضى الله ولاراد لقضائه ، فكن يامولاى عادلا رحيما كما نأمل فيك .

وابتسم الملك وقد ملأه الزهو والكبرياء ، وهو يحاول إخفاءهما وقال له :

– لاتشك فى وعودنا معك ، ولاتفقد ثقتك فينا ، وتحمل هذه المحنة التى قضى الله بها عليك ، وسوف تعوضك صداقتنا ماسلبه القدر منك .

● ● ●

ثم سار أبو عبد الله الصغير إلى ضاحية « أرميليا » حيث محلة الملكة إيزابيلا حيث قدم لها فروض التحية والولاء والطاعة ، ثم رأى ولده المريض يسير بين الحرس حيث كان رهينة فى عسكرها ، ومإن رأى الغلام أباه حتى حاول أن يلحق به فمنعه الحرس ، فبكى أبو عبد الله الصغير واستعبر وبدا عليه الذل والضياع والكآبة ، فسرت عنه الملكة إيزابيلا وعزّته وأمرت بتسليم الغلام إليه .

وغادر الملك أبو عبد الله الصغير محلة الملكة إيزابيلا ومعه غلامه الذى ارتهنوه قبل أيام إلى حيث كانت تنتظر أمه الملكة عائشة وزوجه وأخواته ، ثم أخذ طريقه إلى جبال البشرات حيث قرية « أندرش » منفاه الأخير .

وعندما وصل أثناء انتقاله إلى موضع يسمى « تل البذول » أشرف على غرناطة ورأى المدينة بين يديه وقد احتواها صليب كبير ، فوقف ينظر إليها مودعا ، وتذكر ماضيه بها بالأمس ، وضياع الإسلام منها اليوم ، وربما تذكر تهاونه وتخاذله فأجهش بالبكاء والنحيب .

وقالت له أمه الملكة عائشة فى قسوة :

– إبك كالنساء على ملك لم تستطع الحفاظ عليه كالرجال !

ولايزال هذا التل يحمل اسما جديدا من يومها هو « آخر بكاء العربى » ويراه السائح عندما يذهب إلى هناك .

أما الملكة مريم فلم ينقطع بكاؤها لحظة ، وظلت تبكى غرناطة حتى آخر حياتها التى لم تدم بعد ذلك طويلا فى المنفى .

فى هذا النهار الذى سلمت فيه غرناطة بدأ انتهاك المعاهدة .

فقد أقيم قداس كبير فى مسجد غرناطة الجامع حضره الكاردينال بيدرو دى مندوسا ، رغم أن المعاهدة تنهى عن ذلك .

وربما استغل الغزاة البرد والخوف الشديد الذى أحاط بأهل غرناطة ، وربما أرادوا جس نبض المسلمين ليروا رد فعلهم ، وربما لم يعرف شعب غرناطة بهذه الواقعة إلا بعد أيام ، رغم أن المعاهدة كانت تحرم على أى مسيحى أن يدخل مسجدا،ومن يفعل ذلك يعاقب ، فكان رئيس الكنيسة هو الذى فعل هذا ، ونذكر هنا موقف عمر بن الخطاب عندما أذن له البطريرك صفرنيوس بالصلاة فى كنيسة القيامة حين جاء وقت الصلاة ولكنه رفض وصلى خارجها وقال لا يأتى من بعدى فيقول عمر فعل هذا ويفعل هو الآخر .

وأقيم فى الليل حفل كبير حضره الأمراء والنبلاء والعظماء القشتاليون وشرفه الملك فرناندو ، ثم عاد إلى معسكره بعد انتهاء الحفل . وكانت الموائد قد رصت وملأت كل قاعات قصر الحمراء لهذه المناسبة التى رتبوا لها على عجل من الليلة الماضية حيث أنشدت فرقة هنريكو القشتالى التواشيح العربية الأندلسية التى يحبها الملك فرناندو .

وقد حضر الحفل أيضا فتوح الوادى آشى صاحب الشرطة الجديد، وكان هو المشرف على النظام حول القصر وفى كل المدينة كالعادة .

وحضرت الحفل الملكة السابقة ثريا أو إيزابيلا زوجة السلطان أبى الحسن والد أبى عبد الله الصغير وحضر معها ولداها ، سعد ونصر ، وأعلن الجميع تنصرهم ، وأنهم كانوا يخفون النصرانية تحت ثياب الإسلام .

وقد منح الملك فرناندو ولديها ألقابا قشتالية، وتسموا بأسماء نصرانية ، فمنح سعدا لقب الدون فرناندو ، وسمى نصر بالدون خوان وتقدم بعض ضعاف النفوس إلى الملك فى هذه الليلة وتنصروا تحت تأثير القوة والمال وتلقبوا بألقاب قشتالية .

وعلى العموم لم يكن الغالبون كرماء أو متسامحين مع المغلوبين ، فقد عاملوهم بفظاظة واحتقار منذ اللحظة الأولى ، ولم يراعوا شعورهم، بل طعنوا كبرياءهم وأهانوهم من اليوم الأول ، وبدأ رجال الدين يخططون لنقض المعاهدة والعمل على تنصير المسلمين ، واجتمعوا على هذا الهدف فى عشاء تلك الليلة الثانية من يناير سنة ١٤٩٢ م .



نهاية أبى عبد الله الصغير
آخر ملوك غرناطة الإسلامية

كان أبو عبد الله الصغير قد أخذ من الملكين الكاثوليكيين حق الملكية له ولأحفاده لكافة أرجاء وكور برجة ودلاية ومرشانة وبلنوذ ولوتشار وشبيلش وأجيجر وأرجبة وأندرش ، التى ارتضى الإقامة فيها مع أهله وحشمه . فهو سيد هذه المنطقة يحكمها باسم الملكين الكاثوليكيين ، يؤدى الضرائب وكل الإتاوات لهما ، ويحصل الخراج والعشور ، وله حق الملكية والبيع والشراء والرهن ، وكانت مملكة صغيرة يقطعها على جواده فى ساعات من أدناها إلى أقصاها .

وكان يعيش فى هذا المنفى حياة مترفة لاهية عابثة ، يقضى وقته فى الصيد والقنص ، ومحاولة نسيان ماهو فيه من واقع مرير .

انتقل معه إلى البشرات فى قرية « أندرش » أبو القاسم عبد الملك ويوسف ابن كماشة وبعض خاصته من الحاشية وأمه وزوجه وأخواته وولده .

وأعدت لهم بعض الدور على عجل للإقامة ، ولكنه اهتم بداره ، وبدأ فى إصلاحها والاهتمام بها وجلب الذخائر لها من كل مكان .

وكانت هذه هى إحدى تسليات الملك فى هذه القرية المغمورة ، أن يقف ليشهد العمال والصناع وهم يشكلون الجبس إلى نقوش فى السقف وعلى الجدران . وعندما فتحت الطـرق وسارت التجارة بين البلدان بعد سقوط غرناطة أرســل يشترى الرخام الفاخر من جبال « جليقية » فى شمال البلاد ليصنع الأعمدة اللامعة المصقولة ، وكان يتحدث إلى ندمائه أنه ينوى عمل بركة مياه ونافورة تضارع تلك التى تركوها فى قصر الحمراء عند بهو السباع .

وكان ندماؤه يجلسون إليه ويستمعون صامتين ، ويتسمون أحيانا مجاملة أو مجاراة له فيما يقوله من حديث ، وكانوا بين أنفسهم يسخرون منه ، ويتعجبون كيف لايدرك هذا الملك حقيقة ماهو فيه من ضياع ، وكيف لاينفذ ببصيرته إلى المستقبل ليرى مايمكن أن ينتظره مما يؤجله الزمن أو تنحيه الظروف قليلا ؟ وكان أبو عبد الله الصغير عندما ذهب إلى منفاه من قرية « أندرش » فى حوالى الثلاثين من عمره ، وكما وصفته الكتب كان ممشوق القد وسيما هادئا جميل العينين ، إلى النحافة أقرب ، خفيض الصوت ، ضعيف الشخصية ، لا يهتم بالمعالى من الأمور ، وإن حدث منه ماينافض هذه الصفة كان ذلك بوحى من الآخرين بالتأكيد .

قد ورث فى نفسه كل عذابات الأندلس ، واختلافات الزعماء ، وتفكك القيم ، وضياع المثل ، ولكنه كان متمسكا بالإسلام كعباءة يرتديها ، وقد رفض خلعها ، رغم مافى خلعها من فوائد وميزات مادية واجتماعية يمكن أن يحصل عليها فى ذلك العصر ، وفى تلك البلاد التى ارتفع فيها الصليب . ولعلها كانت ميزة فيه ، فهو على نقائصه يقيم الصلاة ويصوم رمضان ، ثم يستفتى بعض من اختار الإقامة معه من الفقهاء فى بعض أموره .

وكان كثير السؤال عن موقفه من التسليم وتقدير ذلك فى ميزان الدين والشرع ، وكان هؤلاء الفقهاء يفسرون له بعض الآيات ، ويسردون عليه بعض الأحاديث الشريفة ، ويفسرون كل هذا له على هواهم وهواه ، ثم يأخذون منه عطية سنية ، فقد كان ثريا كثير المال ، وقد حققت له معاهدة التسليم قدرا أكبر من الثراء بالتأكيد .

وكان بعض ندمائه من الانتهازيين المتملقين يأتونه أحيانا فى الصباح ، ويخدعونه برؤى يزعمون أنهم قد رأوها بالليل تفيد أنه سيجلس مرة أخرى على العرش ، وأنه سوف لا يحكم غرناطة وحدها ، ولكن كل بلاد الأندلس الإسلامية التى ضاعت من المسلمين ، وارتفع فوق مساجدها الصليب .

وكان يسر كثيرا بهذه الرؤى ، ويسعده سماعها ، ويستوثق من قائلها أنه قد رأى بالفعل مايرويه ، ثم يستدعى غيرهم ويسألهم عن معنى التأويل .

ولما رأى من حوله ذلك أسرفوا فى قص الرؤى والأحلام عليه ، وقد جعله هذا يعيش فى عالم من الخيال والأوهام يأوى إليه كلما أراد ، أو كلما ضغطت عليه الظروف والمشكلات .

وكانت المشكلات التى تواجه أبا عبد الله الصغير فى هذا المنفى تتمثل فى نفور أهله منه ، وازورارهم عنه ، فلم تكن أمه الملكة عائشة تطيق رؤيته أو الجلوس إليه والحديث معه ، وعندما تضطر إلى هذا كانت تقول له :
- لقد غامرت بحياتى لأنقذك من الموت ، وبذلت غاية جهدى حتى لا يضيع منك هذا الملك ، ثم ضيعته بلا ثمن أو مبرر معقول .

وكان يستمع إليها ذاهلا قليلا ، ويعود ليقص عليها آخر رؤيا رآها ، وماذا قال فى تفسيرها المفسرون .

وتتركه الملكة عائشة وتذهب إلى شئونها ، وكانت امرأة صالحة قوية الشكيمة كما قلنا ، تقضى وقتها فى الصلاة وقراءة القرآن ، وتقول لمن حولها ممن صحبنها إن الله لن يغفر لهم ماصنعوه ، وإنهم أتعس أهل بيت فى هذا العالم .

وكانت تخرج إلى الفلاحين المنتشرين فى تلك القرى الفقيرة تحاول أن تقدم مايمكنها من طعام ومن مال ، وكانت تفكر فى بناء مدرسة لتعليم أبنائهم ومستشفى لعلاجهم ، وكانت تكلم أبا عبد الله الصغير فيتشاغل عنها ، أو يسفه لها هذه الأفكار التى يمكن أن تؤدى إلى بوار الأرض وضياع الزراعة ، ومن ثم ينقص المحصول .

وكان فى أعماقه يدرك أن هؤلاء الأبناء لو تعلموا لأدركوا المصيبة التى حلت بالمسلمين ، وأنهم سوف يعرفون أنه سبب هذه النكبة التى لم يحدث مثلها فى بلاد الإسلام .

وكانت الملكة عائشة تتركه وتكلم غيره من الوزراء والكبراء الذين اختاروا النفى معه فى تلك المسائل الخيرية التى تنوى عملها ، فكانوا يتشاغلون عنها ، فكل واحد منهم فى واد بعيد يفكر فى شئونه ، وفى المستقبل الذى يزداد ظلاما مع الأيام ، وأبو عبد الله الصغير غارق فى الرؤى والأحلام .

وكانت الملكة مريم زوج الملك أبى عبد الله الصغير هى أكثر الناس إدراكا لما جرى لهم وماحدث على أيديهم رغم صغر سنها وقلة تجربتها فى هذه الحياة .

وكانت امرأة جميلة صالحة قد تجاوزت العشرين بسنوات قليلة ، ولم تنقطع عن البكاء يوما واحدا منذ أن جاءت المنفى ، وكانوا يحاولون التسرية عنها ولكن المأساة تعيش فى وجدانها وتتحكم فيها فهى لاتستطيع نسيانها ، رغم محاولاتها المتكررة فى التلهى عنها والتأسى ، فكانت تخرج مع الملكة عائشة عند زيارة الفلاحين للمساعدة ، ثم تغلب عليها الكآبة ، ويخنقها البكاء فتترك الملكة وتعود إلى الدار التى كانت قصرا فى مكان آخر وتعكف فى غرفتها على قراءة القرآن والبكاء .

وكان أبو عبد الله الصغير يخجل منها ، ولايقدر على مواجهتها والنظر فى عينيها الجميلتين النفاذتين العاتبتين ، فيزور عنها ويشير لمن حوله بيده بما يفهم منه أنها قد فقدت عقلها .

ومع الأيام ظن من حولها من النسوة وخدم الدار أنها قد جنت ، وكانت مريم بسيطة لاتتعاظم ولاتتكبر ، وساعد هذا فى تأكيد جنونها لدى ذلك المجتمع الصغير فى قرية « أندرش » الذى صنعه الضياع وسقوط الأندلس ، ومع الأيام صار الخدم لايستجيبون إلى طلباتها أو حاجاتها ، ولم تكن تتذمر أو تضيق ، بل كانت تقوم إلى ماتريد فتفعله صامتة دون عتب أو لوم .

ورأتها الملكة عائشة يوما وهى تغسل ملابسها لإهمال الخدم لها وانصرافهم عنها فمنعتها ونهرت الخدم وأمرتهم بأداء ماتطلبه منهم .

ومنذ تلك الحادثة صارت الملكة عائشة لاتترك مريم إلا فى القليل النادر ، وصارت تسرى

عنها بحكايات الصالحين ، وماتعرفه من سيرة النبى ﷺ ، وهى تجلس صامتة تسمع ، أو تشرد بفكرها وتتذكر كيف غادروا قصر الحمراء وأصوات العويل والبكاء تتردد فى جنباته ، وتنهمر دموعها فى صمت فتفهم الملكة عائشة وتصمت وتشرد ووجهها جامد قد ملىء بالجلال والقوة دون دمع متساقط ، وتتركها وتقوم خارجة لتفعل أى شىء عله يطفىء النيران المستعرة فى صدرها .

وفكرت يوما واستدعت إليها الوزير أبا القاسم عبد الملك الذى صار يقيم معهم فى قرية « أندرش » وقالت له :

- أفكر فى أمر عظيم ياأبا القاسم .

وتوجس أبو القاسم خيفة وامتلأ وجهه قلقا وقال :

- ماهو يامولاتى ؟

قالت الملكة عائشة فى ثبات :

- أريد أن أعزل أبا عبد الله عن العرش .

وكاد عقل الرجل يذهب وهو ينظر إليها فى دهشة شديدة وتمتم قائلا لها :

- أى عرش يامولاتى ؟

ونظرت إليه وقالت له وكأنها تقرر حقيقة مسلمة :

- عرش الملوك من بنى نصر فى غرناطة .

وصار الرجل يتأملها ولايعرف كيف يرد عليها ، ويحملق فيها غير مصدق .

وواصلت الملكة عائشة حديثها :

- لقد تعودنا مثل هذه الأمور ياأبا القاسم ، عزل وأسر وحرب وتشرد ، ثم عودة إلى العرش ، يتغلب القشتاليون يوما ، ثم تُرد الكرَّة إلينا وهكذا ، أم تراك نسيت ؟ لقد عشت هذه الأحداث معنا ، ولكن أبا عبد الله لا يصلح لمثل هذا الجهاد الطويل . نريد أن نقيم على العرش أميرا آخر

من بنى نصر ، ثم نجمع أنصارنا من كل بلاد الأندلس فيثور الناس على فرناندو ، ويجلس الأمير الجديد فى قصر الحمراء ، وهذه المرة لن يكون صلح أو تسليم ، لقد فقدنا موتة شريفة ، وعلينا أن نبحث عنها ، ومشروعى سهل ميسور ولكنه يحتاج إلى رجال .

وبعد أن استوعب أبو القاسم عبد الملك كلامها قال لها بصوت خفيض :

– هل تحدثت مولاتى مع أحد آخر غيرى فى هذا المشروع ؟

– كلا . ليس بعد .

ووقف أبو القاسم عبد الملك وتجول فى الغرفة حيث كان يجلس مع الملكة ثم قال :

– مولاتى الملكة عائشة . تعرفين ولائى لك وحرصى على كل ماينفعك ، لهذا ينبغى لك أن تعرفى أن هذه الأفكار التى تحدثت بها أمامى منذ لحظة تعرضنا جميعا للقتل ، ليس فى ساحة الجهاد كما تقولين ، ولكن شنقا بأمر من فرناندو .

ونظرت إليه عائشة عاتبة ساخرة :

– ظننتك شجاعا مقداما ياأبا القاسم تهتم بمعالى الأمور .

ورد عليها فى حزن :

– لا أحد ممن وقعوا معاهدة التسليم يمكن أن يوصف بالشجاعة والإقدام ، وماينتظرنا أدهى وأمرّ من الذى فات .

– وماذا يمكن أن ينتظرنا ؟

– سوف ترين بنفسك يامولاتى إن قدرت لنا حياة .

– لهذا يجب أن نتعاون من أجل تنفيذ مشروعى ففيه خلاص المسلمين . ورفع يده معترضا ومقاطعا :

– لأجل خاطرك ومكانك عندى سأنسى ماسمعته منك منذ لحظات .

ونظرت إليه مدهوشة :

– ماذا تعنى ؟

وقال لها أبو القاسم متعجبا :

– هل تظنين يامولاتى أنهم قد تركونا هكذا عبثا ؟

– ماذا تعنى ؟

– هناك جيش من الجواسيس يحرسنا ، ويرفع التقارير عنا كل يوم بما نقول ونفعل للملك فرناندو .

– من أخبرك ؟

– مثلى يعرف هذه الأمور دون أن يخبره أحد ، عندما كنا فى غرناطة فى تلك الأيام الخوالى ، كنت أمارس هذا العمل .

– لم تكن تعمل فى الشرطة فى يوم من الأيام حسب علمى .

– أنا الذى كنت آمر صاحب الشرطة وأسيِّره ، وأقرأ تقاريره كل يوم ، وأطلب منه مراقبة هذا ، وإحصاء خطوات ذاك ، وكنا نهتم بالعظماء من الناس ، نعرف كل شىء عن أحوالهم ، هل تذكرين مولاى « الزغل » ؟

– نعم أذكر .

– لم يكن يعيش معنا ، وكان يقيم فى « وادى آش » كما تعلمين .

– هذا صحيح .

– كانت تقدم إلىَّ التقارير يوميا عنه . ماذا يتناول فى فطوره من طعام ؟ متى استيقظ من نومه ؟ من قابل ؟ ماذا فعل ؟ متى تناول طعام الغداء ؟ متى وماذا وأين وكيف ؟ كل هذه الأسئلة كانت تأتينى إجابتها عنه كل يوم ، ولو استطعنا أن نعرف فيم يفكر لفعلنا وكنا أحيانا نعرف .

نحن نعيش هنا فى هذه القرية البعيدة عن العالم (أندرش) ولكن تحت عين فرناندو وبصره ، وترفع عنا التقارير من أناس لانعرفهم ، وربما لايخطرون ببالنا .

ووجمت الملكة وشردت ثم قالت :

- إلى هذا الحد ياأبا القاسم ؟

- وأكثر من هذا الحد يامولاتى . ومن الخير أن تنسى ماتكلمت فيه ولاتذكريه لأحد غيرى بعد ذلك .

ووقفت الملكة وقد علاها جمود وشرود وقالت :

- شكرا لنصيحتك الثمينة ياأبا القاسم .

● ● ●

خرج أبو القاسم عبد الملك من عند الملكة عائشة مضطرب الجوانح مهموما مفكرا وذهب إلى داره الجديدة فى ضواحى « أندرش » ، وكان قد نجح فى بيع أثاثه الذى كان فى غرناطة ، وتناول طعامه مهموما فقد جاء وقت الغداء ، وصارت زوجه تحدثه وهو شارد يرد عليها باقتضاب ، وكان من عادته أن يستريح قليلا بعد الطعام ، ولكنه أمر فأسرج له الحصان ، وخرج يضرب به فى المزارع والهضاب المحيطة بالقرية ، ولم يكن الأمر غريبا أو مستهجنا فكل المنفيين يفعلون هذا ، ليس أمامهم سوى الخيل يضربون بها على غير هدى أو يصطادون عليها ، أو يجلسون للعب الشطرنج ، ثم ينامون ليبدأ يوم جديد . وكان الوقت لايزال باردا رغم أن الزمن يقترب من الربيع ولم تمض شهور قليلة على التسليم ، لذلك فقد ارتدى الوزير ثيابا ثقيلة تقيه لفحة البرد .

وصار يضرب بجواده مجتازا المزارع والبيوت حتى خرج إلى مكان بعيد عن القرية عند هضبة عندها كوخ يستعمله الزراع للراحة والدفء عندما يشتد البرد أو تكون لهم حاجة فى تناول شيء من طعامهم الزهيد الفقير .

وكان الوقت قد اقترب من الغروب ، وليس ثمة زراع فى المكان .

ووقف أبو القاسم ينظر يمنة ويسرة فوجد حصانا قد ربط على مقربة من الكوخ عند الهضبة ، وليس بجواره إنسان ، وسار إلى المكان خبيباً فى ترقب .

كان فتوح الوادى آشي ينتظر الوزير السابق ورئيسه القديم .

كان فتوح يرتدى الملابس القشتالية ، وبدت عليه علامات التكبر والتجبر وهو يتحدث إلى الوزير الذى بادره :

– ماالأخبار ؟

ورد عليه فتوح ساخرا :

– لقد جئت لأعرف منك الأخبار ، لأن تسألنى عنها ، على أى حال قد عزل الكونت دى مندوسا وعين بدلا منه الكونت تندليا محافظا لغرناطة .

– لماذا ؟

ورد عليه فتوح بسخرية أكثر :

– سوف أسأل صاحب الجلالة فرناندو الخامس ، وعندما يخبرنى بالإجابة سوف أبلغك بها . هه . ماذا عندك ؟

ورد عليه أبو القاسم ذليلا :

– لا جديد . الحياة تسير على النمط الذى تعرفون .

– قد تأخر وصول التقارير ويبدو أنك تهمل بعض الشيء فى إنجاز ماينبغى عليك .

ونظر إليه أبو القاسم مشدوها من تغير الأزمنة والمواقع ، ففي وقت مضى لا يتجاوز شهورا كان هذا الرجل نفسه يتمنى منه نظرة رضى أو كلمة إعجاب ، ثم تتغير الأيام ويتكلم معه بهذه اللهجة الوقحة ، ومن ثم يعامله كتابع صغير .

وقال أبو القاسم :

– ليس هناك شيء من الإهمال يافتوح .

وانقلب إليه فتوح وكأنما قد لسعته عقرب :

– ماذا قلت ؟

وازدادت دهشة أبي القاسم ولم يدرك أى خطأ قد ارتكب .

– أقول ليس هناك إهمال أو تقصير .

وبوجه أصفر مكفهر تكلم فتوح بعصبية وصار وجهه كالقرد :

– أنت تتحدث إلى الدون فيلا دى كاسترو .

وفتح أبو القاسم عينيه وفمه من الدهشة :

– ماذا قلت ؟

– ماسمعت . الدون فيلا دى كاسترو ، وعليك أن تنسى اسم فتوح الوادى آشى هذا إلى الأبد .

وهزّ أبو القاسم رأسه متأملا معتبرا وقال :

– قد فهمت يادون فيلا دى كاسترو .

– التقارير ؟

– ماذا عنها ؟

– قد قلت لك : لا تأتى فى موعدها .

– سوف أتدارك هذا يادون فيلا .

وجذبه فتوح وقال له :

– تعال معى . انظر إلى ذلك الحقل . ذلك الذى هناك عند شجرة الزيتون

– ماذا عنه ؟

– سوف يأتى إليه عامل جديد من الغد ، هذا من سيأخذ التقارير . هو الذى سيعرفك بنفسه . يبدو ياأبا القاسم أننا لم نكن نفهم شيئا من أعمال الشرطة عندما كنا مدفونين معكم فى غرناطة . قد تعلمت من القشتاليين وسائل جديدة . طرق المراقبة . تغيير وسائل الاتصال . تبديل العملاء كل حين قريب . تضليل العدو . لقد كنا جهلة بالفعل .

وصار أبو القاسم يكلمه بذلة وتصاغر :

– هذا جميل جدا يادون فيلا . بالفعل هذا شىء جميل .

وامتلأ فتوح إعجابا بنفسه وغرورا :

– الكونت تندليا معجب بى ، لايقضى أمرا فى غرناطة دون أن يسألنى . هه . لم تخبرنى .

– بماذا ؟

وحدق فتوح فى وجهه بإمعان :

– سمعت أن هناك بعض الاتصالات تتم مع أهل البيازين ، وبعض القرى عند جبال البشرات على مقربة منكم .

وشعر أبو القاسم بالخوف :

– اتصالات ؟ لست أفهم ؟

– هناك من يفكر فى ارتكاب حماقة لن يكون لها رد غير الشنق .

وجف حلق أبى القاسم وهو يرد :

– لاتصدق هذه الأراجيف يادون فيلا ، الناس فى شغل عن ارتكاب الحماقات . والتقارير تقول إن كل شىء هادىء .

ونظر فتوح فى عينيه :

– هل تظن هذا حقا ؟

وشعر أبو القاسم بالخوف ، ترى هل بلغه شىء عن حديث الملكة ؟ وسرعان ماتغلب على خوفه للحظة وقال :

– لو بلغنى شىء من هذا فسوف أقوم بإخبار الدون فيلا دى كاسترو .

ومن بين أسنانه قال فتوح :

– لو حدث شىء من هذا ولم تسمع به فسوف تشنق ياأبا القاسم .

هل فهمت ؟

– قد فهمت .

وعاد فتوح فابتسم وأبدى شيئا من الرضى وقال لأبى القاسم :

– لماذا لاتأتى إلى غرناطة ؟

– لاأحب أن ينسب إلى سالم أفعل ، والحياة هنا فى « أندرش » هادئة .

– هل تسجن نفسك ياأبا القاسم ؟ حاول أن تأتى لزيارتى بين الحين والآخر .

وغمغم أبو القاسم :

– سوف أفعل يادون فيلا دى كاسترو .

وخرج معه من الكوخ يودعه ، وامتطى فتوح حصانه ، وضرب به الأرض هابطا من التل ميمما شطر غرناطة .

وسار أبو القاسم عائدا إلى « أندرش » فى كآبة لاحد لها .

● ● ●

ظلت تبكى طول هذا النهار ، ويحاول من حولها التخفيف عنها فلا تستجب ، ويسألونها عما بها فلا ترد ، ولكن البكاء يزداد حتى كاد صدرها ينشق ، وتبحث عن الراحة فلا تجدها ، وتلتمس الرحمة فلا يرد عليها غير صدرها الذى يغلى كالمرجل من داخلها ، وكانت امرأة تقية نقية شديدة الحساسية ، قد جرح كبرياؤها جرحاً من الصعب أن يندمل ، غارقة فى ذنب لم تفعله ، تبكت نفسها على خطيئة لم ترتكبها .

وفى الليل عندما أغلقت على نفسها الباب وحاولت النوم شعرت بجسدها يرتعد من البرد رغم أن جسدها ساخن شديد الحرارة ، وتحاملت على نفسها وأيقظت إحدى الوصيفات وطلبت منها أن توقظ الملكة عائشة . وجاءت الملكة عائشة على عجل ومعها أخوات الملك أبى عبد الله الصغير الذى قدم هو الآخر ووقف فى آخر الموجودين ،وما إن رأته الملكة مريم التى كانت ترتعد حتى صرخت مشيرة إليه :

– أخرجوه !

ولم ينتظر أبو عبد الله الصغير أن يخرجه أحد،ولكنه خرج حانقا غاضبا ووقف على مقربة من الباب ينتظر .

واقتربت منها عائشة وجلست بجوارها وهى تتحسسها :

– ماذا بك ياحبيبتى ؟ أنت بخير إن شاء الله .

وبصوت واهن مرتعد أجابت مريم :

– أنا بخير ؟ ومن أين يأتى الخير بعد ماحدث لنا ياأماه ؟

وكانت تناديها « بأمى » دائما ، وكانت تحبها حبا شديدا .

وأمرت الملكة عائشة إحدى الواقفات باستدعاء الطبيب،ثم عادت إلى مريم المحمومة التى صارت تهذى :

- كان المسلمون يستطيعون الصمود أمام الحصار .
وترد عليها عائشة :
- لا عليك ياحبيبتي سوف يأتى الطبيب وتكونين بخير .
وواصلت مريم هذيانها :
- لو وزعوا السلاح على الشعب لوجدوا جيشا كبيرا يقتلع قوات فرناندو ولكنه يخاف على عرشه من الناس ، العرش أبقى من الإسلام وأعظم فى نفوس الضعفاء ، ولكن الحياة تنتهى على أى حال ، إما فى طاعة الله أوفى المنفى مع العبيد والزراع .
وتحاول عائشة أن تخفف عنها وتجعلها تستريح :
- هونى عليك يامريم ، هونى عليك ياابنتى .
ونظرت إليها مريم مستعطفة ومدت لها ذراعها كأنما تريد أن تفضى لها بسر لاتحب أن يسمعه أحد :
- أمانة ياأماه أسألك عنها يوم القيامة .
ولأول مرة ينساب الدمع من عينى عائشة :
- ماذا تريدين ياحبيبتى ؟
ومن بين الغمرات صارت تقول :
- أولادى ربيهم على الإسلام واجعليهم يحفظون القرآن .
وتساقط دمع الملكة عائشة على وجه مريم المحتضرة وهى تهمس لها بضعف :
- لاتجعليه يسير فى جنازتى . هذه أمانة فى عنقك أسألك عنها أمام الله .
ثم ماتت .
وانقلبت الملكة عائشة تحدق فى وجوه الواقفات الباكيات ثم صرخت :
- الطبيب ، أغيثونى ، الطبيب .

ولأول مرة يرتفع صوت الملكة عائشة بالنحيب والبكاء ، وكأنما قد أودعت فيه كل ماشعرت به من عذابات السنين . وارتفع العويل والنحيب الملكى حتى غطى كل القرية ، واستيقظ الناس جميعا ، وانضمت النسوة إلى المنتحبات ، وأحاطت الحاشية بمجلس الملك ، فقد ماتت الملكة مزيم ، وقد رفض الكونت تنديليا دفنها بمدافن الأسرة بقصر الحمراء بحجة أن الظروف لاتسمح بإقامة مثل هذه الجنازة فى غرناطة .

● ● ●

كانت الملكة عائشة صارمة فى تنفيذ وصية الملكة المتوفاة ، فأمرت ولدها بعدم السير فى الجنازة ، وتعلل أبو عبد الله الصغير بالمرض ، ورغم حنقه لهذا فقد وجدها فرصة ليلحظ وصيفة من وصيفات زوجته المتوفاة كانت تعجبه ، ولايستطيع التصريح بذلك خوفا من أمه ومن مريم ومن الجميع .

كان الخوف هو الذى يحكم سلوكه دائما .

ومرت به الجارية التى يعنيها لبعض الشئون فطلب منها قدحا من الماء يشربه ، ودهش إذ لمح فى عين الجارية نظرة بغض وازدراء ، وانصرفت دون أن تجيبه أو ترد عليه .

فى هذا الوقت كان موكب الجنازة يمر متعرجا حسب الطريق إلى ناحية مهجورة من نواحى القرية ، حيث توجد بعض المقابر الفقيرة الحقيرة ، وأودعوا الملكة فى واحدة منها ، فلم يكن منهم من ينتظر الموت ، وفى التراب يستوى الجميع فى رقدة طويلة لايقومون منها إلا عند البعث .

تزامل أبو القاسم عبد الملك ويوسف بن كماشة فى الطريق بعد الانتهاء من دفن الملكة مريم فقال له :

– هناك ماأود أن أسره لك .

والتفت إليه ابن كماشة مستفسرا :

– وماهو ؟
– لاأريد أن يسمعه أحد .
ونظر إليه ابن كاشة فى فضول وقلق :
– نلتقى فى دارى عند المساء .
– سنذهب لعزاء الملك فى المساء .
وهزّ ابن كاشة رأسه حائرا :
– وماذا ترى ؟
– نتنحى ناحية ونتحدث عندما يذهب الناس .
– كما تشاء ياأبا القاسم .
وانتحيا جانبا فى مكان مهجور وبدأ أبو القاسم الحديث :
– سأقول لك ماقد تزدرينى بسببه .
– وماهو ؟
– أنا أكتب التقارير عن الأحوال فى « أندرش » ولكنى لا أكتب فيها كل ماأسمع صدقنى فى هذه ياابن كاشة .
وحدق فيه ابن كاشة وفى فمه مرارة لاتزول :
– ولماذا تخبرنى بهذا ؟
وأجاب عبد الملك :
– قد جاءتنى الأوامر بلقاء الكونت دى ثافرا فى غرناطة .
– ومادخلى فى هذا ؟
– طلب أن تأتى معى .
– هذا حسن . ومتى الموعد ؟

– سوف يخبروننا فى الغد ، وعلينا أن نخلق سببا وجيها للذهاب إلى غرناطة .

– هذه مسألة سهلة على أى حال .

وتفرس فيه عبد الملك :

– ولكنك لم تدهش عندما أخبرتك أننى اكتب التقارير وأرسلها .

– كلا لم أدهش .

– لماذا ؟

– لأننى أفعل مثلك ، لم يعد أمامنا خيار يأبا القاسم ، والسقوط لاقرار له ، ليست هناك نقطة ينتهى عندها من ينزلق إلى قاع مجهول .

وعادا صامتين إلى القرية ، وقد شملتهما نوبة من الكآبة والحزن من مشهد الموت القريب ، وبين حيرة وضياع بين قبلة يتوجهون إليها فى الصلاة ، وزيارة للكونت سوف يتركون فيها جزءا كبيرا من دينهم وشرفهم بالتأكيد . والغريب العجيب المثير للدهشة أن كلا من الرجلين كان يتسم بالطيبة والوداعة ولين الجانب ، وكان كل منهما يتبارى فى عمل الخير والبر بالفقراء والحفاظ على الصلاة فى وقتها وميعادها ، ويصومان رمضان ، ولم يستطيعا الحج لانشغالهما الشديد فى خيانة الإسلام والمسلمين .

وكان واحد منهماوهو أبو القاسم عبد الملك يبكى أحيانا بعد الصلاة ويدعو :

– اللهم اغفر لى ذنوبى فهى كثيرة .

وتقول له زوجه فى دهشة :

– لاأعرف لك ذنوبا كثيرة .

فيسمح دموعه ويسألها :

– هل أعددت طعام الغداء ؟

● ● ●

وقد مرت شهور على وفاة الملكة مريم ونسيها أبو عبد الله الصغير ، وانصرف إلى ماهو فيه من لهو وعبث ومجون ، ولم يعد يفكر فى قصة غرناطة وتسليمها ، ولم يعد يرتاح إلى الجلوس مع أمه ، بل ظل يعبث مع الجوارى ، ويحتسى قدحا أو قدحين من الخمر سرا دون أن تعرف الملكة عائشة .

ومع بداية الربيع – وكان أبو عبد الله يجلس على سجادة ينظر من النافذة القريبة التى تسمح للجالس بمشاهدة الطريق ، وكان متكئا على وسادة يمتع نظره بخضرة الأشجار التى بدأت تظهر والشمس ترسل ضوءها الخفيف الحانى على الأرض والبيوت – لمح أبو عبد الله الصغير الوزيرين أبا القاسم عبد الملك وابن كماشة على جواديهما فى طريقهما إلى داره ، وكان الوقت عصرا ، وكانت لهما مدة طويلة لم يزوراه .

وسعد أبو عبد الله لمقدمهما ، فقد كان يعيش فى وحشة ، وليس هناك من يمكن أن يزوره هو ، أو من يأتى إليه .

وقام نشطا سعيدا ليلقاهما ، وكأنه يستعجلهما للحضور .

ودخلا واستقبلهما فجلسا ، وهو بهما سعيد ، وفى وجهيهما جهامة وقتامة ، لم يستطع واحد منهما إخفاءها .

وقال الملك لهما :

– ماذا هناك ؟ مابكما ؟

وارتبك الوزيران عندما رأى أحدهما الملك ينظر إلى الأوراق التى بيده وقال :

– لاشىء يامولاى ، لقد جئنا لزيارتك ، هل تضايقك زيارتنا ؟

وقال لهما متحيرا :

– كلا ، أنا سعيد بكما ، لم يعد هناك من يؤنس وحشتى غيركما .

ونظر مرة أخرى ناحية الأوراق التى كان يحملها عبد الملك ثم وضعها جانبا وقال :

– ماذا فى هذه الأوراق ؟

وقال عبد الملك متلعثما :

– هذه يامولاى .

وقاطعه ابن كماشة :

– لقد جئناك فى أمر مهم خطير يامولاى .

واصفر وجه الملك وبدا القلق عليه ، ولكنه تمالك وقال :

– وماهو ؟

وكانت الملكة عائشة قد جاءت لتحيتهما ، وماإن سمعت هذه العبارات حتى وقفت تستمع خلف الستر .

وقال عبد الملك :

– فى الحقيقة يامولاى إن هذه البلاد لم تعد لك مقاما حسنا آمنا تستريح فيه .

وزوى الملك مابين حاجبيه وقال :

– ماذا تعنى ياأبا القاسم ؟

وتدخل ابن كماشة :

– أنت تعرف يامولاى حبنا لك وحرصنا عليك ووقوفنا بجانبك ، ربما يكون هناك من يدبر قتلك .

– أنا ؟

– نعم أنت .

– لماذا ؟

– الغوغاء يملئون البلاد .

– أنا لا أغادر القرية أبدا ، ومعى حرس ليس معهم مدافع ، ولكن فى أيديهم مايكفى للدفاع عنى . ما القصة على وجه التحديد ؟

وقال عبد الملك :

– القصة يامولاى أنه ينبغى عليك مغادرة أرض الأندلس .

– إلى أين ؟

– إلى المغرب إلى مصر ، بلاد الله واسعة والأمن مطلوب .

– وأرضى وضياعى ؟

– سوف نحصل على ثمن طيب عند بيعهما .

– ومن يشتريهما ؟

– لن نعدم مشتريا لهما .

وضحك الملك ضحكة صفراء وقال :

– دعونا من هذه الأباطيل ولنلعب دورا للشطرنج .

وقال أبو القاسم عبد الملك :

– الأمر جد خطير يامولاى .

وترك الملك عدة الشطرنج التى كان يسحبها من طاق فى الحائط وعاد إليهما :

– اسمع ياأبا القاسم وأنت ياابن كاشة ، لن أترك هذه البلاد التى ولدت فيها أنا وآبائى ، وعشت على أرضها واستنشقت هواءها مهما كانت الدواعى لهذا ، وأنتما تتكلمان بألغاز ، ولا أرضى بذلك منكما .

ثم نظر ناحية الأوراق وقال :

– لم تخبرنى عن هذه الأوراق .

وشعر عبد الملك بشىء من الحرج عندما شاهد الملكة عائشة تخرج إليهم من خلف الستر ، فقاما لها واقفين ، ولكنها لم تبدأ أحدا بسلام ، وكانت لاتزال ترتدى ثياب الحداد البيضاء على مريم الملكة التى دفنت منذ شهور .

وعاد الملك يقول :

- ماهذه الأوراق .

وتبادل عبد الملك النظر فى الوجوه ، ولمح تلك النظرة الساخرة المرة فى وجه الملكة عائشة ، وكأنها تقرأ من كتاب الغيب وقالت :

- هذه العقود الخاصة ببيع أرضك وكل ضياعك ، قد جاءتك لتشرفها بتوقيعك الكريم .

ونظر إليهما الملك زائغا :

- هل هذا صحيح .

وقال ابن كماشة :

- هذا صحيح يامولاى .

وملأ الذهول الملك وهو يردد :

- عقود للبيع والتنازل عن أرضى وضياعى ؟ لمن ؟

وقالت الملكة عائشة بصوت بارد كأنه نصل سكين :

- للملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيلا .

ولم يعلق أبو القاسم وابن كماشة بكلمة ، ولكن الملك سألهما :

- هل هذا صحيح ؟

فقال عبد الملك :

- نعم يامولاى .

والتفت الملك إلى أمه :

– وهل كنت تعرفين ؟
– قد عرفت اللحظة .
وثار الملك ثورة عارمة ، بينما انسحبت الملكة عائشة إلى غرفتها ، وسكت كل من أبى القاسم عبد الملك وابن كماشة حتى هدأ الملك ، ثم قال ابن كماشة :
– مولاى نحن هنا فى سجن كبير ، يجب أن تعلم هذا .
– هناك عهود مكتوبة قد وقعها الملكان وشهد عليها الكردينال وكل الأشراف والنبلاء !
وتبادل أبو القاسم وابن كماشة النظر ، ثم قال أبو القاسم :
– نحن لانشك فى وعود الملكين الكاثوليكيين وعهودهما ، فهما تقيان أمينان لايكذبان ، يكرمان الضعيف ، ولكن هذه العقود المكتوبة تتضمن بيع كل أراضيك وتنازلك عنها للملكين الكاثوليكيين نظير ثمن جيد .
وانتبه أبو عبد الله الصغير :
– نظير كم ؟
– واحد وعشرين ألف جنيه قشتالى من الذهب الحر الخالص .
واتسعت عينا الملك دهشة من الرقم الذى ذكر،فقد كان كبيرا ولكنه عاند :
– كلا . لن أبيع !
ثم اتجه ناحية الأوراق وقلب فيها وقال :
– هذه أوراق كثيرة .
وقال أبو القاسم :
– نعم يامولاى بعض التعهدات التى يجب عليك توقيعها . التعهد بالعبور إلى المغرب فى موعد أقصاه شهر أكتوبر من هذا العام سنة ١٤٩٣ م . وهذا هو التنازل عن كل الاختصاصات التى منحتها لك معاهدة التسليم .

وقال لهما الملك :

– وأنتما ماذا تفعلان فى أرضكما ؟ هل ستبقيان ؟

وقال ابن كماشة :

– لقد باع كل واحد فينا أرضه وضياعه .

وقال الملك :

– وماذا أيضا ؟

– وكذلك الأميرات والملكة عائشة ، هذه هى عقود البيع بنفس الشروط الممنوحة لكم يامولاى .

وتدخل ابن كماشة :

– ليس هناك خيار فى هذا ، هذه هى أوامر الملك فرناندو،وليس أمامنا غير التسليم بها والموافقة عليها .

وقال الملك مذهولا :

– ومعاهدة التسليم ؟ إنها لاتقضى بشىء من هذا .

وقال عبد الملك :

– ليس فى معاهدة التسليم عدم التوقيع على عقد بيع أو تنازل ، هذه أمور ليس لنا فيها خيار يامولاى .

وقال ابن كماشة :

– وسوف يعد لك الملكان العربات اللازمة لنقل الأمتعة ، والسفن التى تجوز بها البحر .

ونظر إليهما الملك يائسا :

– وماذا لو رفضت ؟

وأشار أبو القاسم إلى عنقه كناية عن الذبح وقال :

- لايمكنك الرفض يامولاى .

- ولماذا لم تخبرانى ؟

- لقد بذلنا غاية جهدنا فى الحصول على أحسن شروط ، والأوامر تقضى بعدم ذكر شىء لك . والمخالفة قد يكون جزاؤها القتل .

وقال الملك شاردا :

- وكم بقى على شهر أكتوبر ؟

قال أبو القاسم .

- نحن الآن فى شهر إبريل يامولاى .

● ● ●

ومازال الوزيران بالملك حتى هدأت نفسه وارتاح وعلم أن عليه التسليم بالواقع المر وأن الجميع مجبورون على طاعة الملكين الكاثوليكيين ، وأنه من الخير أن يغادر بلاده التى نشأ فيها ، وقد علمته التجارب المرة أن مايعرض اليوم ، قد يعرض أسوأ منه فى الغد ، فوقّع العقود ، وكتب خطابا بخط يده إلى الملكين ، يوافق فيه على مافعلوه معه ، ويشكرهما على حسن ضيافتهما له تلك الفترة التى انقضت ، وأنه يقسم ويلتزم بالسفر فى الموعد الذى اتفق عليه .

أما الملكة عائشة فلم تقبل التوقيع على أى من هذه العقود ، وأدت صلاة العشاء فى تلك الليلة ، ودخلت فراشها فى هدوء ، ولم تستيقظ على غير عادتها لصلاة الفجر !

وفى الصباح وجدوها فى فراشها وقد فاضت روحها الطاهرة .

هل قتلها أعوان فرناندو خنقا ؟ أم ماتت موتة طبيعية هما وكمدا ؟

الله وحده يعلم !

ورفض الكونت « تنديليا » أيضا دفنها بمدافن الأسرة بقصر الحمراء ، لأن الظروف لاتسمح في الوقت الحاضر بمثل هذه الجنازة ، لما أنه هي محل حب شعب غرناطة ، الذى يتميز من الغيظ من هول مايدور .

واستمر الملك رغم مصيبته فى عمل الإجراءات اللازمة للرحيل ، وكان شرط تسليم الذهب ، هو قبل رحيله بثمانية أيام .

● ● ●

لم يكن هناك من هو أتعس من أبى عبد الله الصغير ، فقد فقد الشرف والأهل والوطن وراحة البال ، وتحول كل هذا إلى أقل من بضع عشرات من ألوف الجنيهات القشتالية الذهبية .

وغادر بلاد الأندلس من ثغر « أدرة » فى أوائل أكتوبر من عام ١٤٩٣ م ومعه بعض أهله وولده وسبعمائة من أتباعه وخدمه والمرتبطين به .

ونزل أبو عبد الله الصغير مليلة ، ومنها إلى فاس ، وكانت تحت حكم بنى وطّاس الذين خلفوا المرينيين فى الحكم ، وكان قد أرسل يستأذن السلطان أبا عبد الله محمد ابن الشيخ زعيم بنى وطّاس فى الإقامة فى كنفه وحماه .

وكان قد أرسل إليه كتابا بليغا مؤثرا قد أنشأه له وزيره وكاتبه محمد بن عبد الله العربى العقيلى ، وجعل له عنوانا هو « الروض العاطر الأنفاس فى التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس » .

وقد ترك غرناطة مجموعة كبيرة من أهل الفكر والأدب والعلم عندما علموا بما تم مع أبى عبد الله الصغير ، فلم يكن أحد ينتظر خيرا من الملكين الكاثوليكيين ، فقد كانت نواياهما واضحة تجاه المسلمين ، وقد أثبتت الأيام هذا .

● ● ●

استقر أبو عبد الله الصغير فى فاس بعد أن قبله السلطان أبو عبد الله محمد الوطّاس لاجئا سياسيا فى بلاده ، وبعد أن اعتذر له وبينّ أنها أقدار تجرى على الناس بما يحبون وبما يكرهون ، وكانت رسالته مليئة بالتزلف والتملق والاعتذار ، ويبدو أن الرجل قد ألف هذا الضرب من السلوك ، فالذى يجعله يتملق ملكا نصرانيا ، ليس عليه من عار لو فعل ذلك مع سلطان مسلم .

نزلت بالناس سنة رديئة ومجاعة عظيمة يوم نزول أبى عبد الله إلى فاس ، وقال البعض إنها لعنة ذلك الذى ضيع بلاد الإسلام .

أقام أبو عبد الله الصغير قصرا عظيما على الطراز الأندلسى ، وصار ينفق من ثمن غرناطة الذى قبضه من الملكين الكاثوليكيين ، يحاول أن ينسى مأساته بسماع الموشحات الأندلسية تعزفها له الفرق التى يستأجرها ، فيذكرونه بوطنه الذى أضاعه فيعود إلى الهم والغم من جديد ، وعاش حياة شاقة كريهة ، ماجلس إلى أحد أو جلس أحد إليه إلا وبدأ فى الاعتذار عما حدث وأنه لم يكن له ذنب فيما جرى ، حتى ملّ الناس وملّوه ، وكرههم وكرهوه .

وعاش حياة مجهولة لم يعرف تفاصيلها أحد ، ومات موتة لم يتفق عليها المؤرخون ، وأشهر ماقيل فيها ، أنه خرج وهو فى الخامسة والسبعين من عمره عام ٩٤٣ هـ الموافق ١٥٣٦ م مجاملا لحفيد السلطان الذى آواه ، وكان فى حرب مع بعض أعدائه المحليين من السعديين الخوارج عليه وقتل أبو عبد الله الصغير فى هذه الحرب بعدما شاخ دفاعا عن وطن آخر وفى سبيل دولة أخرى ، وكان أجدر به أن يموت عند أسوار غرناطة شابا يافعا . ترك من الأولاد أحمد ويوسف . وقد رأى أبناءهما المقرى فى « فاس » شيوخا يتسولون ويعيشون من الصدقات .

وكان المقرى قد نزل فاس فى أوائل القرن السابع عشر الميلادى عام ١٦١٨ م الموافق ١٠٢٧ هـ يبحث عن آثار الملك أبى عبد الله الصغير ، وزار قصره وتجول فى جنباته ، وكان ولداه قد باعاه منذ زمن مضى .

ثم زارها بعد ذلك بعشر سنوات،وعرف من أمر بنيه وأحفاده وذلهم وفقرهم واحتياجهم للناس ماجعله يعتبر ويتعظ .

كان أبو عبد الله صغيرا فى تهاونه وتخاذله حريصا على دنيا تفلتت من بين أصابعه مع الزمن ، ولم يرث أحفاده وأولاده عنه غير الجوع والتشرد والحرمان .

ولم يصل إلى أيدينا دليل واضح بين على خيانته ، ولو أن إصبع الاتهام تشير إليه دائما فى تصرفاته المشبوهة التى أدت إلى ضياع ملك المسلمين .

نشأ فى عصر غريب عجيب ، وربى فى القصر على الدسائس والمؤامرات والكيد ، وكان العرش هو المطمح الأسنى لكل أمير ومتوثب،وفى سبيل العرش أضاع أبو عبد الله الصغير العرش والشرف وحسن الأحدوثة .

وستظل الطريقة التى مات بها عبرة لكل من يريد أن يعتبر .

أن يموت فى القتال .

شيخا فى الخامسة والسبعين .

فى غير بلده .

وتحت راية غيره .

يدعم ملكا ليس له .

ثم يشاء القدر أن يظل شاهد قبره ، حيث كتب عليه اسمه وتاريخ مولده ويوم وفاته وصفته ، عتبة لباب منزل صغير بمدينة تلمسان[1]،يطأه الناس بأقدامهم فى دخولهم وعندما يخرجون .

---

(١) معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى للمستشرق زامباور،أخرجه الدكتور زكى محمد حسن بك وآخرون،طبعة دار الرائد العربى بيروت – غير محدد التاريخ ص ٩٤ .

هذا هو محمد بن على بن نصر .
أو أبو عبد الله الصغير .
أو محمد الحادى عشر .
أو آخر ملوك غرناطة الإسلامية .

غرناطة تحت حكم النصارى

لم يكن ينتظر المسلمين بعد السقوط غير الإبادة !

طعنة غادرة بليل ، وهو ماحدث لبعض الكبراء ، وقيدت الحوادث ضد مجهول . أو تحريق بالنيران فى ميدان عام ، بعد المرور على ديوان التحقيق ، إلى محكمة قد شحنت بالأحبار والرهبان .

أو التنصير !

التنصير الحقيقى ! وهو أمر صعب وفيه شك كبير ، ولايقبل بسهولة من الذين يحتمون به من المسلمين .

● ● ●

كان موكب « الأوتودافى » Auuto - da - Fé يمر بشوارع المدينة – كل مدينة – فى حين قريب أو بعيد .

وإن تباعد الحين سأل الملك فرناندو عن السبب ، وسرعان مايعود .

وكان هذا الموكب مشهورا فى تلك الأيام ، فهو موكب الإحراق .

فهم يقودون المحكوم عليهم بالموت حرقا عبر الطرقات ، حتى الساحة التى يتلون عليهم فيها حكم المحكمة – وقراراتها غير قابلة للنقض – لأول مرة ، ثم يتم تحريقهم وسط ضجة المتفرجين وسرورهم وهياجهم ، من روعة ما يشاهدون .

وكانوا يأتون بأهل المحكوم عليهم ليشاهدوا مايحدث ، ولا يمكنهم أن يمتنعوا ، ويعلو صراخ البنين والبنات والزوجات والأمهات .

ويطمئنهم الحبر الأعظم ، الذى يشرف على التنفيذ وهو يتسم لهم فى وداعة وطيبة وإيمان :

– كل هذا من أجل خلاص روحه ، يجب أن تفرحوا له وتسعدوا لا أن تبكوا وتندبوا ، النار تطهره ، وحسنة لكل من زاد فى إشعالها ، هيا تقدموا وافعلوا .

هكذا كانوا يفعلون بالمسلمين !
من ثبتت ضده تهمة الإسلام !
وكانوا يقبلون شهادة الأطفال والخدم والعبيد والمجانين والسكارى وأى شهادة ضد المتهم .

ولاتقبل أية شهادة فى صالح المتهم مهما كان صاحبها عدلا .

وكانوا يأخذون المتهم من زنزانته قبل أن يحرق – وهو عنده أمل فى النجاة – فيضعون عليه ثوبا بسيطا ، وأحيانا يضعون على هذا الثوب رسوما شيطانية تبعث الخوف ، ويحيطون عنقه بحبل ، ويضعون فى يده شمعة ، ويسوقونه كشاة تساق إلى الذبح .

يدخلونه الكنيسة ليتطهر ويتوب !
ويجرونه عبر الطرقات بين صياح الناس .
وأمل المسكين أن يكون الحكم بالمصادرة أو السجن أو الجلد .

وهناك فى الساحة يقرأ عليه الحكم بالإحراق ، ويعرفه للمرة الأولى .

والفوز والسعادة لمن يسمح له الحبر الأعظم بوضع الوقود للنيران ، قطعة من الخشب تمسح الذنب ، لو ألقاها الخاطىء فى النيران التى يحرق بها الكافرون .

وكانوا أحيانا يرغمون الأهل على فعل ذلك ؟
وكان الإحراق بطيئا حتى لايتم الموت بسرعة فتأخذ الروح فرصة للسمو والتطهر ، فالألم هو أعظم مايتغلب به الإنسان على الشيطان .

وكان الإحراق حتى لايراق دم .

فإراقة الدم فى نظرهم حرام !

ومن ينجو منهم ، ولم تثبت التهمة عليه ، كانوا يسلمونه للسلطة المدنية ، فهو لايستحق شرف الإحراق ، بل تقطع رأسه بالفأس .

وكان هناك من يرد إلى السلطة المدنية ، وهو صاحب ثراء عريض ، فيرسل أهله يشترون روحه بمبلغ كبير من المال إلى صاحب الكرسى الرسولى فى روما ، حيث كانت هذه الفديات تمثل دخلا كبيرا للبابوية ، هذا رغم ندرة الناجين من هذا الباب .

هكذا كانوا يفعلون بالمسلمين !

وكذلك يفعل بالمجرمين يوم القيامة !

● ● ●

وكان فرناندو الخامس يحرص حرصا شديدا على حضور هذه الحفلات ، ثم يبدى إعجابه الشديد بما رأى ، ويسرف فى الثناء على الأحبار والرهبان الذين قاموا بتنفيذها .

وإن تأخرت هذه الحفلات ، كان يسأل عن سبب تأخرها .

وما كان أسهل من إجابة الملك الكاثوليكى الورع إلى طلبه .

حتى إن هذه الحفلات كانت آخر ماذكره قبل أن يموت .

فعندما حضرت فرناندو الوفاة فى يناير ١٥١٦ م كان آخر ماأوصى به حفيده شارل الخامس أن يهتم بمحاكم التحقيق ، وأن يختار المحققين أصحاب الضمائر الحية ، الذين يخشون الله ، حتى يعملوا بإخلاص وحزم وصلابة لخدمة دين الله ، والقضاء على المسلمين وإبادتهم فى كل بلاد الأندلس .

كان هذا آخر ماأوصى به فرناندو قبل أن يموت !
وكان يقول للأحبار والرهبان الذين يقومون على هذه الجرائم وتنفيذها :
– أنتم تقدمون أعظم خدمة للمسيح والكنيسة ، ولترتح ضمائركم الحية ، فموت مائة برىء خير من نجاة مذنب واحد ! أجبروهم على الإيمان ، فهكذا تحدث الإنجيل !

وهذا ماوجده المسلمون فى غرناطة وكل بلاد الأندلس بعد السقوط !
المحارق والأنطاع كما قال الشهيد موسى بن أبى الغسان ناصحا لكبراء غرناطة . وكان ديوان التحقيق يقوم – بمعرفة أعضائه – بهتك أعراض الفتيات المسلمات والزوجات فى قرطبة أثناء التحقيق . واستطاع الأثرياء بالرشوة الكبيرة أن ينجحوا فى عزل محقق قرطبة العام .

ولكن تم ذلك بعد سنوات ، كانت الأعراض تهتك فيها كل ليلة .

وكان أصحاب القداسة يهمسون فى آذان بعضهم بأسماء بعض الفتيات .
ولم ينقطع هذا تماما بعد عزل المحقق العام ، ولكن قلّت حدته على نحو ما .

كيف بدأ ديوان التحقيق فى الأندلس ؟

كان الراهب « توركويمادا » هو معترف الملكة الصالحة إيزابيلا الكاثوليكية ، وكان له نفوذ كبير لديها ، فهو الشخص الوحيد الذى يعرف كل آثامها بحكم الاعتراف ، وربما شارك فى بعضها ، ومازال بها حتى أقنعها بأهمية البحث عن الكفرة وتنقية العقيدة ، والتوسل لدى صاحب الكرسى الرسولى فى روما بهذا الشأن .

وأصدر البابا سكستوس الرابع مرسوما بإنشاء ديوان التحقيق فى قشتالة عام ١٤٧٨ م[1] بناء على إلحاح فرناندو وإيزابيلا الكاثوليكيين .

وبدأ عمل هذا الديوان منذ ذلك التاريخ ، أى قبل سقوط غرناطة بمدة قليلة . وكانت المدن الإسبانية الكبرى قبل سقوط غرناطة وبعدها ، بها عدد غير قليل من المسلمين المتمسكين ، والمدجنين الذين بدءوا يفقدون اللغة العربية رويدا رويدا ، ويتسمون بأسماء قشتالية ، ويرتدون ملابسهم .

وكان هؤلاء هم مجال العمل لديوان التحقيق .

وكانت جميع المساجد فى سائر أنحاء الأندلس قد تحولت إلى كنائس قبل السقوط . وأبطلت صلاة الجمعة إلا فى بعض الأنحاء المترامية ، وسراً دون أن يعلم أحد .
ودخلت غرناطة فى مجال العمل بعد السقوط،ولكن قليلا قليلا وبهدوء .

فقد كان فرناندو على تعصبه وقسوته وحمقه سياسيا بعيد الغور . فقد وجد أن غرناطة تموج بالمسلمين أهلها الأصليين ، هذا إضافة إلى من وفد إليهم من سائر ممالك البلاد ، وليس لدى فرناندو إحصاءات دقيقة بمعرفته عن التعداد ، وليست لدى أجهزته بيانات مؤكدة عن الأسلحة التى يحتفظ بها الأهالى ، ما أنواعها ؟ وحجمها ؟ وكميتها ؟ وسائر هذه الأسئلة .

---

١ – قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام د . توفيق الطويل ، القاهرة ، دار الفكر العربى طبعة ١٩٤٧ م ، وهو هنا يختلف مع محمد عبد الله عنان فى تاريخ المرسوم البابوى الذى يجعله فى عام ١٤٨٠ م ونحن أميل إلى التاريخ الأول لتزامن هذا مع البابا . ونحن أيضا مع الأستاذ محمد عبد الله عنان فى إطلاق اسم ديوان التحقيق وليس محكمة التفتيش كما ذكر صاحب المرجع ، لأن ديوان التحقيق أو محاكم التحقيق هى الترجمة الصحيحة لكلمة **Inquisition** وهو ماوجدناه فى دائرة المعارف اليهودية تحت هذه المادة حـ ٨ طبعة سنة ١٩٧٨ م .

ومن ثم كان لابد من فترة يستطيعون فيها تحديد حجم البشر الذين سيتعاملون معهم كسلطة مدنية ودينية . لهذا بدأ فرناندو أول عهده مع الغرناطيين متظاهرا باللين والمهادنة ، وكان كثيرا مايعود إلى نفس السياسة ، عندما يجد أنه من المناسب هذا ، فمع البطش الشديد الذى أبداه بعد ذلك ، إذا به يصدر عفواً عاما ، وهكذا كان شأنه عندما تشتد الثورة الإسلامية فى منطقة ما .

كانت سياسة فرناندو نفعية ، مجردة من الأخلاق ، تتذبذب بين البطش واللين حسبما ماتمليه الظروف ، وماتقتضيه الأحوال .

أوائل من تنصر أيام السقوط

كان أول من تنصر فى الأيام الأولى عدد قليل ، ولمعظمهم ظروفه الخاصة .
فمثلا ثريا أو إيزابيلا وولداها سعد ونصر .

والرأى ماقلناه من قبل من أنها نبت قشتالى قد زرع فى بلاط السلطان أبى الحسن والد أبى عبد الله الصغير .

ونلاحظ أن ذكرها لم يرد فى معاهدة التسليم ، عند الحديث عن حقوق وأملاك زوجة السلطان أبى الحسن ، فقد ورد ذكر الملكة عائشة فقط ، ولم يأت ذكر ثريا رغم أنها زوجته هى الأخرى ، فكأن حقوق الأخيرة مشروعة ومتفق عليها ، أما الملكة عائشة فهى التي تحتاج إلى ضمانات .

وعند سقوط غرناطة وبعد أن تسلمها الملكان الكاثوليكيان أعلن كل من الأميرين تنصرهما وتركهما لدين الإسلام .

ومنحهما الملك فرناندو فى الحال ألقابا وضياعا .

وصار سعد هو الدوق فرناندو دى جرانادا .

وصار نصر هو الدون خوان دى جرانادا .

ثم كانت لهما شهرة كبيرة فى خدمة البلاط القشتالى والولاء للعرش .

وعادت ثريا إلى اسمها القديم ، الدونا اليزابيث دى سوليس .

وسبحان من يرث الأرض ومن عليها !

أما يحيى النيار حاكم « ألمرية » فقد تنصر أثناء حصارها ، قبل سقوط غرناطة ، وكانت بينه وبين فرناندو رسائل ومفاوضات سرية ، وكان أميرا من بنى نصر ، تلك الأسرة الحاكمة فى أواخر تلك الأيام .

وتنصرت زوجه ، وتنصر ولده على ، وصار اسمه الدون ألونسو دى جرانادا فينجاس وهو تحريف للاسم العربى « على » الذى تحول إلى « ألونسو » ، و « فينجاس » هو اسم جده لأمه « بنيغش » ، وصار هذا الشاب قشتاليا نصرانيا حتى النخاع ، وتزوج إحدى وصيفات الملكة ، الدونيا خوانا دى مندوثا .

وتنصر الوزير أبو القاسم بن رضوان بنيغش وجميع عائلته ، والكل يطمع أن يكون له مكان فى المجتمع الجديد ، أو يأخذ قدراً من السيادة والسلطة كما فعل صاحب الشرطة . والله وحده يعلم ماذا كانوا يضمرون فى نفوسهم ، فطبيعة الإسلام وقراءة التاريخ تجعل الإنسان فى حيرة أمام من يترك دينه من المسلمين ، وهم فى هذا على العكس من غيرهم . والله وحده يعلم مافى السرائر والضمائر .

آل الثغرى ورئيسهم حامد الثغرى ، أولئك الذين استبسلوا فى الدفاع عن « مالقا » أثناء

حصارها ، وعندما سقطت أو تكاد ، حرموا من الأمان الزائف الذى وهبه فرناندو لأهل المدينة ، واستثنوا منه ، ولما جاء موعد تسليم « مالقا » خيروا بين التنصر والموت ، واختاروا التنصر وتسمى حامد الثغرى باسم قشتالى جديد هو « جونثالفو فرنانديث ثاجرى » .

وأعجب وأغرب هؤلاء المتنصرين هو الوزير يوسف بن كماشة ، ويبدو أن مساً من الجنون قد أصابه ، فبعد كل العذابات التى مرت به تنصر ، ولم يكتف بهذا ، بل دخل الدير ، ولم يعد أحد يسمع به حتى مات .

والذى رفض التنصر رغم مافيه من فوائد مادية كبيرة هو أبو عبد الله الصغير آخر ملوك غرناطة المنكود .

وقد انتشر القسس والرهبان فى سائر أنحاء المدينة أرباضها يدعون إلى التنصر ويمنون الناس بالحقوق التى يحصلون عليها تبعا لذلك ، ناهيك عن الملكوت الأعلى الذى كانوا يتحدثون عنه .

وكانت تعليمات فرناندو إلى الكونت « تنديليا » حاكم غرناطة العسكرى باللين والترفق لاجتذاب أكبر عدد ممكن إلى النصرانية ، وتأجيل استخدام القسوة لوقت آخر مناسب . وانكب القسس والرهبان على تعلم اللغة العربية ومذاكرة الدين الإسلامى حتى يمكن أن يتحاوروا مع المسلمين حوارا مجديا ، وهو أمر أحدث أثرا عكسيا ، فالعقيدة والشريعة الإسلامية تجعل من يفكر فيها تفكيرا علميا منصفا يعيد النظر فى إيمانه إن كان غير مسلم ، وهذا ماحدث مع بعض القسس ، الأمر الذى أثار الفزع فى الإدارة الإسبانية ، فأصدروا أوامرهم بوقف مثل هذا النوع من الدراسات ، ولا يتم إلا بإذن ، ويمنح لمن لايشك فى تغير عقله وقلبه ، وهم طبقة خاصة من الأحبار والرهبان ، قد ارتبطت مصالحهم ارتباطا وثيقا بهذا التعصب،فهم لايتركون النصرانية مهما كانت الظروف والدواعى إلى ذلك . مع عدم الاعتبار بالحق والباطل فى هذه النقطة .

غرناطة تحت حكم النصارى

تمتع مسلمو غرناطة بمزايا المعاهدة التى وقعت لتسليم المدينة والتى لم تكن للمسلمين فى الجهات الأخرى من الأندلس ، ولكن هذا التمتع لم يستمر لأكثر من سنوات قليلة ، فقد كان من حقهم حمل الأسلحة الخفيفة ولم يكن هذا للمدجنين فى سائر أنحاء البلاد ، أعفوهم من وضع شارة خاصة على ملابسهم تبين أنهم من اليهود أو المسلمين ، وكانت هذه الشارة عبارة عن دائرة صفراء توضع على الثوب على مقربة من مكان القلب ، ويجب أن تكون واضحة ظاهرة للتفتيش أو الإهانة أو أى شىء آخر يراه الحكام .

وقد حاول المسلمون الذين يسكنون فى سائر البلاد الأندلسية الانتقال إلى غرناطة أثناء الشهور الأولى بعد السقوط للتمتع بمزايا التسليم ، ومن ثم زاد عدد المسلمين بها عن التقدير الأول قبل السقوط .

والأرجح عندنا أن عدد السكان بها قد تجاوز المليون ، فالإحصاءات التى أجراها القشتاليون فى السنوات المختلفة التى سبقت التسليم الأخير ، كانت تحرص على تبيان أن نسبة السكان المسلمين قليلة ، فاختلفت الأرقام القشتالية بين النصف مليون وبين السبعمائة ألف وخمسين ، ومن ثم فالمليون رقم منطقى ، فى تعداد يحرص من قام به على إظهار أن هؤلاء المسلمين أقلية .

وقد كان من دواعى الإسراع بتسليم غرناطة للنصارى ، أن بوادر ثورة شعبية إسلامية قد ظهرت فى الأفق ، الأمر الذى أثار خشية الحكام المسلمين الحريصين على مصالحهم المالية فى الإسراع بتسليم المدينة .

ولكن أسباب الثورة ودواعيها لاتزال قائمة ، والشعب الغرناطى فى جملته مسلم متمسك يرفض التنصير ، ويعتبر الطاعة للنصارى عارا ليس بعده عار . وحى « البيازين » فى غرناطة قد شحن بالرجال والسلاح وبه العناصر الإسلامية المخلصة التى يمكن لها أن تصنع شيئا جديدا .

وتقدر الإحصاءات القشتالية أن المسلمين فى سائر أنحاء المملكة عدا غرناطة يقترب من النصف مليون ، وكل الباقين فى أرض الأندلس هم الذين رفضوا التنصر ، ورفضوا مغادرة البلاد إلى المغرب ، فهم يتمسكون بأرضهم ودينهم فى ظروف بالغة الصعوبة والعنت .

ومن ثم كان اللين الذى أبداه الملكان الكاثوليكيان فى أول الأمر مع الغرناطيين بدهيا ومنطقيا ، ويتمشى مع السياسة الحكيمة . وهو لين لم يمنع فرق القسس والرهبان من أن يجوسوا فى الطرقات والبيوت يبشرون بالنصرانية ، ويقدمون الوعود والهبات المالية للفقراء حتى يتركوا دينهم .

ومن المؤسف أن نقرر هنا أن فرق الرهبان . والقسس الذين أخذوا على عاتقهم مهمة تنصير مسلمى غرناطة باللين والوعود كانوا فئة قاسية جاهلة متعصبة شريرة ، قد خلت الرحمة من قلوبهم ونفوسهم ، ولم يكونوا يلتزمون بكلمة واحدة مما قاله المسيح ، وكانوا مجردين من الثقافة على غير علم بعلوم العصر فى ذلك الوقت ، وعلى غير دراية بالفلسفة المسيحية ، ولم يقرأ واحد منهم شيئا لأفلوطين وأوغسطين وأوريجانس وغيرهم من آباء الكنيسة العظام ، الذين كانوا قبل دعوة الإسلام . فهم يتكلمون مع المسلمين بكلمات جاهلة حمقاء لادخل للمنطق بها ثم يخرجون أكياس النقود . وهو أمر كان يزيد المسلمين تمسكا بدينهم وإصراراً عليه .

● ● ●

ترك فرناندو وإيزابيلا غرناطة فى عهدة ثلاثة :

الكونت فرناندو دى ثافرا والكونت تنديليا الحاكم العسكرى العام .

وثالثة الأثافى : القس المتعصب توركويمادا أول أساقفة غرناطة ، ومسئول ديوان التحقيق فى كل بلاد الأندلس .. تعليمات مشددة باللين والرفق حتى تتبين الأحوال ، وحتى يفهموا طبيعة المدينة الجديدة التى جمعت فأوعت خلاصة المسلمين فى بلاد الأندلس .

ولم يعجب الحال « توركويمادا » فترك مكانه لقس آخر هو « هرناندو طلبيرة » وأجل عودته إلى غرناطة حتى تسمح الظروف بالحرق والتنكيل .

.واهتم الحاكم كونت تندليا وأقاربه وأصحابه بشراء الأراضى من المسلمين بثمن بخس بطبيعة الحال .

كان الموقف العام لغرناطة تكتنفه مشاكل سياسية بالغة التعقيد .

فمنطقة غرناطة قد أحاطت بها الجبال الوعرة من كل جانب ، وهى مناطق قد استعصت على الغزو القشتالى ، وهى أيضا منطقة جذب للثائرين والمسلمين المتمسكين بدينهم يبحثون عن فرصة للانقضاض.

وكان من مهام الإدارة الرئيسية قطع كل وسائل الاتصال بهذه الجبال حتى لاتصل إليها المؤن والذخيرة والرجال ،ولايتم هذا إلا بالمعاملة الرفيقة الهادئة للمواطنين ،مع استمرار فرق التنصير فى عملها .

وكانت غرناطة فى ذلك الوقت هى أغنى المناطق الأندلسية فى الزراعة والصناعة وسائر صور التقدم فى الحياة .

وعندما مارس القشتاليون الضغط على أهالى بلنسية ومرسية ، واضطروا الزراع والصناع المسلمين إلى الهجرة منها ، خربت هذه المناطق ولم تعد تصلح إلا للرعى ، وتحولت إلى مناطق فقيرة غير منتجة ، الأمر الذى أدى إلى الضعف العام فى الدخل القومى .

وكانوا يحاولون جاهدين ألا تتكرر هذه التجربة المكلفة ماليا واقتصاديا للدولة .

وكل مافعلته الإدارة المدنية بمعرفة فرناندو وإيزابيلا ، هى محاولة حصر أكبر عدد ممكن من الأسر الإسلامية فى حى البيازين ، واستجلاب أسر قشتالية من مختلف البلاد وتشجيعها على تملك الأراضى والإقامة فى هذه المناطق الغنية،ومن ثم الاستفادة من النسق الغرناطى الفريد .

وكانت معادلة صعبة التحقيق : البحث عن موارد للدولة باستقرار النظام وحرية المواطنين المسلمين ، والتعصب الأعمى والرغبة فى القضاء على المسلمين ودينهم فى هذه البلاد ، وبعد سنوات قليلة اختاروا الأخيرة وجعلوها هى السياسة المعتمدة فى الأندلس .

بداية تطور الأحوال فى غرناطة إلى المحارق

كان تحريك الأساقفة والمطارنة ورجال الدين الكبار يتم بموافقة البابا وبمرسوم منه فى كل بلاد أوربا وليس فى إسبانيا وحدها .

وعندما نجح القشتاليون فى شراء قسم كبير من أراضى المسلمين فى غرناطة وبدأ حجمهم ينحسر فى معظم الأحياء ، ثم [illegible] فى حى البيازين ، كان من الطبيعى أن يتم معه إلغاء المساجد وتحويلها إلى كنائس .

ثم اجتهد النبلاء القشتاليون فمنعوا الصلاة العلنية ، ومن يضبط وهو يتوضأ يعاقب ، هذا رغم معاهدة التسليم التى تقضى بغير ذلك .

وسكت الناس . واستمرت الحياة ، وقد ظهر فيها شىء جديد فى حياة الغرناطيين المسلمين ، منع الآذان ، عدم ارتياد المساجد ، منع الصلاة والوضوء .

وكانت بعض الفتاوى تأتى لهؤلاء المسلمين فى السنوات الأولى التى تلت التسليم تطلب منهم الهجرة إلى دار الإسلام وترك دار الكفر ، وفى الحقيقة كان لمثل هذه الفتاوى الأثر السيىء فى نفوس المسلمين فى غرناطة ، فقد وجدوا أنفسهم فجأة وقد رفضوا من كل الجوانب التى حولهم ، حتى من كانوا يعلقون بهم الأمل فى النصرة والانتفاضة يوما ضد النصارى لاموهم وخطئوهم ، وهناك مخطوط كتب فى هذه الفترة اسمه « أسنى المتاجر لمن غلب النصارى على وطنه ولم يهاجر » .

وقل عدد الفقهاء والعلماء فى غرناطة بعد أن هاجر معظمهم إلى بلاد المغرب . وبدأت السلطة تجمع الكتب الإسلامية والفقهية من البيوت ومن الأشخاص فى هدوء ودون ضجة .

وبدأت المساومة على الدين والتاريخ .

وكان الغرناطيون المسلمون يتجهون رويدا رويدا إلى مهاوى الفقر بعد أن زاحمهم القشتاليون غير المدربين فى زراعاتهم وصناعاتهم .

ووجد أهل غرناطة أنفسهم وقد انهزموا داخليا ، وروحهم المعنوية قد أوشكت على الانهيار ، فالمسلمون من أهل المغرب يطلبون منهم الهجرة إلى بلاد الإسلام . والرهبان والأحبار يطلبون منهم التنصر فى رفق وهوادة ولكن فى إصرار وحزم . وفجأة انتهى عصر التنصير الهادىء وبدأ عهد القسوة والضرب بيد من جديد .

وكان هذا تطورا طبيعيا للأحداث قد غفل عنه العامة وأدركه العقلاء .

الكاردينال خمينيث دى سيسنيروس ١٤٣٦ م- ١٥١٧ م

راهب ينحدر من أسرة فقيرة وضيعة الشأن ، أخفى كل تعطشه إلى المال والسلطة تحت شعار من التدين الزائف للكثلكة ، واستطاع الوصول إلى الملكة إيزابيلا ، التى كانت تهوى هذا النوع من الناس ، وصار يحدثها عن رؤاه وأحلامه ، وأنه شاهد القديس بطرس فى المنام يلومه لأنه لم يبين الأخطار التى تحيق بالمملكة لإيزابيلا الورعة .

ومات رئيس أساقفة طليطلة « دى مندوزا » فعينت إيزابيلا خمينيث ، وحصلت على موافقة البابا ألكسندر السادس سنة ١٤٩٥ م ، وهذا هو أعظم منصب دينى فى البلاد ، وتأتى صلاحياته بعد الملكين الكاثوليكيين مباشرة .

ثم أرسلت إيزابيلا خمينيث إلى غرناطة عام ١٤٩٩ م .

وبعد أن تلقى « خمنيث » التهانى من الذين استقبلهم عقد اجتماعا شهده « طلبيرة » والكونت تندليا ، وطلب منهم « خمنيث » تقريرا مفصلا عن الحالة الدينية فى غرناطة . وماذا تم بشأن جهود التنصير التى قامت على المعاملة الحسنة فى زعمهم .

وفوجى « خمنيث » بأنه لم يتم تنصير أحد غير هؤلاء الكبراء الذين ذكرناهم .

واستمع فى دهشة إلى أراء « طلبيرة » التى تكرس سياسة الترفق واللين مع أهالى غرناطة ، وامتلأ عجبا عندما عرف أنه قام بترجمة بعض الكتب الدينية المسيحية إلى العربية ، وهى لغة نجسة فى رأيه . وطفح الكيل عندما طلب « طلبيرة » ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية . وقال إنها طريقة بطيئة ولكنها مؤكدة ، فقد انقطعت صلة المسلمين بالعالم ، وأصبح من السهل إقناعهم بالدين الجديد .

ورفض « خمنيث » هذا المنطق بشدة .

وسأله « طلبيرة » عما ينبغى أن يكون .

وأجاب « خمنيث » بأن هناك سياسة جديدة سوف أشرع فى تنفيذها .

محاولة التنصير الأولى

كانت سياسة « خمنيث » تتلخص فى تنصير عدد ما من أهالى غرناطة المسلمة ، عدد يسمح بإقامة محاكم التحقيق فى أرجاء البلاد لاختبار العقائد والامتحان والحرق .

وبدأ عهده بجمع مليون كتاب،وقام بحرقها بميدان الرميلة فى غرناطة فى احتفال كبير ، وهذه الكتب التى أحرقت قد جمعت على مدار ثمانمائة عام ، وأكثرها لم يوجد له أصل أو نسخة بعد ذلك .

ثم جمع إليه من تبقى من فقهاء غرناطة المسلمين ليناظرهم حول النصرانية فى كنيسة كانت مسجدا فى يوم من الأيام ، وكانت حجة الفقهاء بالغة فى النقاش ، وكان هدف « خمنيث » أن يقنعهم بالتنصر ، فإن فعلوا فسوف يتبعهم الناس فى ذلك ، ولكن بلا فائدة .

وكانت ميزانية الرشاوى والإكراميات مفتوحة لإضعاف صوت الاحتجاج بمعاهدة التسليم التى لم يكن لها كبير قيمة فى واقع الأمر .

وكانت المناظرات الدينية تعقد علنا ، ولما كانت حجة الفقهاء ظاهرة ، ازداد حماس الناس وتمسكهم بالإسلام وصاروا يخرجون من الاجتماع يسخرون من الكاردينال ويوصى بعضهم بعضا بالتمسك بالدين الصحيح .

واضطر « خمنيث » أخيرا أن يعقد هذه الاجتماعات دون حضور العامة من الناس ، وقصر المناظرات على الرهبان والأحبار من ناحية ، ومن تبقى من فقهاء المسلمين فى غرناطة من الناحية الأخرى .

ثم اختار كبيرهم الشيخ الصقرى واجتمع به وحده وناظره وناقشه بلا فائدة .

كان الكاردينال فى ذلك الوقت يقترب من الستين ، شيطانى المنظر ، وضيع الأصل له أنف كالصقر ، سيىء السيرة والأخلاق رغم أنه من الرهبان .

وكان الشيخ الصقرى رجلا صالحا زاهدا ، حسن الأخلاق والسيرة، محبوبا من كل أهل غرناطة ، وعندما طلبوا منه الجواز إلى بلاد المغرب قال :

– ومن لهؤلاء المساكين يهديهم إلى الحلال والحرام ؟

وآثر البقاء فى غرناطة على مافى هذه الإقامة من مخاطر شديدة ، وكان الرجل يدرك ببصيرته النافذة ماينتظر الناس من مآس وأهوال . ولكنه كان يرى أن هذا هو قدره ولا يستطيع الفكاك منه .

صار الكاردينال « خمنيث » ينظر إليه فى غيظ والشيخ الصقرى يجلس أمامه هادئا فى تواضع لم يخل من عزة المسلم حين ينظر إلى كافر عظيم يتحدث معه .

وشمله الكاردينال بنظرة فاحصة وقال :

– لا فائدة إذن ؟

ورد عليه الشيخ الصقرى :

– لافائدة ياسيدى الكاردينال ، لو أقنعتنى أن دينك صحيح لاتبعته على الفور .

وتفرس فيه الكاردينال وكأنما قد أمسك بخناقه :

– تعنى أن النصرانية باطلة ؟

واضطرب الشيخ الصقرى قليلا وأدرك أنه يسوقه إلى فخ ، وسرعان ماعاوده هدوءه وأجاب :

– سيدى الكاردينال ، إنى راض بدينى وعقيدتى ، وليس هناك مايدعونى إلى تغييره .

– لقد قلت إن النصرانية دين غير صحيح .

– سيدى الكاردينال ، ليس من المناسب وأنت رجل دين ورع تقى أن تتصيد لى كلمة من حديث أنت الذى دفعتنى إليه ، وأنت الذى جئت بى إلى هنا ، ولا أستطيع أن أرفض الحضور إليك لو طلبتنى .

ونظر إليه الكاردينال كالذئب المفترس :

– وهل تجرؤ فترفض الحضور لو استدعيتك ؟

وانتظر الشيخ الصقرى قليلا قبل أن يجيب فى ثبات وهدوء :

– نعم أجرؤ ياسيدى الكاردينال ، لقد جئت إليك باختيارى ، ولاأحب أن تكون الأمور بيننا على هذا النحو ، وهناك معاهدة أرجو ألا تنسى نصوصها ، ولم أخطىء فى شىء معك ، وأرجو ألا ترسل فى استدعائى مرة أخرى ، لأنى لن أحضر .

– لن تحضر ؟

– نعم ياسيدى الكاردينال ، لن أحضر هنا طواعية أبدا . وافعل ماتشاء .

وابتسم الكاردينال متظاهرا بالحلم والتسامح وكان الشيخ الصقرى قد هب واقفا يريد الانصراف ، فقام الكاردينال وربت على ذراعه مهدئا :

– لاتغضب ياصديقى . لاتغضب .

– هل يريد سيدى الكاردينال شيئا آخر ؟

– تفضل بالجلوس وسوف أخبرك .

وجلس الشيخ الصقرى وهو يقول فى نفسه :

– لاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم .

كان الكاردينال وحده مع الشيخ الصقرى فى غرفة قد ملئت بنفيس الرياش ، الأمر الذى يتنافى مع الزهد والورع والرهبنة ، وقام الكاردينال مبتسما وصفق بيديه وهو يقول للشيخ الصقرى :

– سأنسى أنك قد سببت النصرانية .

– أنا لم أفعل ياسيدى الكاردينال،ودينى ينهانى عن هذا .

وقال الكاردينال مهدئا مطمئنا :

– لاعليك ياصديقى ، لاعليك .

وفى هذه اللحظة دخل الغرفة راهب صغير ، وأشار له الكاردينال بيده إشارة لها مغزى ، فخرج ينفذ مايريد ، وتوجس الشيخ الصقرى وتلفت يمنة ويسرة ، بينما عاد الكاردينال وجلس أمامه مبتسما وقال :

– سوف تعرف الآن كيف يكون كرم الكنيسة معك .

– لست أفهم ياسيدى الكاردينال .

وفى هذه اللحظة دخل الراهب وفى يده كيس أحمر اللون من القطيفة وناوله للكاردينال الذى صار يرفعه إلى أعلى قليلا ويلتقطه وهو يبتسم ، ثم توقف عن هذا وقال :

– هذا الكيس لك أيها الشيخ الصقرى .

ولم يمد الشيخ يده ليأخذ الكيس ، بينما يد الكاردينال ممتدة إليه ، فقال الشيخ :

– مازلت لاأفهم ياسيدى الكاردينال .

وقال الكاردينال :

– هذا الكيس به مائة دوبل هى لك .

واعتدل الشيخ الصقرى فى أنفة وقال :

– لاأظن أننى فى حاجة إلى هذا المال ياسيدى الكاردينال .

واستمر الكاردينال :

– المطلوب منك فتوى لهؤلاء الذين تجلس إليهم فى مجلس التفسير الذى تعقدونه فى منزل موسى الحداد ليلة الجمعة . وهذه نقطة سوف نعود إليها بعد قليل .

– عن أية فتوى تتحدث ياسيدى الكاردينال ؟

وقال الكاردينال وعلى وجهه مسحة شيطانية عمقتها قسوته الشديدة :

– فتوى بجواز ترك الإسلام إلى النصرانية .

ووقف الشيخ الصقرى وهو يرتعد من الغضب :

– تريد أن أفتى هذه الفتوى بمائة دوبل ؟

وابتسم الكاردينال :

– لاتغضب . كم تريد ثمنا لهذه الفتوى .

– هذه الفتوى لاتصدر منى أبدا حتى لو أعطيتنى كل مافى خزائن الملكين الكاثوليكيين .
وقام الكاردينال بهدوء إلى مكتبه حيث يوجد جرس فضى ، فدقه بيده ثم صفق بعد ذلك فى عصبية وقال وهو يبدى الهدوء :

– سوف أسمع منك هذه الفتوى هذا النهار وبعدها سوف أعطيك المائة دوبل .

ودخل أحد الرهبان الشبان فقال له الكاردينال :
– ادع الحرس .
وقال له الشيخ الصقرى :
– أنت هكذا تخرق المعاهدة التى وقعها الملكان ورجال الدين !
– لن يعلم بهذا أحد .
– كل المدينة تعلم أننى فى مقابلة معك .
– وسيعلمون أنك فى ضيافتى ، الأمور أسهل مما تظن أيها الشيخ .
ودخل الحرس شاكين السلاح فأشار لهم الكاردينال :
– خذوا هذا الأحمق واضربوه مائة سوط . ثم ضعوه فى القبو .

واصفر وجه الشيخ الصقرى والحرس يمسكون به وقال :
– هل تجرؤ على هذا أيها الكاردينال ، لن يرضى الناس بهذا أبدا .
– دعك من هذا الهراء . أمامك فرصة أخيرة .
– وهل يرضى دينك بهذا ؟ هل هذا ماهو مكتوب فى الإنجيل ؟
وقال الكاردينال للحرس :
– وبعد المائة سوط اسألوه الإيمان بالمسيح فإن لم يفعل فاضربوه مائة أخرى ، ثم اسألوه فإن لم يفعل فاضربوه مائة أخرى . هيا .

وعاد الراهب الشاب يسأل الكاردينال فى أدب واحترام :
– وإن لم يؤمن بالمسيح بعد هذا كله أيها الأب المقدس ؟ ماذا نفعل ؟
واضطرب الكاردينال قليلا ونظر فوجد الحرس قد غادروا الغرفة فقال :
– يكفى ثلاثمائة سوط ثم تعال إلىّ ، اجعلهم يجلدونه أمامك .

● ● ●

دخل الكونت تندليا وطلبيرة (دى ترافيرا) على خمنيث مذعورين ، وكان هادئا يصب لنفسه قدحا من الخمر،والتفت إليهما الكاردينال هادئا وهو يرتشف من كأسه :
– مابالكما ؟
وقال الكونت تندليا :
– ماذا فعلت بالشيخ الصقرى ؟
وقال الكاردينال هادئا :
– ماسمعتما . قد قتلته .
ورسم كل منهما علامة الصليب على جسده وقال طلبيرة :
– هل سمع صاحب القداسة بما حدث هذا الصباح بحى البيازين ؟
– نعم سمعت . بعض الهياج ، يمكن لسرية من الجند أن تدخل الناس بيوتها .
وقال الكونت تندليا :
– الأمر أعظم وأكبر من هذا ياصاحب القداسة . إنها ثورة حقيقية ، وقد خرج الناس بالسلاح ولاندرى العواقب .
وبدأ الكاردينال يهتم قليلا وترك كأسه على المنضدة وقال :
– ماذا يريدون ؟
– الشيخ الصقرى .
وقال الكاردينال :

– هذه سهلة جدا .

وقال تندليا :

– هل يمكن أن تعيده إلى الحياة ؟

– لقد رفض الإيمان بالمسيح فذهب إلى الجحيم . ولكن يمكن أن نخبرهم أنه قد غادر المكان ، واختفى حيث لانعرف .

وقال تندليا :

– لن يصدق أحد هذا الكلام .

وتفرس الكاردينال فى وجه تندليا وقال :

– أهل غرناطة من المسلمين يحبونك ويثقون بك . وعندما تقسم لهم بشرفك سوف يصدقونك . اذهب إليهم وهدىء من روعهم ثم نرى بعد ذلك ماذا يمكن عمله . لن أستريح حتى أنهى ديانة محمد من هذه البلاد .

وقال تندليا :

– ياصاحب القداسة مافعلته يتنافى مع المعاهدة التى ..

وقاطعه الكاردينال فى ابتسامة الثعلب :

– كونت تندليا . أنت تضيع الوقت وهو غال وثمين .

ونظر « طلبيرة » ناحية كونت تندليا وغمز له ، فألقيا التحية على الكاردينال وخرجا ، ووقف الكاردينال ينظر فى أثرهما . ثم جلس على كرسيه الوثير وبدأ القراءة فى الكتاب المقدس !

● ● ●

لم يستطع تندليا ومعه صاحبه تهدئة الناس حتى أقسم لهم بشرفه أن الشيخ الصقرى قد غادر حيا وهو رآه بعينيه ، وسوف يرفع ظلامتهم للملك وللملكة ، وأن كل شىء على مايرام ، ولن يكون معهم إلا الخير .

وصدقه الناس فقد كانت سيرته فيهم حسنة ، وهو صاحب فكرة التنصير الهادىء بالرشوة والتبشير دون ضغط أو إكراه .

ووصلت قصة الهياج إلى مسامع إيزابيلا الكاثوليكية ، واستدعت جميع الأطراف إليها فى قصرها بإشبيلية .

وأثناء سير الكاردينال و « تنديا » و « طلبيرة » فى الرواق المؤدى إلى غرفة صالون الملكة ، التفت الكاردينال إلى تنديا وقال له :

– كونت تنديا .

ولم يرد عليه الكونت فقد كان متجهما غاضبا لكذبه على الناس ، وضياع شرفه عندهم ، بالإضافة إلى أنه يرى فشل سياسة « تحنيث » .

ولكن الكاردينال واصل كلامه :

– أنا أريد أن أدخل محاكم التحقيق إلى غرناطة ، وأنت تحول بينى وبين هذه الغاية ، وهذا خطر عليك .

وانتبه الكونت تنديا وتوقف والتفت إلى الكاردينال وقال :

– كيف ؟

وقال الكاردينال :

– ديوان التحقيق لايفرق بين أمير وحقير .

– ماذا تعنى ؟

– أعنى أنه يمكن أن يقدم للتحقيق كونتا نصرانيا بتهمة مساعدة المسلمين .

وتجهم « تنديا » وواصل الجميع السير للقاء الملكة .

وكان « تندليا » يفكر فى كلام الكاردينال ، وصار يشعر بالخطر الحقيقى ، فالرجل صاحب نفوذ حقيقى ، ويأتى سلطانه بعد الملك والملكة .

وأمام الملكة إيزابيلا لم يستطع « تندليا » إلا أن يوافق على كل كلمة قالها « خمنيث » وكان ماقاله يتفق مع آراء إيزابيلا الشخصية ، وهى القضاء على المسلمين بأية صورة وبُدىء فى تنفيذ خطة إبادة المسلمين !

الإبادة بعد التنصير !

هرب معظم سكان غرناطة إلى الجنوب ناحية الجبال عندما علموا بالنوايا المبيتة لتنصيرهم والقضاء عليهم .

وفى سنة ١٤٩٩ م اندلعت الثورة فى جبال البشرات ، واستجاب لها سكان البلاد الأخرى فى مملكة غرناطة ، وكان معظم من بها من المسلمين الذين ضاعت حقوقهم ويطالبون بالتنصر رغم المعاهدة التى تتركهم أحرارا فى دينهم .

استطاع الثوار أن يحدثوا مقتلة عظيمة فى الجيش القشتالى الذى جرد لحربهم ، وكانوا قد حفروا له خنادق قد غطوها بالقش فسقط فرسانه فيها ودب الذعر بينهم . واستطاعت فرقة من الثوار المسلمين أن تهاجم المدينة (غرناطة) وتقضى على حاميتها .

وتدخل فرناندو شخصيا على رأس جيش للقضاء على هذه الثورة .

استطاع فرناندو أن يقضى على الثورة فى القرى والمدن التى مرَّ بها ، وأعاد احتلالها من جديد وحاصر الثوار فى الجبال ، وكانوا ينتظرون أمدادا من بلاد المغرب ، ولكنها تأخرت ولم تصل إليهم ، وبدأت مؤنهم فى النفاد .

وجرت مفاوضات الاستسلام .

وطلب فرناندو خمسين ألفا من الجنيهات الذهبية ، وتسليم كل الحصون والأسلحة ، ومن ثم يمنحهم الأمان .

وبعد ذلك استحضر جيشا من القساوسة والرهبان ليقوموا بعملية التنصير لأهل البشرات ، وفى الوقت نفسه أرسلت إيزابيلا مبعوثها إلى أهل غرناطة ينبئهم أن المعاهدة قد خرقت بالثورة على السلطة وقتل الفرسان القشتاليين .

ومنذ ذلك الوقت بدأت عملية التنصير الجبرى ، وظهر اسم « الموريسيكيين » وهي تعنى باللغة القشتالية المسلمين الصغار .

وهبت الثورة الإسلامية فى الجبل الأحمر؛إذ أيقن المسلمون أن لا أمان لعهود القشتاليين وأن ماحدث فى البشرات سوف يحدث للمسلمين فى كل مكان .

وأعلنوا الثورة والعصيان وفتكوا بالحاميات القشتالية .

وتحرك القائد ألونسو دى أخيلار بأمر من فرناندو فى جيش كبير قضى عليه الثوار ، واضطر فرناندو للتحرك شخصيا ، ووجد صعوبة فى التحرك بقواته عبر الممرات الجبلية الوعرة الضيقة ، والكمائن التى أعدها المسلمون ، والتى كانت تؤثر فى قواته تأثيرا سيئا بالغ الأثر .

اتخذ فرناندو من مدينة « رندة » مركزا لعملياته ، وآثر سياسة الحصار الطويل بدلا من الدخول فى معارك لن تؤدى إلى النتيجة المرجوة .

وأحدث الحصار عمله بعد أن نفدت المؤن والذخائر .

وبدأ الثوار يستجيبون للوعود والعهود الجديدة الكاذبة .

وتم الأمان بعد دفع المال المطلوب والأسلحة الموجودة فى حوزة الثوار .

وكانت قد جرت فى هذه الأثناء ، فى ثورة جبال البشرات والجبل الأحمر أكثر من ثلاثين معركة ناجحة لحساب الثوار المسلمين ، الأمر الذى يبين صعوبة القضاء على غرناطة حربا ، ويؤكد وجهة نظر موسى بن أبى الغسان العظيم .

وبطبيعة الحال كان يهاجر كل حين قريب أثناء هذه الأحداث عدد من أسر المسلمين إلى عدوة المغرب ، دون اعتراض من أحد ، وعند الاعتراض كانت الهجرة تتم بالسفن سراً من موانى يحددونها ويتفقون عليها .

وفى تلك الفترة وماتلاها من سنوات ظهر الدور العظيم الذى قام به البحارة الأتراك الذين اتخذوا الجزائر مركزا لهم ، واستطاعوا فيما تلا ذلك من أحداث نقل مئات الألوف إلى الشاطىء المغربى .

ولمعت أيامها أسماء مثل عروج بك وخير الدين بربروسا وأيدن باشا،وغيرهم من طليعة الأتراك العثمانيين الذين أرادوا التدخل لحساب المسلمين فى الأندلس ، فقاموا بقدر من الجهد يفوق طاقتهم واستعدادهم آنذاك .

● ● ●

كانت إيزابيلا تكبر فرناندو بعام ، وكانت صاحبة قشتالة أقوى الممالك النصرانية قبل الاتحاد ، وكانت شديدة العناد، لها سلطان وتأثير على فرناندو ، وكان كلاهما يتبارى فى النيل من المسلمين والقضاء على الإسلام فى الأندلس .

وأصدرت إيزابيلا مرسوما ملكيا فى سنة ١٥٠٢ م يخير فيه المسلمون بين التنصر أو مغادرة غرناطة وكل بلاد الأندلس ، ولايبقى ذكر فوق سن الرابعة عشرة أو أنثى فوق سن الثانية عشر بعد شهر إبريل إلا إذا تنصروا[1] . وسمح لهم المرسوم ببيع عقاراتهم وأملاكهم قبل الرحيل ، ولكنه حظر عليهم إخراج الذهب والفضة .

---

(١) عادل بشتاوى الأندلسيون المواركة ، القاهرة ١٩٨٣ م ، مطبعة إنترناشيونال برس ، ص ١١٩ نقلا عن بعض المصادر العربية والإنجليزية .

وفى هذه الآونة رحل عن الأندلس نحو ثلاثمائة ألف شخص إلى المغرب وإلى مصر وبلاد الشام ، ولعل هؤلاء كانوا أحسن حظا ممن بقى من المسلمين الذين تظاهروا بالتنصر ، ونسوا أن محاكم التحقيق سوف تعمل عملها ، وأن هذه هى خطة الكاردينال « خمنيث » الخبيثة التى كان يسعى إليها جاهدا .

● ● ●

يقول المقرى[1] :

« ثم إن النصارى نكثوا العهد ، ونقضوا الشروط عروة عروة ، إلى أن حال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعمائة ، بعد أمور أعظمها وأقواها عليهم أنهم قالوا : إن القسيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجعوا قهرا للكفر ، ففعلوا ذلك ، وتكلم الناس ولاجهد لهم ولاقوة ، ثم تعدوا إلى أمر آخر ، وهو أن يقولوا للرجل المسلم : إن جدك كان نصرانيا فأسلم فترجع نصرانيا ، ولما فحش هذا الأمر قام أهل البيازين على الحكام وقتلوهم . وهذا كان السبب للتنصر ، قالوا : لأن الحكم خرج من السلطان أن من قام على الحاكم فليس إلا الموت إلا أن يتنصر فينجو من الموت ، وبالجملة فإنهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة ، وامتنع قوم من التنصر ، واعتزلوا الناس ، فلم ينفعهم ذلك ، وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرهما ، فجمع العدو الجموع ، واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسبيا ، إلا ماكان من جبل بللنقة ، فإن الله تعالى أعانهم على عدوهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة ، وأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وماخف من مالهم دون الذخائر ، ثم بعد هذا

---

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى ، طبعة دار صادر سنة ١٩٦٨ م ، تحقيق د . إحسان عباس الجزء الرابع ص ٥٢٧ ، ص ٥٢٨ .

كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله فى خفية ويصلى ، فشدد عليهم النصارى فى البحث ، حتى إنهم أحرقوا منهم كثيرا بسبب ذلك ، ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلا عن غيرها من الحديد ، وقاموا فى بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقيض الله لهم ناصرا ، إلى أن كان إخراج النصارى إياهم بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشر وألف ، فخرجت ألوف بفاس ، وألوف أخر بتلمسان من وهران ، وجمهورهم خرج بتونس ، فتسلط عليهم الأعراب ومن لايخشى الله تعالى فى الطرقات ونهبوا أموالهم ، وهذا ببلاد تلمسان وفاس ، ونجا القليل من هذه المعرة » .

وقال صاحب أخبار العصر :

« ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصير ، وأكرههم عليه ، وذلك فى سنة أربع وتسعمائة فدخلوا فى دينهم كرها ، وصارت الأندلس كلها نصرانية ، ولم يبق فيها من يقول (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) إلا من يقولها فى قلبه ، وفى خفية من الناس ، وجعلت النواقيس فى صوامعها بعد الأذان ، وفى مساجدها الصور والصلبان ، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن ، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين ، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين ، لم يقدروا على الهجرة واللحوق بإخوانهم المسلمين ، قلوبهم تشتعل ناراً ، ودموعهم تسيل سيلا غزيرا ، وينظرون أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ، ويسجدون للأوثان ، ويأكلون الخنزير والميتات ، ويشربون الخمر التى هى أم الخبائث والمنكرات ، فلا يقدرون على منعهم ولا على زجرهم ، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب ، فيالها من فجيعة ماأمرها ، ومصيبة ماأعظمها ، وطامة ما أكبرها » .

«وانطفأ من الأندلس الإسلام والإيمان ، فعلى هذا فليبك الباكون ، ولينتحب المنتحبون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً » .

ومؤلف هذا الكتاب (أخبار العصر) مجهول لم يذكر اسمه على مخطوطه الذى كتبه خشية المثول أمام ديوان التحقيق ، وفى هذا عذاب عظيم ينتهى بالموت .

● ● ●

جمعت الكتب العربية والمصاحف وحرقت .

منع حمل السلاح بترخيص أو بغير ترخيص .

أعطيت فرصة للتخلص من الملابس العربية ، عام للملابس الحريرية وعامان للصوفية . منع الحجاب ، ومن ترتديه تعاقب بالسجن والجلد ، وكذلك وليها .

حولت جميع المساجد إلى كنائس .

هدمت الحمامات .

من يضبط مرتديا ملابس نظيفة يوم الجمعة يعاقب .

من يضبط فى بيته لحم يوم الجمعة يعاقب .

من يبدى أى اهتمام بهذا اليوم يعاقب .

تتزوج الفتاة المسلمة فى الكنيسة ، والحذار من إعادة المراسيم على الطريقة الإسلامية .
من ذكر اسم النبى ﷺ يعاقب .

ومن لم يسب النبى ﷺ – والعياذ بالله – حين يذكر يعاقب .

من لايشرب الخمر يعاقب .

من لايتعامل بالربا يعاقب .

من لم يرتكب كافة الموبقات التى نهى عنها الإسلام يعاقب .

إذا مرَّ راهب أو حبر فعلى ذلك المسلم الذى فرض عليه التنصير أن يترجل إن كان راكبا ويسجد له فى الطريق .

وكان الصوم فى رمضان ممنوعا ، والويل لمن يرفض الشراب والطعام فيه .

وبعد العقاب يكون العرض على ديوان التحقيق أو محاكم التفتيش كما درج الناس ، ويمنع على أى مسلم قد تم تنصيره الانتقال إلى أية مدينة أو قرية أخرى إلا بإذن من السلطات المختصة .

ويمنع منعا باتا التواجد فى أماكن تقترب من الشواطىء والموانىء إلى مايوازى عشرين كيلو مترا ، ولايجوز التقدم للحصول على ترخيص بهذا الشأن .

وكان قد تم تهجير معظم غرناطة والمدن المحيطة بها إلى بلاد الشمال إلا قليلا ، فى بلاد جديدة ، ومدن لم يألفوها ، وتفرق الأهل ، وانقطعت صلة الأسر بعضها ببعض فى ملحمة من الحزن الممض واليأس الخانق .

ويعتبر الموريسيكى قد عاد إلى الإسلام ، ومن ثم يستحق العقاب ، لو فعل أى شىء مما ذكرناه من قبل .

لو رفض أن يأكل لحما لم يذبح .

لو أوثق الماشية لذبحها .

لو استقبل المشرق وقال باسم الله .

لو ختن أولاده أو سماهم بأسماء عربية .

أو حتى أعرب عن رغبته فى عمل ذلك .

أو قال إنه يحب ألا يعتقد إلا فى الله وفى رسوله محمد .

أو أقسم بأيمان القرآن .

أو امتنع عن أكل لحم الخنزير .

أو مرّ بيديه على رءوس أولاده ليباركهم .

أو غسل الميت ووضعه فى الأكفان قبل دفنه .

أو دفنه بغير تابوت .

أو غطى قبره بغصون خضراء .

أو قال إن آباءه وأجداده قد غنموا رحمة الله لأنهم ماتوا مسلمين .

وليس يكفى ألا يفعل المسلمون المتنصرون هذا !

بل المصيبة كبيرة والهول عظيم ، فيكفى أن يدعى أى إنسان على أى موريسيكى أنه قال أو فعل شيئا مما ذكرناه ، فإن شهد شاهد بهذا فلابد من العرض على ديوان التحقيق . وماأدراك ماديوان التحقيق ؟

وقبل أن نتكلم عن إجراءات هذا الديوان العجيب نريد أن ننتهى من فرناندو وإيزابيلا .

هلكت إيزابيلا قبل فرناندو بنحو أحد عشر عاما فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٥٠٤ م ، ودفنت فى غرناطة فى دير سان فرنسيسكو فوق الحمراء .

وهلك فرناندو فى ٢٣ يناير سنة ١٥١٦ م ، ودفن بجوار إيزابيلا .

وبعد ذلك نقل رفاتهما إلى قلب مسجد غرناطة الجامع حيث أقاموا مكانه كنيسة غرناطة العظمى .

وأقيم لهما أعظم ضريح من الرخام يزار ويرى حتى الآن .

وكان فرناندو وإيزابيلا قد ناءا بكلكلهما على الناس .

فلا تجوز الهجرة إلى خارج بلاد الأندلس .

ولايجوز بيع الأراضى والأملاك . أو التصرف فيها بأى شكل من أشكال التصرف ، مع دفع الضرائب المضاعفة اللازمة .

واعتبر من فى بلاد الأندلس من المسلمين نصارى ، وذلك بغض النظر عن التعميد أو أية إجراءات يمكن أن تتبع ، ومن حق ديوان التحقيق النظر والتحقيق .

المسلمون وديوان التحقيق

لم تكن مبادىء الكنيسة تقر التعذيب كوسيلة مشروعة للاعتراف ، ولماسن قانون محاكم التحقيق (التفتيش) عندما ارتقى جريجورى التاسع عرش البابوية سنة ١٢٢٧ م وافق أيضا على كل الإجراءات التى يمكن أن تتخذ مع المتهم بالكفر ، من تعذيب بشتى الوسائل المعروفة أو المبتكرة .

وكان قد سبق البابا جريجورى بعض ملوك أوروبا بقرن أو أكثر ن حاكمة من يرونهم كفرة ويأمرون بحرقهم أحياء فى محارق جماعية .

ونحن هنا بصدد الديوان الإسبانى الذى يحاسب المسلمين ، ولعله يختلف قليلا أو يتفق ، ولكننا نورد هنا مايجرى فيه .

تبدأ قصة المتهم الماثل أمام ديوان التحقيق ببلاغ ، أى بلاغ يقدم من أى شخص ذى صفة ، أو غير ذى صفة ، وأحيانا يوعز أحد الأساقفة الصالحين إلى أى أحد بتقديم بلاغ ضد شخص ما لسبب لاعلاقة له بالدين أو السياسة . وأنشئت أول محكمة تحقيق (تفتيش) فى إشبيلية عام ١٤٨٠ م ثم انتقلت إلى كافة المدن الأندلسية ، وأخيرا غرناطة .

وبعد البلاغ المقدم ضد المسلم المسكين ، تجمع التحريات والمعلومات . وقد يكون الاتهام قد نتج من معلومة وردت فى قضية أخرى . وكان يمكن التبليغ بواسطة « الاعتراف » الذى

يسمعه القس ، ولاينبغى للقس أن يكتم معلومات قد تلقاها عن طريق الاعتراف إلى مجلس التحقيق الأعلى أو من يمثله ، ذلك المجلس الذى كان يخشاه ويحسب له كل حساب أى شخصية مهما عظمت بعد الملكين الكاثوليكيين .

بعد التحريات تعرض نتيجة التحقيق المبدئى على لجنة من الأحبار ، كل هذا قد يتم فى ساعة من زمن .

وكل إجراءات الديوان تتم فى سرية تامة . وكل القائمين على العمل فى الديوان ، أو اللجان المنبثقة منه ، مشهود لهم بخراب الذمة وسوء الخلق والفساد ، وجميعهم من الأحبار والرهبان .
يتم القبض على المتهم ويودع سجون الديوان ، وهى غاية فى الفظاعة والسوء ومن يدخل هذه السجون لايخرج منها فى الأغلب إلا إلى الموت ، وأقل القليلين ممن ينجون يسقطون فى نظر الناس ، ولايستطيع أحد أن يلتقى بهم ، أو يقوم بالتعامل معهم على أى نحو .

وكان المتهم يصفد بالأغلال الحديدية الثقيلة لحظة القبض عليه .
وتتم مصادرة أملاكه ويديرها الديوان لحسابه لحين الفصل فى قضيته . وقد يفصل فى القضية بعد سنوات إن كان المتهم شديد الثراء .
وكان المتهم يدفع مصاريف سجنه ، وكانت باهظة التكاليف فى ذلك الوقت ، ويتضاءل بجانبها أجر أعظم فندق فى العالم فى هذه الأيام .

لايخطر المتهم بالتهم المنسوبة إليه .
يمنح ثلاث جلسات فى ثلاثة أيام متوالية لايخطر فيها بشىء ، بل يمنح الفرصة للإقرار والاعتراف بما جناه ، ويوعد بالرأفة إن أقر ، وبالتنكيل والشدة إن أنكر . وإن كانت التهمة أقل من الكفر واعترف بها المتهم اختصرت القضية وحكم عليه بحكم خفيف .

وإن كانت التهمة هى الكفر ، واعترف المتهم بها فلا ينجو من الموت مهما كانت الظروف ، ومهما كانت الوعود المبذولة له .

وإن رفض المتهم الاعتراف بالتهمة الموجهة إليه يحال إلى التعذيب .
وكان المتهم يحال إلى التعذيب أحيانا رغم إقراره بالتهمة للحصول على معلومات أخرى جديدة قد تكشف عن خلية كافرة جديدة .

ومع المسلمين المتنصرين كان لابد من عرض المتهم على التعذيب مهما كانت ظروفه ، اعترف أم لم يعترف ، تهمة كبيرة أو صغيرة .

وكانت أنواع التعذيب كثيرة ومتنوعة !

تعذيب الماء،وفيه يرغم المتهم على شرب كمية كبيرة من الماء تصل إلى عدة لترات ، عن طريق توثيقه فى آلة شبيهة بالسلم ، وتخفض رأسه ، ويفتح فمه ويصب الماء فيه صبا ، وقد تنفجر معدته .

وتعذيب التعليق بأن توضع ذراعا المتهم خلف ظهره ثم يعلق منهما ، ويوضع ثقل من الحديد فى جسده ، وأحيانا تنخلع ذراعاه .

وهناك تعذيب الأسياخ المحمية فى القدم .

وصفائح محمية حمراء من النار توضع على البطن والعجز . وطحن العظام ، وتفسيخ الأرجل ، وخلع الفك ، وأشياء أخرى كثيرة ، وكان كثيرا جدا ما يموت المتهم قبل المثول أمام المحكمة ، وفى هذه الحالة لايقولون عنه انه انتحر كما تفعل مباحث أمن الدولة المصرية فى عهود الظلام أيام اللواء فؤاد علام وأمثاله ، بل يسكتون ، ولن يوجد الشخص الذى يسأل عن أحد قد حبسته محاكم التحقيق (التفتيش) .

ويترك تقدير التعذيب للجلاد والأحبار المقدسين وضمائرهم ، فلم تكن هناك حدود معينة ، ويسمح للطبيب بالتواجد إذا اقتضى الأمر .

وفى حالات نادرة جدا لايعترف المتهم ، ورغم هذا يحكم عليه . وأحيانا يعترف أثناء التعذيب

وينكر أمام المحكمة ، فتأمر المحكمة رسميا بإعادة التعذيب من جديد .

ويسمح لأهل المتهم بإيجاد محام يحضر معه القضية ، وهو لايعلم عنها شيئا إلا من الأسئلة التى توجه إلى المتهم أمامه ، ولايسمح له برؤية المتهم قبل الجلسة ، ولايسمح له بالاطلاع على القضية ، بل عليه أن يبنى دفاعه على ضوء ما يسمعه فى الجلسة ، ومن وحى الخاطر ، وإن كانت القضية لها شأن معين وأبدى المحامى تعاطفا مع المتهم قبض عليه بعد صدور الحكم بإدانة موكله .

ثم تحال القضية إلى الأحبار المقدسين المقررين الذين يبدون رأيهم أو حكمهم ، وهو نادرا ما يختلف عن قرار الاتهام .

وللمتهم أن يرفع ظلامة إلى مجلس التحقيق الأعلى .
وله بعد ذلك أن يلجأ إلى الكرسى الرسولى فى روما .
ونادرا من يجتاز كل هذه الخطوات من المسلمين المتنصرين .

ثم يسير المسلمون فى موكب الإحراق فى الساحة كما وصفنا من قبل . وقد أحرق آلاف من المسلمين فى هذه المواكب .

وسارت بهم الأحوال سنين طويلة على هذا المنوال .
وجاء كارلوس الخامس ومن بعده فيليب الثانى ثم جاء فيليب الثالث، وفى عهده خرج المسلمون من الأندلس طردا جماعيا .

محكمة التحقيق فى مدينة وهران الجزائرية

وهو استطراد وجدت نفسى مضطرا إليه فقد غادر الكاردينال « خمينيث » الموانىء الإسبانية ومعه ثلاث وثلاثون سفينة حربية، وإحدى وخمسون سفينة نقل تحمل أربعة وعشرين ألف جندى إسبانى قشتالى صليبى ، فى حملة دينية يرأسها كاردينال كما رأينا ، واحتل مدينة وهران الجزائرية

فى ١٦ مايو عام ١٥٠٩ م ، وكانت مذبحة مروعة ، قتل فيها من الأهالى الآمنين أربعة آلاف ، واسترق عدة آلاف أخر ، واغتصبت الفتيات والنساء بمعرفة الحبر الأعظم الذى سجد بين الجثث شكرا للرب على هذه النعمة التى حباهم بها . وأصبحت وهران أهم قاعدة للإسبان فى شمال إفريقية ، واحتل دون بيدرو المنطقة الحجرية الواقعة على مسافة ربع كيلو من ميناء الجزائر ، وشيد هناك قلعة ، وصار فى وسعه قصف المدينة بالمدافع التى كانوا يوجهونها إلى مآذن المدينة للتسلية واختبار دقة التصويب أثناء الأذان .

وأمر خمينيث بإنشاء محاكم التحقيق (التفتيش) فى وهران عام ١٥١٥ م ثم انتهى أمرها بعد حين .

الثورة الإسلامية

تحول المسلمون فى بلاد الأندلس وفى غرناطة على الأخص إلى طائفة من المستضعفين المستذلين ، ولم تحترم الحكومات المتعاقبة على إسبانيا أى عهد من العهود التى بذلتها ، وأسرفت فى اضطهادهم .

وللمستضعفين يوم يخرجون فيه على ظالميهم ، هكذا فهمنا من التاريخ .

قاد الثورة أحد المستضعفين واسمه فرج بن فرج ويعمل صباغا فى حى البيازين من غرناطة ، وقد خرج فى مائتين من ال[illegible] الذين يخفون إسلامهم ويدبرون ليوم الانتقام ، وفتكوا بحامية الحمراء على غرة ، ثم لجئوا إلى جبال البشرات ، ولحق بهم كل المسلمين الصادقين الذين يريدون الخلاص من النير الإسبانى ، وكان مع الثائرين أحفاد موسى بن أبى الغسان القائد الشهيد .

بدأت الثورة يوم ١٥ إبريل سنة ١٥٦٨ م .

وحاول المركيز دى مندىخار التفاهم مع الثوار ، وكانت طلباتهم معقولة وعادلة ، وهى إلغاء كافة القوانين الظالمة ، والعودة إلى معاهدة التسليم المهينة التى وقعها أبو عبدالله الصغير فى يوم

أغبر كئيب ، وكان الثوار يعلمون أنهم لايستطيعون مواجهة الإمبراطورية الإسبانية التى كانت سيدة أوروبا فى ذلك الوقت ، ولو أنهم كانوا على أمل فى اتصال بإخوانهم فى العدوة الأخرى من البحر من أرض المغرب ، حيث كانت طلائع الترك العثمانيين قد وصلت إلى هناك تحاول شيئا رغم بعد المسافة عن قواعدهم الأصلية فى مصر آنذاك . وكان الثوار قد اختاروا فتى من بنى أمية هو فرناندو دى فالور الذى اختاروه أميرا فى احتفال مهيب بين الجبال، وتسمى بمولاى محمد بن أمية،واستطاع دى منديخار أن يهدىء الثائرين حتى يلتقى بفيليب الثانى ، ومن ثم يحاول أن يحصل لهم على بعض الحقوق التى ضاعت منهم .

وكانت الثورة قد شملت كل البلاد الإسلامية الواقعة فى مملكة غرناطة القديمة قبل التسليم .

ورفض فيليب الثانى مناقشة الموضوع، وأمر دى منديخار بالعودة إلى جبال البشرات والقضاء على الثورة .

وهزم دى منديخار فى مواقع كثيرة مع المسلمين ، واعترف بعجزه . وجرد فيليب الثانى جيشا كبيرا بقيادة دون خوان أخيه غير الشرعى للقضاء على الثورة الإسلامية .

وأثناء تقدم الدون خوان فى جبال البشرات ثارت المدن الإسلامية التى كانت قد سكنت أثناء تدخل دى منديخار . وتراجع دون خوان لأنه أصبح بين نارين : الثائرين فى جبال البشرات يقودهم محمد بن أمية ، وأهالى المدن الإسلامية الذين فتكوا بالحاميات الإسبانية فى مقاومة رائعة اشترك فيها النساء والأطفال .

واستدعى فيليب الثانى قائده العام الذى كان فى حملة إلى إيطاليا لترقع هجوم تركى عثمانى هناك .

وحاول القائد العام اقتحام المدن الثائرة ، وأمام مدينة ثائرة استبسل هو وجيشه فى القتال واقتحمها بعد استشهاد عدة آلاف من الأندلسيين ، وأباح القائد العام نساء المدينة للجند ، فكانوا

يلقون بأنفسهن من شاهق خوفا من العار والدنس، فى صورة من أروع صور البطولة والفداء والصلابة ، وأمسك الجند بمن تبقى من الفتيات والنساء ، وتم اغتصابهن أمام ذويهن فى صورة من الخسة والدناءة لم تحدث من قبل ، ثم كانت مذبحة مروعة ، وسبى من تبقى وأرسلوا إلى أسواق الرقيق يباعون لحساب الإمبراطو الكاثوليكى فيليب الثانى .

ولم تشترك فى هذه المجزرة القوات النظامية وحدها ، بل كانت معها مجموعات مسلحة من المدنيين القشتاليين ، سموا أنفسهم بالكتائب القشتالية ، ووفدوا من كافة بلاد الأندلس لمواجهة المسلمين .

وعزل دى منديخار لاتهامه بالمهادنة مع المسلمين .

وتقدمت القوات القشتالية تفتك بالمدن الثائرة فتكا مدمرا وحشيا . وكان البابا يلح فى هذه الأثناء على إرسال جيش قوى يواجه الأتراك العثمانيين .

وكان فيليب الثانى يطمع أن يكون أخوه دون خوان هو قائد ذلك الجيش ، فأرسل إليه يطلب منه إجراء حوار مع الثوار فيهدأ الجنوب ، ومن ثم يتفرغون للأتراك العثمانيين القوة الجديدة التى تهدد النصرانية فى العالم كله . وكان الغرض أيضا من المفاوضات هو خداع المسلمين الثائرين ، وبعدها يغدرون بهم كما حدث فى التاريخ القريب والبعيد .

وكانت المفاوضات بين دون خوان والقائد العام المسلم واسمه « الحبقى » الذى تحمس للصلح وسحب قواته من عدة مدن قبل الاتفاق النهائى عليه ، وصار يتحدث عن الصلح بحماسة بين الجند ، الأمر الذى جعل محمد بن أمية يرسل إليه للتفاهم حول بعض النقاط ، ثم أعدمه سرا ، بعد أن تأكد أنه كانت له عدة اجتماعات مريبة مع كبير أساقفة « وادى آش » ، وأنه وقع على الاتفاق دون إذنه .

أرسل دون خوان بعد موت « الحبقى » إلى محمد بن أمية رسولا فرد عليه رداً قاسيا وقال له عندما طلب تجديد المفاوضات حول الصلح :

– لا أمنع رعيتى من فعل ما تشاء ، ولكن أبلغ سيدك أنه ما بقى لى كساء يستر ظهرى ما سلكت سبيلهم ، وإن لم يصمد أحد فى « البشرات » فإنى صامد ، وأفضل أن أعيش مسلما وأموت مسلما من أن أعيش بما يتفضل به علىَّ فيليب الثانى من نعم !

عند ذلك قسم دون خوان قواته إلى أربعة جيوش ، وتقرر تمشيط كل الجبال ، وتوجهت الجيوش إلى غرناطة بعد عملية تطهير كاملة للجبال من الثوار . وأثناء الشهور الأولى والعمليات التى جرت فى شهور سبتمبر وأكتوبر ونوفمبر من عام ١٥٧٠ م أدرك الثوار المسلمون أنها عمليات عسكرية الغرض منها إبادة المسلمين وليس القضاء على الثورة . حيث حدثت مجازر لم يتفق مثلها فى تاريخ العمران .

وكان السكان يهربون إلى الجبال والمرتفعات خوفا من القتل والاغتصاب . والقوات الإسبانية والكتائب القشتالية تحرق أمامها كل شىء .

وعندما كان بعض المسلمين يختفون فى الكهوف والمغارات كانوا يشعلون أمام هذه الكهوف الأغصان والأشجار ، فيخرجون خوفا من الاختناق فيجدون السيف فى انتظارهم .

وقتل محمد بن أمية،وتسلم القيادة بعده مولاى عبدالله بن أمية أحد الذين أشعلوا الثورة فى أيامها الأولى ، وكانت الثورة قد بدأت تترنح تحت ضربات الإبادة اللاإنسانية . وماتت زوجته وابنتاه مختنقات بالدخان فى أحد الكهوف ، فقد كانوا يغتصبون النساء قبل قتلهن .

وصدر مرسوم ملكى برفع أجر الجند الإسبان ، وإعطاء عشرين دوقية ثمنا لرأس أى مسلم ، وصار قتل المسلمين واجبا دينيا ، وصار الأساقفة يعظون الجند ويحدثونهم عن ثواب من يقتل الكفار الملاحدة من المسلمين .

وكان الجنود يستسهلون قتل المدنيين القائمين فى القرى المهجورة للحصول على « الدوقيات » بدلا من المخاطر مع الثوار فى الجبال .

وأرشد أحد المخبرين عن مكان مولاى عبدالله بن أمية !

وقتلوه وحملوه مشدودا على بغل ودخلوا به غرناطة حيث نفذوا فيه حكم الإعدام وهو ميت لإرهاب من تبقى من أهل غرناطة مهد الثورة . واستقبل دون خوان فى مدريد بعد إخماد الثورة استقبال الفاتحين ، وصار بطلا قوميا .

وقدر ضحايا هذه المذابح بثلاثين ألف تمت إبادتهم .

ومن أمسكوا بهم ونجوا من الذبح قدموا إلى محاكم التحقيق (التفتيش) وحكم على الأسرى بأحكام تتراوح بين تقطيع الأجساد - على غير ما جرت عليه عادة المحكمة وقانونها - أو الشنق ، وأخفهم عقوبة الذين حكم عليهم بالتجديف فى السفن بقية حياتهم .

التشـريد

اقترح دون خوان على الملك فيليب طرد أغلبية سكان غرناطة من بلادهم وأرضهم وتوزيعهم فى مدن الشمال ، حيث تنقطع صلتهم بأرضهم ، ويفقدون وحدتهم ، ووافق الملك .

وجمع دون خوان قوات كبيرة وأحاطت بالمدينة فى الليل ، وأقام نقاط التفتيش والحواجز فى الشوارع والطرقات .

واستيقظ الناس فوجدوا المنادين ينادون فى حى البيازين بالتجمع فى المستشفى الملكى ، وذهبت مجموعة من أشراف أهل غرناطة لمقابلة الدون خوان ، وأخبروه أن الباقين من المسلمين فى غرناطة لم يشترك واحد منهم فى الثورة ، فأقسم لهم دون خوان بشرفه أنه مجرد عمل إحصاء للذكور فوق الرابعة عشرة ، فاطمأن الأشراف وعادوا إلى حى البيازين ، وأمروا الناس بالاستجابة للنداء .

وأثناء سير أحد طوابير الشباب الغرناطي إلى المستشفى صفع أحد الجند شابا من السائرين ، وكان هذا الشاب حراً أبيا فالتقط حجرا وضرب به الجندى ، فما كان من الجنود القشتاليين إلا أن مزقوا هذا الشاب بالسيوف بين ذهول الجميع .

وقام الدون خوان بنفى أربعين ألفا من سكان غرناطة الرجال إلى مدن مختلفة من إسبانيا . واستبقى بعض الصناع والزراع . وقام بتوزيع الأطفال على الكنائس والأديرة للتنصير الصحيح ، ثم وزع الزوجات والفتيات على الجند .

ثم عاد فيليب وأصدر مرسوما بتهجير كل من تبقى من أهل غرناطة فى سائر المدن الإسبانية ، للقضاء على دواعى الثورة إلى الأبد .

وتمت مصادرة الأراضى والأملاك لتسديد نفقات الحرب والقضاء على الثورة . وهؤلاء الذين تم نفيهم إلى المدن المختلفة قام الجند بقتل معظمهم فى الطريق .

نهاية المأساة

ورث فيليب الثالث الحكم بعد أبيه فيليب الثانى وتولى رئاسة الوزراء الدوق ليرما ، وكانت الإمبراطورية الإسبانية لها أعداء رئيسون هم الهولنديون والإنجليز ؛ لأنهم من البروتستانت وإسبانيا تعتبر نفسها حامية الكاثوليكية فى العالم ، ثم العدو الثالث الأتراك العثمانيون ، وقد منيت إسبانيا بهزائم كثيرة أمام هذه الجبهات الثلاث .

وكان لابد من عقد هدنة مع الهولنديين والبروتستانت لم يقابلها الشعب الإسبانى بالارتياح ، بل شعر فيها بالمهانة والمذلة .

وكعادة الدول حين تمنى بهزائم خارجية تتجه إلى فئة مستضعفة فى الداخل وتنكل بها لتغطى هزائمها وتشغل الناس بها ، كما فعلت حكومة عبدالناصر فى الستينيات مع الإخوان المسلمين

عندما هزمت فى حرب اليمن . وقد قال المؤرخون الإسبان عن دوق ليرما إنه أعظم لص عرفته البلاد . فقد تم عقد هدنة طويلة الأجل مع الهولنديين .

وقرر إبرام صلح مع الإنجليز .

كما قرر نفى كافة المسلمين الأندلسيين من البلاد ، دون النظر إلى أية اعتبارات سياسية واقتصادية واجتماعية أو إنسانية .

وقالوا إن سبب النكبات هو وجود هذه الفئة من أعداء الوطن فى الداخل . وقد بين بعض العقلاء فساد هذا القرار .

واعتبره عامة الشعب قرارا بطوليا عظيما يكرس الإيمان فى إسبانيا . وقد صدر مرسوم نفى المسلمين فى ٩ إبريل سنة ١٦٠٩[1] بتوقيع فيليب الثالث .

ولاشك أن الإسبان المسلمين أثبتوا أمام التاريخ أنهم أمة صامدة صابرة تمسكت بدينها رغم الكوارث والمصائب وحرب الإبادة أكثر من قرن من الزمن، وفشلت أثناء [illegible] المدة كل محاولات التنصير بالوعد والوعيد والحرق والقتل .

وقد صفق الشعب الإسبانى للدوق ليرما لهذا المرسوم رغم معرفتهم له ، وتعريف المؤرخين به أنه أكبر لص ظهر فى تاريخهم .

لم يتم تنفيذ هذا المرسوم إلا فى سنة ١٦١٥ م أى بعد سبع سنوات تقريبا من صدور المرسوم ، بعد عمل الترتيبات اللازمة لهذا .

واستطاع بعض المسلمين الهرب إلى الجبال والاحتماء بعدد من الأسر الكبيرة ولكن عددهم ليس بالكثير الذى يذكر .

---

١ – اختلف فى تاريخ هذا المرسوم [illegible] محمد عبدالله عنان أنه فى ٢٢ سبتمبر ١٦٠٩ وقالت رواية أخرى، إنه سنة ١٦١٠ م ، والأرجح فى نظرنا هو الرواية الإسبانية وهى ما أثبتناه أعلاه ، وقد غيره المرحوم عنان فى عدة مواضع من كتبه .

وخرج الإسبان المسلمون إلى بقاع مختلفة من الأرض ، وباعوا ما تركوا بأبخس الأثمان وتعرضوا للسلب والنهب فى الطريق ، وكانت السفن تنقلهم دون أجر إلى سواحل المغرب ، ولكن معظمهم آثر السفر بأجر ، « ورحل المنفيون من ثغر (لقنت) على عزف الموسيقى ونشيد الأغانى ، وهم يشكرون الله على العود إلى أرض الآباء والأجداد ، ولما سئل فقيه من زعمائهم عن سبب اغتباطهم أجاب بأنهم كثيرا ما سعوا إلى شراء قارب أو سرقته للفرار إلى المغرب ، مستهدفين لكثير من المخاطر، فكيف إذا عرضت لنا فرصة السفر الآمن مجانا ، ألا ننتهزها للعودة إلى أرض الأجداد ، حتى نستظل بحماية سلطاننا ، سلطان الترك - العثمانى - وهناك نعيش أحراراً مسلمين لا عبيدا كما كنا ؟[1] ».

وأسدل الستار بشكل نهائى على هذا الفصل الأخير من مأساة المسلمين فى الأندلس على ذلك النحو المرير ، مع أعداء تخلوا عن كل مبادىء الشرف والمروءة وتعاليم المسيح ، بعد أن رسبوا فى أعماقنا مطلبا أساسيا لهم لا يزال يتكرر إلى اليوم وهو : إبادة المسلمين أو تنصيرهم مع الفرص [illegible] الزمن .

فهل يرفع الستار مرة أخرى بشكل مختلف ؟

أنا أقول نعم .

﴿ ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا ﴾ صدق الله العظيم .



---

١ - نهاية الأندلس ، محمد عبدالله عنان ، طبعة القاهرة ١٩٦٦ ، طبعة التأليف والترجمة والنشر ص ٣٩٨ .

الملاحق

رثاء الأندلس الإسلامية
لشاعر أندلسى مجهول

أحقا خبا من جو « رندة » نورها | وقد كسفت بعد الشموس بدورها
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت | منازلها ذات العلا وقصورها
فيا ساكنى تلك الديار كريمة | سقى عهدكم مزن يصوب نميرها
أحقا أخلائى القضاء أبادكم | ودارت عليكم بالصروف دهورها
فقتل وأسر لايفادى وفرقة | لدى عرصات الحشر يأتى سفيرها
فواحسرتا كم من مساجد حولت | وكانت إلى البيت الحرام شطورها
ووأسفاكم من صوامع أوحشت | وقد كان معتاد الأذان يزورها
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى | وآياتها تشكو الفراق وسورها
وكم طفلة حسناء فيها مصونة | إذا أسفرت يسبى العقول سفورها
فأضحت بأيدى الكافرين رهينة | وقد هتكت بالرغم منها ستورها
لها روعة من وقعة البين دائم | أساها وعين لايكف هديرها
وكم من صغير بدل الدهر دينه | وهل يتبع الشيطان إلا صغيرها
لأندلس ارتجت لها وتضعضعت | وحق لديها محوها ودثورها
منازلها مصدورة وبطاحها | مدائنها موتورة وثغورها
وقد لبست ثوب الحداد ومزقت | ملابس حسن كان يزهو حبورها
فأحياؤها تبدى الأسى وجمادها | يكاد لفرط الحزن يبدو ضميرها
« فمالقة » الحسناء ثكلى أسيفة | قد استفرغت ذبحا وقتلا حجورها
وجزت نواصيها وشلت يمينها | وقد بدل الويل المبين سرورها
وقد كانت « الغربية » الجنة التى | تقيها فأضحى جنة الحرب سورها
و« بلش » قطعت رجلها بيمينها | ومن سريان الداء بان قطورها

وبالله إن جئت « المنكب » فاعتبر ... فقد خف ناديها وجف نضيرها

ألا ولتقف ركب الأسى بمعالم ... قد ارتج باديها وضج حضورها

بدار العلا حيث الصفات كأنها ... من الخلد والمأوى غدت تستطيرها

محل قرار الملك « غرناطة » التي ... هي الحضرة العليا زهتها زهورها

ترى الأسى أعلامها وهي خُشعٌ ... ومنبرها مستعبر وسريرها

ومأمومها ساهي الحجى وإمامها ... وزائرها في مأتم ومزورها

و « بسطة » ذات البسط ماشعرت بما ... دهاها وأنى يستقيم شعورها

ومـاأنسى لا أنسى « المريّة » إنها ... قتيلة أو جال ·أزيل عذارها

منازل آبائى الكرام ومنشيء ... وأول أوطان غذانى خيرها

وجاءت إلى استئصال شأفة دين ا ... جيوش كموج أشعلت دبورها

علامات أخذ مالنا قبل بها ... جنايات أخذ قد جناها مثيرها

فلا تنمحى إلا بمحو أصولها ... ولاتنجلي حتى تخط أصورها

معاشر أهل الدين هبوا لصعقة ... وصاعقة وارى الجسوم ظهورها

أصابت منار الدين فانهد ركنه ... وزعزع من أكنافه مستطيرها

ألا واستعدوا للجهاد عزائما ... يلوح على ليل الوغى مستنيرها

بأنفس صدق موقنات بأنها ... إلى الله من تحت السيوف مصيرها

تروم إلى دار السلام عرائسا ... على الله في ذاك النعيم مهورها .

التوقيع

مسلم مجهول الاسم

أحد أعضاء الجمعيات الإسلامية

السرية التى تكونت بعد سقوط غرناطة

رحمه الله رحمة واسعة .

وهذه القصيدة كانت فى أكثر من مائة بيت وقد عنى بنشرها أحد أدباء الجزائر مقرونة بترجمة فرنسية ، وذكر هذا الأديب وهو الأستاذ صويلح محمد أنه قد نقلها عن مخطوط محفوظ بمكتبة الجزائر ومؤرخ فى شعبان سنة ٨٩٧ هـ ، أى فى شهر يونيو سنة ١٤٩٢ م بعد سقوط غرناطة بستة أشهر[١] ، وواضح من القصيدة التى اخترنا منها هذه الأبيات أنها قد كتبت ونظمت بعد أن قام الإسبان بالفعل بانتهاك معاهدة التسليم الموقعة فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٤٩١ م وبعد أن بدأت محاولات التنصير الأولى رغم نهى المعاهدة عن ذلك ، وهذا واضح من الأبيات . ومنها أيضا أن هناك جماعات إسلامية قد نشأت فى غرناطة الشهيدة تحاول مقاومة الغازى الإسبانى ، وأن دعوة المسلمين إلى الجهاد فى سبيل الله كان شعار ومنهج تلك الجماعات التى تكونت ، وأن هذه الجماعات كانت سرية خشية رقابة الشرطة الغرناطية النصرانية ، بدليل أن المؤلف لم يذكر اسمه على هذه القصيدة رغم رصانتها وجزالتها .



(١) عن نهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان بتصرف ص ٢٦٨ ، ص ٢٦٩ الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٦، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

نص التذييل الذى كتبه أبو عبد الله الصغير بخطه على المعاهدة الأخيرة التى تقضى ببيع أملاكه كلها للملكين الكاثوليكيين ومغادرة الأندلس نهائيا .

« الحمد لله إلى السلطان والسلطانة أضيافى ، أنا الأمير محمد بن على بن نصر خديمكم ، وصلتنى من مقامكم العلى العقيد وفيها جميع الفصول الذى عقدها عنى وبكم التقديم ، من خديمى القائد أبى القاسم المليخ ، ووصلت بخط يدكم الكريمة عليها ، وبطابعكم العزيز ، كيف هيت مذكورة بهذا الذى هى تصلكم ، [illegible] فى ونحلف إنى رضيت بها ، بكلام الوفا مثل خديم جيد ، وترى هذا خط يدى وطابعى أرقيته عليها ، لتظهر صحة قولى . ووصلت بتاريخ الثالث والعشرين من شهر رمضان المعظم عام ثمانية وتسعين وثمانمائة . أنا كاتبه محمد بن على ابن نصر ، رضيت وقبلت جميع ماهو فى هذا المكتوب الثابت ، وتقبل بيدى ، إلى أضيافى السلطان والسلطانة مدّ لى هناكا »[1] .

---

(١) أورد محمد عبد الله عنان فى كتابه نهاية الأندلس ص ٢٧٩ صورة فوتوغرافية من هذا التذييل المحفوظ بدار المحفوظات العامة فى سيمانقا برقم 3 - 11 و R و P والظن أنها مرفقة بعقود التنازل والبيع عن أراضيه وضياعه ، وهى مكتوبة باللغة العربية وبخط الملك أبى عبد الله الصغير ، وعليها خاتمه وتوقيعه ، والملاحظ فى الرسالة أن كاتبها غير مثقف ، قليل الحظ من التعليم ، خطه معوج غير مستقيم ، ومن ألفاظها يبدو متهافتا ضعيفا خائفا ، ولم يكن مطلوبا منه أكثر من التوقيع على الاتفاق ، ولكنه إمعانا فى إثبات الولاء والوفاء للملكين سلباه ملكه وسوف يغادر ولن يراهما بعد ذلك ، كتب هذا الكلام . اللهم إلا إذا افترضنا إحتمالا آخر وهو أن هذه الصيغة قد أمليت عليه بصياغة أحد العارفين باللغة العربية فى بلاط فرناندو ويكون هذا هو الوجه الآخر لعملة الذل اللعينة .

كتبت المعاهدة بخط قشتالى مستقيم ومنتظم فى ١٥ إبريل سنة ١٤٩٣م ، وقد ذيل عليها أبو عبد الله بتاريخ ٢٣ رمضان ٨٩٨ هـ الموافق ٧ اغسطس سنة ١٤٩٣ م .

نص الاعتذار الذى كتبه العقيلى على لسان أبى عبد الله الصغير فى شأن تسليم غرناطة موجها للسلطان محمد أبى عبد الله بن الشيخ الوطاسى[1]

مولى الملوك ملوك العرب والعجم   رعيا لما مثله يرعى من الذمم

بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن   جار الزمان عليه جور منتقم

حتى غدا ملكه بالرغم مستلباً   و[illegible] الخطب مايأتى على الرغم

حكم من الله حتم لامرد له   وهل مرد لحكم منه منحتم

وهى الليالى وقاك الله صولتها   تصول حتى على الآساد فى الأجم

كنا ملوكا لنا فى أرضنا دول   نمنا بها تحت أفنان من النعم

فأيقظتنا سهام لل[illegible] صُيَّب   يرمى بأفجع حتف من بهن رُمى

فلا تنم تحت ظل الملك نومتنا   وأى مَلْكٍ بظل الملك لم ينم

يبكى عليه الذى قد كان يعرفه   بأدمع مزجت أمواهها بدم

وصل أواصر قد كانت لنا اشتبكت   فالملك بين ملوك الأرض كالرحم

وابسط لنا الخلق المرجو باسطه   واعطف ولاتنحرف واعذر ولاتلم

لاتأخذنا بأقوال الوشاة ولم   نذنب ولو كثرت أقوال ذى الوخم

فما أطقنا دفاعا [illegible] وما   أردنا لأنفسنا ماحل من نقم

والمرء مالم يعنه الله أضيع من   طفل تشكى بفقد الأم فى اليتم

وكل ماكان غير الله يحرسه   فإن محروسه لحم على وضم

---

(١) وردت القصيدة غير منضبطة فى عدة كتب منها أزهار الرياض ونفح الطيب والاستقصا للسلاوى . وقد قمنا بضبطها وتغيير طفيف فى بعض الكلمات دون أى تغيير فى المعنى ، وواضح أن العقيلى قد تأثر هنا بقصيدة محمد بن سعيد المشهورة بالبردة .

ولاتعاتب على أشياء قد قدرت ... وخط مسطورها فى اللوح بالقلم
وعَدِّ عما مضى إذ لا ارتجاع له ... وعُدَّ أحرارنا فى جملة الخدم
إيه حنانيك يابن الأكرمين على ... ضيف ألم بفاس غير محتشم
رحماك ياراحما ينمى إلى رحم ... فى النفس والأهل والأتباع والحشم
فكم مواقف صدق فى الجهاد لنا ... والخيل عالكة الأشداق للجم
والسيف يخضب بالمحمرِّ من علَقٍ ... ماابيض من سبل واسود من لمم
ولاترى صدر عضب غير منقصف ... ولا ترى متن لدن غير منحطم
حتى دهينا بدهيا لا اقتدار بها ... سوى على الصون للأطفال والحرم
تالله ماأضمرت غشا ضمائرنا ... ولاطوت صحة منها على سقم
لكن طلبنا من الأمر الذى طلبت ... ولاتنا قبلنا فى الأعصر الدُهُم
فخاننا عنده الجدّ الخئون ومن ... تقعد به [illegible] الدهر لم يقم
فاسود مااخضر من عيش دهته عِدا ... بالأسمر اللدن أو بالأبيض الخذِم
وشتت البين شملا كان منتظما ... والبين أقطع للموصول من جَلَم
فرب مبنى شديد قد أناخ به ... ركب البلا فقرته أدمع الدِّيَم
وماظننا بأن نبقى إلى زمن ... نرى به غرر الأحباب كالحمم
لكن رضاً بالقضا الجارى وإن طويت ... منا الضلوع على برح من الألم
لبيك يامن دعانا نحو حضرته ... على أساس وفاء غير منهدم
خليفة الله وافاك العبيد فكن ... فى كل فضل وقول عند ظنِّهم
وبين أسلافنا ماقد علمت به ... من اعتقاد بحكم الإرث مقتسم
وأنت منهم كأصل مطلع غُصُناً ... أو كالشراك الذى قد مُدَّ من أدم
وقد خطوت خطاهم فى مآثرهم ... فلم يُذمُّوا إذن فيها ولم تذم .

● ● ●

أهل الحفيظة يوم الروع يحفظهم ... من عصمة الله مايربى على العصم
بأس تطير شرار منه محرقة ... لكل مدَّرع بالحزم محتزم
وهم بطائفة التثليث قد فتكوا ... كمثل مايفتك السرحان بالغنم
تضيىء آراؤهم فى كل معضلة ... إضاءة السُّرج فى داج من الظلم

● ● ●

أنسى الخلائف فى حلم وفى شرف ... ، سخاء وفى علم وفى فهم
فجاز معتمدا منهم ومعتضدا ... وامتاز عن قائم منهم ومعتصم
وناصر الدين فى الإقبال فاق وفى ... محبة العلم أزرى بابنه الحكم
أفعال أعدائه معتلة أبدا ... متى يَرُم جذمها بالحذف تنجذم[1]

ثم يقول بعد الديباجة التى تلت القصيدة ، وغاية همه أن يقبله السلطان لاجئا فى فاس ، وقد فعل السلطان :

« هذا مقام العائذ بمقامكم ، المتعلق بأسباب ذمامكم ، المترجى لعواطف قلوبكم ، وعوارف إنعامكم ، المقبل الأرض تحت أقدامكم ، المتلجلج اللسان عند محاولة مفاتحة كلامكم . وماذا الذى يقول مَن وجهه خَجِلٌ ، وفؤاده وجل ، وقضيته المقضية عن التنصل والاعتذار تجل . بيد أنى أقول لكم ماأقوله لربى ، واحترائى عليه أكثر ، واجترامى عليه أكبر : اللهم لابرىء فأعتذر ولاقوى فأنتصر ، لكنى مستقيل مستنيل ، مستعتب مستغفر . ﴿ **وماأبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء** ﴾ . »

---

(١) قد اختصرنا هذه القصيدة الطويلة ولكنها كتبت بطريقة جزلة مؤثرة فى وقت تدهور فيه الأدب والشعر فى المشرق العربى ، ولعلها من أواخر القصائد الجيدة قبل عهد الضعف .

« على أنى لاأنكر عيوبى ، فأنا معدن العيوب ، ولاأحجد ذنوبى فأنا جبل الذنوب ، إلى الله أشكو عُجَرى وبُجرى ، وسقطاتى وغلطاتى ، فمثلى كان يفعل أمثالها ، ويحمل من الأحمال المضاعفة أحمالها ، ويهلك نفسه ويحبط أعمالها ، عياذا بالله من خسران الدين ، وإيثار الجاحدين المعتدين ، قد ضللت إذن وماأنا من المهتدين . وأيم الله لو علمت شعرة فى فودى تميل إلى تلك الجهة لقلعتها ، بل لقطفت من هامتى وقطعتها . غير أن الرعاع فى كل وقت وأوان ، للملك أعداء وعليه أحزاب وأعوان ، ولقد قذفنا من الأساطير بأحجار ، ورمينا بما لا يرمى به الكفار ، فضلا عن الفجار ، وجرى من الأمر المنقول على لسان زيد وعمرو ، مالكم منه حفظ الجبار ، قد أكثر المكثرون ، وجهد فى تعثيرنا المتعثرون ، ورمونا عن قوس واحدة ، ونظمونا فى سلك الملاحدة . أكفراً أيضا كفراً ؟ غفراً اللهم غفراً . وهل زدنا على أن طلبنا حقنا ممن رام محقه ومحقنا[1] ، فطاردنا فى سبيله عداة كانوا لنا غائظين ، فانفتق علينا فتق لم يمكنا له رتق ، وماكنا للغيب حافظين » .

« ولئن كان قد نزل بنا من القضاء ماثل عرشنا ، فقد نزل ذلك بغيرنا .

وقد اقتحم التتار بغداد عروس الإسلام فخربوها ، وأحاطوا بدورها فنهبوها ودمروها. والقضاء لايرد ولايصد ، ولايغالب ولايطالب ، والدائرات تدور ، ولابد من نقص وكمال للبدور ، والعبد مطيع لامطاع ، وليس يطاع إلا المستطاع ، وللخالق القدير ، جلت قدرته ، فى خليقته علم غيب ، للأذهان عن مداه انقطاع » .

(١) يقصد عمه الزغل والحرب الأهلية التى كانت بينهما .

« ونحن لم نفزع إلى غير بابكم الرفيع الجناب ، المنفتح حين سدت الأبواب ، ولم نلبس غير لباس نعمائكم ، حين خلعنا ماألبسنا الملك من الأثواب ، ووجه الله تعالى يبقى ، وكل من عليها فان . ثم عزاء حسنا وصبرا جميلا عن أرض أورثها الله من شاء من عباده ، معقبا لهم ومديلا ، سادرا عليهم من سدور الإملاء الطويلة سدولا ، سنة الله التى قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا، كان ذلك فى الكتاب مسطورا ، وكان أمر الله قدرا مقدورا[1] .



(١) اختصرنا هذه الرسالة الطويلة المؤثرة التى كتبها العقيلى مع القصيدة لسلطان فاس يستنجد به ويسأله الإقامة فى بلده ، ويبرر ماحدث له من أحداث عظيمة جليلة ، وأنه كان قدرا غالبا لايملك رده . وهنا يمكن لنا أن ندرك الفرق فى الثقافة والأسلوب بين تذييل أبى عبد الله الصغير على معاهدة ترك الأندلس ومافيه من ركاكة وجهل ، وهذا الأسلوب الرصين الذى صاغه العقيلى فاستحق به القبول عند سلطان بنى وطاس .

الأنوار النبوية فى آباء خير البرية
لمسلم مهاجر من الأندلس إلى تونس قبل النفى[1]

« وقد كثر علينا معشر أشراف الأندلس من كثير من إخواننا فى الله بهذه الديار الإفريقية من التونسيين وغيرهم ، حفظهم الله تعالى ، بقولهم من أين لهم هذا الشرف ، وقد كانوا ببلاد الكفار ، دمرهم الله ، ولهم مئون من السنين كذا وكذا ، ولم يبق فيهم من يعرف ذلك من مدة الإسلام وقد اختلطوا مع النصارى ، أبعدهم الله تعالى ، إلى غير ذلك من الكلام الذى لانطيل به ولاأذكره هنا صونا لعرضهم وحبى فيهم » .

« مع أنى صغير السن حين دخولنا هذه الديار ، عمرها الله تعالى بالإسلام وأهله ، بجاه النبى المختار ، فقد أطلعنى الله تعالى على دين الإسلام بواسطة والدى رحمة الله عليه ، وأنا ابن ستة أعوام أو أقل ، مع أنى كنت إذ ذاك أروح إلى مكتب النصارى لأقرأ دينهم ، ثم أرجع إلى بيتى

---

١ – نقلا عن كتاب (مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح) للأستاذ محمد بوجندا – طبع الرباط ١٣٤٥ هـ صـ ٢٠٠ ، صـ ٢١٤ عن مهاجر أندلسى فى أواخر عهد المسلمين هناك قبل النفى والطرد يشرح فيه أحوال الموريسكيين وهم المسلمون الذين أجبروهم على التنصر أو القتل ، ومن يضبط مخالفا تعاليم النصرانية أو يعمل عملا يشم منه عودة إلى الإسلام يعرض على ديوان التحقيق حيث الحرق حيا ، وهو هنا يشيد بتمسك هؤلاء الموريسكيين بالإسلام ، وأنهم رغم تطاول الزمن لم يتركوا دينهم أبدا . والجزء المنقول هنا من آخر فصول كتاب هذا المسلم الأندلسى المسمى بالعنوان المذكور . ومؤلف النص هو محمد بن عبد الرفيع بن محمد الشريف الحسينى الجعفرى الأندلسى المتوفى (١٦٥٢) م .

فيعلمنى والدى الإسلام ، فكنت أتعلم فيهما معاً ، وسنى حين حملت إلى مكتبهم أربعة أعوام ، فأخذ والدى لوحا من عود الجوز ، كأنى أنظر إليه الآن مملسا ، فكتب لى فيه حروف الهجاء ، وهو يسألنى حرفاً حرفاً عند حروف النصارى تدريبا وتقريبا ، فإذا سميت له حرفا أعجميا كتب لى حرفا عربيا ، فيقول حينئذ هكذا حروفنا ، حتى استوفى لى جميع حروف الهجاء فى كرتين ، فلما فرغ من الكرة الأولى ، أوصانى أن أكتم ذلك حتى عن والدتى وعمى وأخى ، وجميع قرابتنا ، وأمرنى ألا أخبر أحدا من الخلق ، وشدد علىّ فى الوصية ، وصار يرسل والدتى التى تسألنى ماالذى يعلمك والدك فأقول لها لاشىء . وكذا كان يفعل عمى ، وأنا أنكر أشد الإنكار ثم أروح إلى مكتب النصارى وآتى إلى الدار فيعلمنى والدى إلى أن مضت مدة » .

« وقد كان والدى رحمه الله ، يلقننى حينئذ ماكنت أقوله للأصنام . ولما تحقق والدى أنى أكتم أمور دين الإسلام عن الأقارب فضلا عن الأجانب ، أمرنى أن أتكلم بإفشائه لوالدتى وعمى ، وبعض أصحابه الأصدقاء فقط ، وكانوا يأتون إلى بيتنا فيتحدثون فى أمر الدين ، وأنا أسمع . فلما رأى حزمى مع صغر سنى ، فرح كثيرا غاية الفرح ، وعرفنى بأصدقائه وأحبائه وإخوانه فى دين الإسلام ، فاجتمعت بهم واحدا واحدا ، وسافرت الأسفار لأجتمع بالمسلمين الأخيار ، من جيان ، مدينة ابن مالك ، إلى غرناطة ، وإلى قرطبة وإشبيلية ، وطليطلة ، وغيرها من مدن الجزيرة الخضراء ، أعادها الله إلى الإسلام ، فتلخص لى من معرفتهم أنى ميزت سبعة رجال كانوا كلهم يحدثوننى بأمورغرناطة وما كان بها من الإسلام حينئذ ، فباجتماعى بهم حصل لى خير كثير ، وقد قرءوا كلهم على شيخ من مشايخ غرناطة ، أعادها الله إلى الإسلام ، يقال له الفقيه اللوطورى رحمه الله تعالى ونفعنا به ، فإنه كان رجلا صالحا ، وليا لله ، فاضلا زاهدا ، ورعا ، عارفا ، سالكا ، ذا مناقب ظاهرة مشهورة ، وكرامات طاهرة مأثورة ، قد قرأ القرآن الكريم فى مكتب الإسلام بغرناطة ، قبل استيلاء أعداء الدين عليها ، وهو ابن ثمانية أعوام وقرأ الفقه على مشايخ أجلاء حسب الإمكان » .

« ثم بعد مدة يسيرة ، انتزعت غرناطة من أيدى المسلمين أجدادنا ، وقد أذن العدو فى ركوب البحر والخروج منها لمن أراده ، وبيع ماعنده ، وإتيانه لهذه الديار الإسلامية ، وذلك فى مدة ثلاثة أعوام ، ومن أراد أن يقيم على دينه وماله فليفعل ، بعد شروط اشترطوها ، وإلزامات كتبها عدو الدين على أهل الإسلام ، فلما تحرك لذلك أجدادنا ، وعزموا على ترك ديارهم وأموالهم ، ومفارقة أوطانهم للخروج من بينهم ، وجاز إلى هذه الديار التونسية ، والحضرة الخضراء بغتة من جاز إليها حينئذ ، ودخلوا فى زقاق الأندلس المعروف الآن بهذا الاسم ، وذلك سنة اثنين وتسعمائة وكذا للجزائر وتطوان وفاس ومراكش وغيرها ، ورأى العدو العزم فيهم لذلك ، نقض العهد ، فردهم رغم أنوفهم من سواحل البحر إلى ديارهم ، ومنعهم قهرا عن الخروج واللحوق بإخوانهم ، وقرابتهم بدار الإسلام ، وقد كان العدو يظهر شيئا ، ويفعل بهم شيئا آخر ، مع أن المسلمين أجدادنا استنجدوا مراراً ملوك الإسلام ، كملك فاس ومصر حينئذ ، فلم يقع من أحدهما إلا بعض مراسلات ، ليقضى الله أمراً كان مفعولا » .

« ثم بقى العدو يحتال بالكفر عليهم غصبا ، فابتدأ يزيل لهم اللباس الإسلامى ، والجماعات ، والحمامات ، والمعاملات الإسلامية ، شيئا فشيئا ، مع شدة اقتناعهم والقيام عليه مرارا ، وقتالهم إياه ، إلى أن قضى الله سبحانه ماقد سبق من علمه ، فبقينا بين أظهرهم ، وعدو الدين يحرق بالنار من لاحت عليه أمارة الإسلام ، ويعذبه بأنواع العذاب ، فكم أحرقوا ، وكم عذبوا ، وكم نفوا من بلادهم ، وضيعوا من مسلم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، حتى جاء النصر والفرج من عند الله سبحانه ، وحرك القلوب للهروب ، وكان ذلك سنة ثلاثة عشر وألف ، فخرج منا بعض للمغرب ، وبعض للمشرق خفية ، مظهرا دين الكفار أبعدهم الله ، فخرج بعض أحبابنا وإخواننا وهو الفقيه الأجل محمد أبو العباس أحمد الحنفى ، المعروف بعبد العزيز القرشى ، ومعه أحد أخواله ، إلى مدينة بلغراد من عمالة القسطنطينية ، فالتقيا بالوزير مراد باشا وزير السلطان المعظم المرحوم السلطان أحمد بن السلطان محمد نجل آل عثمان نصرهم الله تعالى وأيدهم ، فأخبراه

بما حل بإخواننا بالأندلس من الشدة بفرانسة وغيرها ، فكتب أمرا لصاحب فرانسة دمرها الله ، بإعلام السلطان نصره الله ، يأمره بأن يخرج من كان عنده من المسلمين بالأندلس وخدام آل عثمان ، ويوجههم إليه فى سفن من عنده مع مايحتاجون إليه . فلما قرئ الأمر السلطانى فى ديوان الفرنسيس ، فسمعه من كان عنده مرسلا من قبل صاحب الجزيرة الخضراء ، وهو اللعين فيلبو الثالث ، فأرسل لسيده ، يخبره بالواقع ، وأن السلطان أحمد آل عثمان ، أرسل أمره إلى فرانسة ، وأمر صاحبها أن يخرج من كان عنده من الأندلس ، فقبل كلامه ، وأمر بإخراج المسلمين ، وأذن لمن جاء من الأندلس بأن لابأس عليهم ، وأن يركبوا عنده فى سواحله مراكبه ، ويبلغهم إلى حيث شاءوا من بلاد المسلمين ، فلما أحس بهذا الأمر عدو الله فيلبو صاحب إسبانية ، دخله الرعب والخوف الشديد ، وأمر حينئذ فجمع الأكابر من القسيسين والرهبان والبطارقة ، وطلب منهم الرأى ، ومايكون عليه العمل فى شأن المسلمين الذين هم ببلاده كافة ، فبدأ الشأن فى أهل بلنسية ، فأخذوا الرأى ، وأجمعوا كلهم على إخراج المسلمين كافة من مملكته ، وأعطاهم السفن ، وكتب أوامر وشروطا فى شأنهم ، وفى كيفية [illegible] ، وشدد على عماله بالوصية ، والاستحفاظ على كافة المسلمين من الأندلس . نعم اريد أن أذكر لك نبذة يسيرة اختصرتها ، وترجمتها ، من جملة أسباب ذكرها الملك الكافر أبعده الله فى أوامره التى كتبها فى شأن إخواننا بالأندلس حين إخراجهم من الجزيرة الخضراء ، لتكون على بصيرة من أمرهم ، وتعلم بعض الأسباب التى أخرجوا لأجلها على التحقيق لا كما يزعم بعض الحاسدين ، وليؤيد ماقدمناه آنفا من أمر السلطان أحمد آل عثمان ، وتكمل الفايدة ولئلا يساء بنا الظن نحن معشر الأندلس » .

« قال الملك الكافر ، أبعده الله تعالى وزلزله آمين : لما كانت السياسة السلطانية الحسنة الجيدة موجبة لإخراج من يكدر المعاش على كافة الرعية النصرانية ، فى مملكتها التى تعيش عيشا رغداً صالحاً ، والتجربة أظهرت لنا عيانا ، أن الأندلس الذين هم متولدون من الذين كدروا مملكتنا

فيما مضى ، بقيامهم علينا ، وقتلهم أكابر مملكتنا ، والقسيسين والرهبان الذين كانوا بين أظهرهم ، وقطعهم لحومهم ، وتمزيقهم أعضاءهم ، وتعذيبهم إياهم بأنواع العذاب ، الذى لم يسمع فيما تقدم مثله ، مع عدم توبتهم فيما فعلوه ، وعدم رجوعهم رجوعا صالحا من قلوبهم لدين النصرانية ، وأنه لم ينفع فيهم وصايانا ، ورأينا عيانا أن كثيرا منهم قد أحرقوا بالنار ، لاستمرارهم على دين المسلمين ، وظهر منهم العناد بعيشهم فيه خفية ، واستنجادهم كذلك عون السلطان العثمانى ، لينصرهم علينا ، وظهر لى أن بينهم وبينه مراسلات إسلامية ، ومعاملات دينية ، وقد تيقنت من ذلك من إخبارات صادقة وصلت إلى ومع هذا فإن أحداً منهم لم يأت إلينا ليخبرنا بما هم يديرونه فى هذه المدة بينهم ، وفيما سبق من السنين ، بل كتموه بينهم ، علمت بذلك أن كلهم قد اتفقوا على رأى واحد ، ودين واحد ، ونيتهم واحدة ، وظهر لى أيضا ، ولأرباب العقول والمتدينين من القسيسين والرهبان والبطارقة الذين جمعتهم لهذا الأمر واستشرت ، مع أن إبقائهم بيننا ينشأ عنه فساد كبير ، وهول شديد سلطنتنا ، وأن بإخراجهم من بيننا يصلح الفساد الناشئ من إبقائهم فى مملكتى فأردت إخراجهم من سلطنتنا جملة ، ليزول بذلك الكدر الواقع والمتوقع للنصارى الذين هم رعيتنا ، طائعين لأوامرنا ولديننا ، ورميتم إلى بلاد المسلمين أمثالهم ، لكونهم مسلمين ، انتهى المراد بأكثر لفظه ولم أعرض لذكر شروط كتبها ودققها » .

« فانظر رحمك الله ، كيف شهد عدو الدين ، الملك الكافر ، بأنهم مسلمون ، واعترف أنه لم يقدر على إزالة دينهم من قلوبهم ، وأنهم متمسكون كلهم به ، مع أنه كان يحرق منهم من ظهر عليه الدين ، ثم وصفهم بالعناد لرؤيته فيهم لوائح المسلمين وأماراتهم ، فأى علامة أكبر من صبرهم على النار لدين الحق ، ومن استنجادهم ملك دين الإسلام المؤيد لحماية الدين ، أمير المسلمين السلطان أحمد آل عثمان نصرهم الله تعالى ، فهذا غاية العز والخير والبركة لهذه الطائفة الطاهرة الأندلسية التى قال فيها شيخنا الأستاذ القطب الغوث سيدى أبو الغيث القشاش ، نفعنا

الله به دنيا وأخرى فى بعض مكاتيبه التى كان يكاتبهم بها ، فقال لى وسلم على هؤلاء الأنصار الأطهار الأخيار ، فإنه لايحبكم إلا مؤمن ولايبغضكم إلا منافق » .

« فخرجوا كلهم سنة تسع عشرة وألف ، ووجد فى دفاتر السلطان الكافر ، أبعده الله تعالى أن جمله من أخرج من أرض الأندلس كافة ، نيفا وستمائة ألف نسمة ، كبيرا وصغيرا ، فكانت هذه الوقعة منكبة عظيمة ، وفضيلة عجيبة ، لجماعتنا الأندلس زادهم الله شرفا بمنه . وأمر أيضا من كان مسجونا فى كافة مملكته ، وكل من كان أمر بإحراقه فأخرجه وعفا عنه وزوده وأرسله إلى بلاد الإسلام سالما ، ولايخفى أن هذا أمر عظيم ومحال عادة ، فسبحان رب السموات والأرض ، الذى إذا أراد أمرا ، قال له : كن فيكون ، فيالها من أعجوبة ماأعظمها ، ومن فضيلة ماأشرفها ، ومن كرامة ماأجملها ومن نعمة ما أكبرها ، فما سمع من أول الدنيا إلى آخرها مثل هذه الواقعة » .



رسالة من فقهاء المغرب إلى إخوانهم من العرب المتنصرين فى غرة رجب ٩١٠ هـ ٢٨ نوفمبر سنة ١٥٠٤ م

« الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما .

إخواننا القابضين على دينهم ، كالقابض على الجمر ، ممن أجزل الله ثوابهم ، فيما لقوا فى ذاته ، وصبروا النفوس والأولا[illegible] ، الغرباء القرباء إن شاء الله ، من مجاورة نبيه فى الفردوس الأعلى من جناته ، وارثو سبيل السلف الصالح فى تحمل المشاق ، وإن بلغت النفوس التراق[illegible] ، نسال الله أن يلطف بنا ، وأن يعيننا وإياكم على مراعاة حقه ، بحسن إيمان وصدق ، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا » .

« بعد السلام عليكم ، من كاتبه إليكم ، من عبيد الله أصغر عبيده ، وأحو[illegible] إلى عفوه ومزيده ، عبيد الله تعالى أحمد بوجمعة المغراوى ثم الوهرانى .

كان الله للجميع بلطفه وستره ، سائلا من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء ، بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدا[illegible] ، والحشر مع الذين أنعم الله عليهم من الأبرار ، ومؤكداً عليكم فى ملازمة دين الإسلام آمرين به من بلغ من أولادكم . إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم ، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس ، وإن ذاكر الله بين الغافلين

كالحى بين الموتى ، فاعلموا أن الأصنام خشب منجور ، وحجر جلمود لايضر ولاينفع ، وأن الملك ملك الله مااتخذ من ولد ، وماكان معه من إله . فاعبدوه واصطبروا لعبادته ، فالصلاة ولو بالإيماء ، والزكاة ولو كأنها لفقيركم أورياء ، لأن الله لاينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم ، والغسل من الجنابة ، ولو عوما فى البحور ، وإن منعتم فالصلاة بالليل قضاء لحق النهار ، وتسقط فى الحكم طهارة الماء ، وعليكم بالتيمم ولو مسحا بالأيدى للحيطان ، فإن لم يمكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد ، إلا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدى والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتيمم به ، فاقصدوا بالإيماء ، نقله ابن ناجى فى شرح الرسالة لقوله عليه السلام : فأتوا منه مااستطعتم » .

« وإن أكرهوكم فى وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية ، وانووا صلاتكم المشروعة ، وأشيروا إلى مايشيرون إليه من صنم ، ومقصودكم الله ، وإن كان لغير القبلة تسقط فى حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام ، وإن أجبروكم على شرب خمر ، فاشربوه لابنية استعماله ، وإن كلفوا عليكم خنزيرا فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ، ومعتقدين تحريمه ، وكذا إن أكرهوكم على محرم ، وإن زوجوكم بناتهم ، فجائز لكونهم أهل الكتاب ، وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم ، فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه ، وإنكم ناكرون لذلك بقلوبكم ، ولو وجدتم قوة لغيرتموه » .

« وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام فافعلوا منكرين بقلوبكم ، ثم ليس عليكم إلا رءوس أموالكم ، وتتصدقون بالباقى ، إن تبتم لله تعالى . وإن أكرهوكم على كلمة الكفر ، فإن أمكنكم التورية والإلغاز فافعلوا ، وإلا فكونوا مطمئنى القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك ، وإن قالوا اشتموا محمدا فإنهم يقولون له مُمَد ، فاشتموا مُمَداً ، ناوين أنه الشيطان ، أو ممد اليهود فكثير بهم اسمه . وإن قالوا عيسى ابن الله ، فقولوها إن أكرهوكم ، وانووا إسقاط مضاف أى عبد اللاه مريم معبود بحق ، وإن قالوا قولوا المسيح ابن الله ، فقولوها إكراها ، وانووا

بالإضافة للملك كبيت الله لايلزم أن يسكنه أو يحل به ، وإن قالوا قولوا مريم زوجة له ، فانووا بالضمير ابن عمها الذى تزوجها فى بنى إسرائيل ثم فارقها قبل البناء . قاله السهيلى فى تفسير المبهم من الرجال فى القرآن . أو زوجها الله منه بقضائه وقدره . وإن قالوا عيسى قد توفى بالصلب ، فانووا من التوفية والكمال والتشريف من هذه ، وإماتته وصلبه وإنشاد ذكره ، وإظهار الثناء عليه بين الناس ، وأنه استوفاه الله برفعه إلى العلو ، ومايعثر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله حسب ماتكتبون به ، وأنا أسأل الله أن يديل الكرة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهرا بحول الله ، من غير محنة ولا وجلة ، بل بصدمة الترك الكرام . ونحن نشهد لكم بين يدى الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به ، ولابد من جوابكم . والسلام عليكم جميعا . بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسع مائة عرف الله خيره » .

« يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى »[1]

---

١ – من المخطوطات المحفوظة فى مكتبة الفاتيكان الرسولية بروما ، وقد عثر محمد عبد الله عنان على ترجمة لهذه الوثيقة بمخطوطات « الألخيمادو » بمكتبة التاريخ بمدريد . « نهاية الأندلس » ، طبعة مطبعة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٦٦ ، للمرحوم محمد عبد الله عنان صـ ٣٤٢ ، صـ ٣٤٣ ، صـ ٣٤٤ . والملاحظ فى هذه الوثيقة هى تغير نغمة المسلمين فى المغرب مع إخوانهم الواقعين تحت النير الإسبانى ، وبعد أن كانوا يطلبون منهم الهجرة ، صار فقهاؤهم يجتهدون لهم فى أمور الدين والقيام بالعبادات ، ويعملون على تشجيعهم فى المحافظة على الإسلام .

ويلاحظ فى آخر الوثيقة أن الآمال كانت معلقة آنذاك على الدولة العثمانية فى تخليص الأندلس الإسلامية من الاحتلال ، لهذا كان حرص فرناندو شديدا على عمل علاقات حسنة مع المماليك فى مصر الذين لم يكونوا على وفاق مع العثمانيين . وفى الوقت الذى كان مسلمو الأندلس ينتظرون العثمانيين كانت جيوشهم تستعد للقضاء على الصفويين فى إيران والمماليك فى مصر ، أكبر قوتين إسلاميتين فى العالم آنذاك بعد العثمانيين . ولكن كان للعثمانيين دور عظيم فى مساعدة الأندلسيين كما بينا ، فى حدود الإمكانات العسكرية والسياسية التى كانت متاحة آنذاك لهم .

ولاة الأندلس من الفتح الإسلامى
حتى نهاية الخلافة الأموية

الوالي	الشهر	السنة الهجرية	الشهر	السنة الميلادية	الخليفة
١ – طارق بن زياد[١]	رمضان	٩٢هـ	يوليو	٧١١م	الوليد بن عبد الملك
٢ – أبو عبد الرحمن بن موسى بن نصير		٩٤	—	٧١٢	الوليد بن عبد الملك
٣ – عبد العزيز بن موسى بن نصير		٩٥		٧١٣	الوليد بن عبد الملك
٤ – أيوب بن حبيب اللخمى		٩٧		٧١٥	عمر بن عبد العزيز
٥ – الحر بن عبد الرحمن الثقفى		٩٨		٧١٦	عمر بن عبد العزيز
٦ – السمح بن مالك الخولانى	رمضان	١٠٠		[illegible]	عمر بن عبد العزيز
٧ – عبدالرحمن بن عبدالله الغافقى		١٠٢		٧٢٠	يزيد الثانى
٨ – عنبسة بن سحيم الكلبى		١٠٥		٧٢٣	هشام بن عبد الملك
٩ – عذرة بن عبد الله الفهرى		١٠٧		٧٢٥	هشام بن عبد الملك
١٠ – يحيى بن سلمة الكلبى	شوال	١٠٧		٧٢٥	هشام بن عبد الملك
١١ – حذيفة بن الأحوص		١١٠		٧٢٨	هشام بن عبد الملك
١٢ – عثمان بن أبى نسعة الخثعمى	شعبان	١١٠		٧٢٨	هشام بن عبد الملك

(١) فتحت البلاد فى عهده أيام الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك ، وكان نزوله بجيشه إلى الجبل المسمى باسمه يوم الاثنين الخامس من رجب سنة ٩٢ هـ الموافق ٢٧ أبريل سنة ٧١١ م وانهزم القوط بقيادة رودريك أمام قواته فى معركة وادى لكة يوم ٢٨ رمضان من نفس السنة الموافق ١٧ يوليو سنة ٧١١ م بعد معركة شرسة استمرت أربعة أيام .

١٣ - الهيثم بن عبيد الكنانى	المحرم	١١١	٧٢٩	هشام بن عبد الملك
١٤ - محمد بن عبدالملك الأشجعى		١١٢	٧٣٠	هشام بن عبد الملك
١٥ - عبدالرحمن الغافقى(٢) (المرة الثانية)		١١٢	٧٣٠	هشام بن عبد الملك
١٦ - عبد الملك بن قطن الفهرى		١١٤	ديسمبر ٧٣٢ م	هشام بن عبد الملك
١٧ - عقبة بن الحجاج		١١٦	٧٣٤	هشام بن عبد الملك
١٨ - عبدالملك بن قطن (المرة الثانية)		١٢٢	٧٣٩	هشام بن عبد الملك
١٩ - بلج بن بشر القشيرى		١٢٣	٧٤٠	هشام بن عبد الملك
٢٠ - ثعلبة بن سلامة العاملى		١٢٤	٧٤١	هشام بن عبد الملك
٢١ - الحسام بن ضرار الكلبى	رجب	١٢٥	٧٤٣	هشام بن عبد الملك
٢٢ - يوسف بن عبدالرحمن بن حبيب(٣)		١٣٠	٧٧٤	مروان الثانى

وصل عبد الرحمن بن معاوية إلى بلاد الأندلس سنة ١٣٨ هـ - ٧٥٥ م

---

(٢) قتل فى معركة بلاط الشهداء التى وقعت بين المسلمين بقيادته والفرنسيين بقيادة شارل مارتل وانهزم فيها المسلمون فى ٢١ أكتوبر سنة ٧٣٢ م أوائل رمضان ١١٤ هـ .

(٣) فى عهده قامت الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ .

الأمراء الأمويون المستقلون فى الأندلس

أثناء الخلافة العباسية فى المشرق

١ – عبد الرحمن الداخل	(ذو الحجة) ١٣٨ هـ	١٣مايو سنة ٧٥٦ م	أبو جعفر المنصور العباسى
٢ – هشام بن عبدالرحمن	جمادى الأولى ١٧٢	٧٨٨ م	هارون الرشيد
٣ – الحكم بن هشام	صفر ١٨٠	أبريل ٧٩٦ م	هارون الرشيد
٤ – عبدالرحمن بن الحكم	ذو الحجة ٢٠٦	مايو ٨٢٢ م	المأمون
٥ – محمد بن عبد الرحمن	[illegible] الآخر ٢٣٨	سبتمبر ٨٥٢ م	المتوكل
٦ – المنذر بن محمد	ربيع أول ٢٧٣	أغسطس ٨٨٦ م	المعتمد
٧ – عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن	صفر ٢٧٥	يونيو ٨٨٨ م	المعتمد

الخلفاء الأمويون المستقلون فى الأندلس

أثناء الخلافة العباسية فى المشرق

١ – عبد الرحمن الناصر	ربيع الأول ٣٠٠ هـ	١٥ اكتوبر ٩١٢ م	المقتدر العباسى
٢ – الحكم (الثانى) المستنصر	رمضان ٣٥٠	١٦ اكتوبر ٩٦١	المطيع
٣ – هشام المؤيد بالله	صفر ٣٦٦	١ أكتوبر ٩٧٦	الطائع

الدولة العامرية فى الأندلس

١ - المنصور محمد بن أبى عامر[١]	٣٧١ هـ	٩٨١ م	هشام المؤيد
٢ - عبد الملك بن المنصور	٣٩٢	١٠٠١ م	هشام المؤيد
		١٠٠٢ م	
٣ - عبد الرحمن بن المنصور[٢]	صفر ٣٩٩	٢٢ اكتوبر ١٠٠٨م	هشام المؤيد

بداية عصر الفتنة ودول الطوائف

١ - محمد بن هشام بن عبدالجبار[٣] ٣٩٩ هـ ١٥ فبراير ١٠٠٩ م

[عين بعض الخلفاء أثناء فتن كثيرة انتهت بظهور الطوائف]

(١) كان كاتبا ثم رقى إلى الوزارة واستغل علاقته بصبح أم الخليفة المؤيد التى تزوجته بعد موت الحكم،وكان هشام المؤيد فى الثانية عشرة من عمره ، وتولى المنصور أعمال الحجابة ، وصارت له مظاهر الملك مع الاحتفاظ بالخليفة الأموى هشام كصورة .

(٢) هو الذى تجرأ وأرغم « هشام المؤيد » على أن يجعله وليا لعهده من بعده ، وهى خطوة لم يجرؤ أبوه المنصور - على قوته - أن يفعلها فكانت النتيجة أن خلع وقتل .

(٣) هو حفيد عبد الرحمن الناصر ، وقتل أبوه هشام بأمر من عبد الملك ، فانتهز الناس فرصة خروج عبد الرحمن شنجول بن المنصور فى الخروج إلى الغزو ، فنادوا به خليفة وسرعان ماقتلوه لمجونه ، وقامت دولة بنى حمود ، وظهرت دول الطوائف .

ملوك الطوائف -(العهد الأول) *

١ - بنو حمود (علويون) بمالقه

	هـ	م
١ - على الناصر لدين الله بن حمود بن ميمون بن أحمد بن على بن عبيدالله بن عمر	٤٠٧	١٠١٦
٢ - القاسم المأمون بن حمود	٤٠٨	١٠١٧
٣ - يحيى المعتلى بالله بن على بن حمود	٤١٢	١٠٢١
القاسم « للمرة الثانية »	٤١٣	١.٢٢
يحيى « للمرة الثانية »	٤١٦	١٠٢٥
٤ - إدريس [الأول] المتأيد بالله بن على	٤٢٧	١٠٣٥
٥ - الحسن المستنصر بالله بن يحيى بن على	٤٣١	١٠٣٩
٦ - إدريس [الثانى] العالى بالله بن يحيى	٤٣٤	١٠٤٢
٧ - محمد [الأول] المهدى بالله بن إدريس	٤٣٨	١٠٤٦
٨ - إدريس [الثالث] الموفق بالله بن يحيى	٤٤٤	١٠٥٢
إدريس [الثانى] « للمرة الثانية »	٤٤٥	١٠٥٣
٩ - محمد [الثانى] المستعلى بالله بن إدريس	٤٤٦	١٠٥٤
فتحها المرابطون	٤٤٩	١٠٥٧

* أشكر الأستاذ مالك أمين فى الجهد الكبير الذى بذله معى عند إعداد هذه القوائم وضبط التواريخ وتحقيق الأسماء من المراجع المختلفة .

٢ – بنو حَمُّود بالجزيرة

١ – محمد المهدى بن القاسم بن حمود	٤٣١	١٠٣٩
٢ – القاسم الواثق بن محمد بن القاسم	٤٤٠	١٠٤٨
فتحها بنو عباد	٤٥٠	١٠٥٨

٣ – بنو عباد بإشبيلية

١ – أبو القاسم محمد [الأول] بن إسماعيل بن قريش بن عباد بن عمر بن أسلم بن عمرو ابن عطاف بن نعيم اللخمى ، القاضى	٤١٤	١٠٢٣
٢ – عباد بن محمد المعتضد	٤٣٤	١٠٤٢
٣ – أبو القاسم محمد [الثانى] المعتمد بن عباد	٤٦١	١٠٦٨
فتحها المرابطون	٤٨٤	١٠٩١

٤ – دولة بنى زيرى بن مناد فى غرناطة

١ – زاوى بن زِيْرى	٤٠٣	١٠١٢
٢ – حَبُّوس المُظفر بن ماكسن الصنهاجى	٤١١	١٠٢٠
٣ – باديس بن حبوس المظفر الناصر	٤٢٨	١٠٣٧
٤ – عبدالله بن بُلقين	٤٦٥	١٠٧٣
٥ – تميم بن بلقين (بمالقة منذ سنة ٤٦٦ هـ)	٤٨٣	١٠٩٠
فتحها المرابطون	٤٨٤	١٠٩١

٥ - بنو برزال بقرمونة (Carmona)

١ - إســحق		
٢ - عبدالله بن إسحق		
٣ - محمد بن عبدالله بن برزال	٤٠٤	١٠١٣
٤ - العزيز بن محمد المستظهر	٤٣٤	١٠٤٢

٦ - دولة بنى يفرن فى رندة (Ronda)

١ - هلال بن أبى قرة اليفرنى	٤٠٦	١٠١٥
٢ - باديس بن هلال	٤٤٥	١٠٥٣
٣ - أبو نصر فتوح بن هلال	٤٤٩	١٠٥٧
ضمت إلى ملكة إشبيلية		

٧ - موررون (Moron)

١ - نــوح	٤٠٤	١٠١٣
٢ - أبو مناد محمد بن نوح	٤٣٣	١٠٤١
ضمت إلى مملكة إشبيلية	٤٤٥	١٠٥٣

٨ - دولة بنى خزرون فى أركش (Arcos)

١ - محمد بن خزرون عماد الدولة	٤٠٢	١٠١١
٢ - عبدون بن محمد بن خزرون	٤٢٠	١٠٢٩
٣ - محمد بن محمد بن خزرون القائم	٤٤٥	١٠٥٣
ضمت إلى مملكة إشبيلية	٥٤٥	١١٥٠

٩ – دولة بنى البكرى فى ولبة وجزيرة شلطيش (Saltes) (Huelva) .

١ – أبو زيد محمد بن أيوب بن عامر (قاضى نبلة)		
٢ – أبو المصعب عبدالعزيز	٤٠٢	١٠١١
٣ – عبدالعزيز البكرى عز الدولة	٤٠٣	١٠١٢
ضمت إلى مملكة إشبيلية	٤٤٣	١٠٥١

١٠ – بنويحيى فى لبلة (nielbla) .

١ – أبو العباس أحمد بن يحى اليحصبى	٤١٤	١٠٢٣
٢ – محمد بن يحيى عز الدولة	٤٣٤	١٠٤٢
٣ – فتح بن خلف بن يحيى ناصر الدولة	٤٤٣	١٠٥١
ضمت إلى مملكة إشبيلية	٤٤٣	١٠٥١

١١ – بنو مزين فى باجة وشلب ببلاد الغرب (Silves) .

١ – أبو بكر محمد بن سعيد بن مزين	٤١٩	١٠٢٨
٢ – محمد بن عيسى عميد الدولة	٤٣٢	١٠٤٠
٣ – عيسى بن مزين المظفر	٤٤٠	١٠٤٨
٤ – أبو الأصبغ عيسى بن محمد	٤٤٢	١٠٥٠
٥ – محمد بن عيسى الناصر	٤٤٥	١٠٥٣
٦ – عيسى بن محمد المظفر	٤٥٠	١٠٥٨
ضمت إلى مملكة إشبيلية	٤٤٤	١٠٥٢

استولى عليها سانشو الأول سنة ٤٨٢ هـ - ١٠٨٩ م

١٢ - شنتمرية الغرب sant maria de a lgarbe

١ - أبو عثمان سعيد بن هرون	٤٠٧	١٠١٦
٢ - محمد بن سعيد	٤٣٥	١٠٤٣
ضمت إلى مملكة إشبيلية	٤٤٤	١٠٥٢

١٣ - مارتلة Mirtola

١ - ابن طيفور		
ضمت إلى مملكة إشبيلية	٤٣٦	١٠٤٤

١٤ - بنو رزين بالسهلة . إمارة شنتمرية الشرق Lasahla .

١ - أبو محمد هُذيل [الأول] بن خلف بن لوب ابن رزين	٤٠٢	١٠١١
٢ - هذيل بن عبدالملك بن رزين	٤٠٣	١٠١٢
٣ - أبو مروان عبدالملك [الأول] بن خلف	—	—
٤ - عبدالملك بن هذيل	٤٣٦	١٠٤٤
٥ - أبو محمد هذيل [الثانى] عز الدولة ابن عبدالملك	—	—
٦ - أبو مروان عبدالملك [الثانى] حسام الدولة ابن هذيل الثانى	—	—

١٥ – بنو القاسم بألفنت Alpuente

١ – عبد الله بن قاسم (نظام الدولة)	٤٠٠	١٠٠٩
٢ – محمد بن عبد الله (يُمن الدولة)	٤٢٧	١٠٣٥
٣ – أحمد بن محمد (عز الدولة)	٤٣١	١٠٣٩
٤ – عبد الله بن محمد (جناح الدولة) (حتى سنة ٤٨٥هـ)	٤٤٠	١٠٤٨
خضعت للمرابطين	٤٨٥	١٠٩٢
خضعت للدون خايمى الأول ملك أرغونه	٦٣٣	١٢٣٥

١٦ – بنو جَهْـــور بقرطبة

١ – أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور	٤٢٢	١٠٣٠
٢ – أبو الوليد محمد بن جهور	٤٣٥	١٠٤٣
٣ – عبد الملك بن محمد بن جهور	٤٥٧	١٠٦٤
(فتحها بنو عباد أصحاب إشبيلية) : المعتمد بن عباد	٤٦٣	١٠٧٠
٤ – يحيى بن إسماعيل الطليطلى	٤٦٧	١٠٧٤
٥ – المعتمد [استولى على المدينة للمرة الثانية]	٤٦٩	١٠٧٦

١٧ – بنو الأفطس ببطليوس (Badogoz) (من بربر مكناسة)

١ – عبدالله بن محمد بن مسلمة المنصور بن الأفطس	٤١٣	١٠٢٢

٢ - محمد بن عبدالله المظفر [دفع الجزية لفرديناند الأول سنة ٤٤٧ هـ]	٤٣٧	١٠٤٥
٣ - يحيى بن محمد المنصور [توفى سنة ٤٧٣ هـ]	٤٦٠	١٠٦٧
٤ - عمر بن محمد المتوكل [انفرد بالحكم منذ سنة ٤٧٣ هـ]	٤٦٤	١٠٧٢
فتحها المرابطون [قتل عمر وولداه]	٤٨٧	١٠٩٤

١٨ - بنو ذى النـــون بطليطلية

١ - يعيش بن محمد بن يعيش	٤٠٠	١٠٠٩
٢ - إسماعيل بن ذى النون الظافر	٤٢٧	١٠٣٥
٣ - يحيى بن إسماعيل المأمون	٤٢٩	١٠٣٧
٤ - يحيى بن إسماعيل بن يحيى القادر	٤٦٧	١٠٧٤

(بقونكة Cuenca) أيضا من سنة ٤٦٨ هـ حتى سنة ٤٧٤ هـ) .

استولى الفونس السادس على طليطلية ، فانتقل القادر إلى بلنسية	٤٧٨	١٠٨٥

١٩ - مملكة بلنسية (العامريون) (Valence)

١ - الفتيان مظفر ومبارك	٤٠٠	١٠٠٩
٢ - لبيب العامرى	٤٠٨	١٠١٧
٣ - عبد العزيز المنصور بن عبد الرحمن بن أبى عامر	٤١١	١٠٢٠
سقطت ألمرية	٤٢٩	١٠٣٧

٤ – عبد الملك المظفر بن عبد العزيز المنصور	٤٥٢	١٠٦١
٥ – المأمون الطليطلى (حمو الأمير السابق)	٤٥٧	١٠٦٤
٦ – القادر الطليطلى	٤٦٧	١٠٧٤
٧ – أبو بكر بن عبد العزيز المنصور	٤٦٨	١٠٧٥
٨ – القاضى عثمان بن أبى بكر	٤٧٨	١٠٨٥
٩ – القادر بن ذى النون الطليطلى « مرة ثانية »	٤٧٨	١٠٨٥
١٠ – القاضى جعفر بن عبد الله بن حجَّاف	٤٨٥	١٠٩٢
فتحها السيد الكمبيدور والقشتاليون	٤٨٧	١٠٩٤
فتحها المرابطون	٤٩٥	١١٠١

٢٠ – بنو صمادح بألمرية Almeria

١ – خيران (الفتى العامرى)	٤٠٥	١٠١٤
٢ – زهير العامرى	٤١٩	١٠٢٨
٣ – عبد العزيز المنصور	٤٢٩	١٠٣٧
٤ – عميد الدولة أبو القاسم زهير	٤٤٩	١٠٥٧
ضمت إلى بلنسية [أصبح معن بن محمد بن أحمد بن صمادح صاحب وشقة حاكما لها]	٤٢٩	١٠٣٧
٥ – معن بن صمادح	٤٣٣	١٠٤١
استقل بها معن	٤٣٣	١٠٤١
٦ – أبو يحيى محمد المعتصم بن معن (مولى البكرى)	٤٤٣	١٠٥١
٧ – أحمد بن المعتصم	٤٨٠	١٠٨٧
٨ – أحمد بن محمد معز الدولة	٤٨٤	١٠٩١

٢١ - مرســـــيه (Murcie)

١ - خيران صاحب ألمرية	٤٠٣	١٠١٢
٢ - زهير صاحب ألمرية	٤١٩	١٠٢٨
٣ - أبو بكر بن طاهر		
٤ - عبد العزيز البلنسى	٤٢٩	١٠٣٧
عبد الملك البلنسى		
- كان يحكمها من قبلهما :		
أبو بكر أحمد بن زهير المتوفى سنة ١٤٥٥هـ -		
٥ - أبو عبد الرحمن بن طاهر	٤٥٥	١٠٦٣
٦ - ابن عمار	٤٧١	١٠٧٨
٧ - ابن عامر من قبل المعتمد بعد القبض على ابن عمار	٤٧١	١٠٧٨
٨ - ابن رشيق [حتى سنة ٤٨٤ هـ]	٤٧١	١٠٨٠

٢٢ - بنو تجيب وبنو هود بسرقسطة (Zaragosse)

١ - المنذر بن يحى التجيبى	٤٠٨	١٠١٧
٢ - يحى بن المنذر المظفر	٤١٤	١٠٢٣
٣ - المنذر بن يحى معز الدولة	٤٢٠	١٠٢٩
٤ - سليمان بن هود المستعين	٤٣١	١٠٣٩
٥ - أحمد بن سليمان المقتدر	٤٣٨	١٠٤٦
٦ - يوسف بن أحمد المؤتمن	٤٧٤	١٠٨١
٧ - أحمد بن يوسف المستعين	٤٧٨	١٠٨٥
٨ - عبد الملك بن أحمد عماد الدولة	٥٠٣	١١٠٩

٩ - أحمد [الثالث] سيف الدولة المستنصر بن عبد الملك	٥١٣	١١١٩
استيلاء النصارى عليها	٥٣٦	١١٤١

٢٢ - أ - قلعة أيوب

١ - محمد عضد الدولة بن سليمان بن هود	٤٣٨	١٠٤٦
حكمت بعد عضد الدولة بحكام سرقسطة		
ثم سقطت معها فى	٥٣٦	١١٤١

٢٣ - لاردة

١ - يوسف المظفر بن سليمان المستعين (انفصلت لاردة عن مملكة سرقسطة)	٤٣٨	١٠٤٦

٢٤ - طرطوشة (Tortose)

١ - مجاهد العامرى « انظر دانية »		
٢ - مقاتل سيف الملك	٤٣٣	١٠٤١
٣ - يعلى العامرى	٤٤٨	١٠٥٦
٤ - الفتى نبيل العامرى	—	—
٥ - أحمد المقتدر السرقسطى	٤٥٣	١٠٦١

٢٥ - دانية (denia) والجزر الشرقية

١ - مجاهد العامرى ، أبو الجيش الموفق	٤٠٨	١٠١٧

٢ - أبو الأحوص معن (ولاه عبد العزيز البلنسى)	٤٣٢	١٠٤٠
٣ - على بن مجاهد إقبال الدولة	٤٣٦	١٠٤٤
٤ - المقتدر بن هود صاحب سرقسطة ، قسم المملكة بين ولديه	٤٦٨	١٠٧٥
٥ - الحاجب عماد الدولة المنذر بن المقتدر (بدانية) طرطوشة ولاردة	٤٧٤	١٠٨١
٦ - سليمان سيد الدولة بن المنذر	٤٨٠	١٠٨٧
٢٦ - ميــورقــة		
١ - مجاهد العامرى « انظر دانية »	٤١٣	١٠٢٢
٢ - المؤيد (مستقلا)	—	—
٣ - عبد الله (وعمره ١٥ ربيعا)	—	—
٤ - الأغلب (من قبل مجاهد)	٤٢٨	١٠٣٦
٥ - سليمان بن مشيقان	٤٣٦	١٠٤٤
٦ - عبد الله المرتضى	٤٦٨	١٠٧٥
٧ - مباشر ناصر الدولة بن سليمان (مولى مجاهد العامرى أمير دانية)	٤٨٥	١٠٩٢
٨ - أبو ربيع سليمان (فتحها المسيحيون)	٥٠٨	١١١٤
المرابطون (عاملهم وانور بن أبى بكر حتى حتى سنة ٥٢٠ هـ)	٥٠٩	١١١٥
- بنو غانية		
١ - محمد بن على بن إسحق بن غانية	٥٢٥	١١٣٠

٢ - أبو إبراهيم إسحق بن محمد بن غانية	٥٤٦	١١٥١
٣ - طلحة بن محمد (خضع للموحدين سنة ٥٨١ هـ)	٥٨٠	١١٨٤
٤ - على ويحيى ولدا إسحق	—	—

عمال للموحدين	٦٠١ - ٦٢٧ هـ	١٢٠٤ - ١٢٢٩ م
فتحها جيم خايمى الأول ملك أرغونة نهائيا	٦٢٧	١٢٢٩

٢٧ - منــورقــــة

أبو عثمان سعيد بن الحكم القرشى (ولقبه المجارف)٦٣٠هـ - ٦٨٥ هـ١٢٣٢ م - ١٢٨٦ م
(عامل أرغونه)



فترة الثغور بين المرابطين والموحدين – (العهد الثانى)

١ – بلنسية

١ – القاضى مروان بن عبد الله بن مروان بن خطاب (ثلاثة أشهر) سنة ٥٣٩ هـ ١١٤٤

٢ – الأمير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مردنيش الجذامى ٥٤٠ ١١٤٥

٣ – عبد الله بن عياض (من مرسية) ٥٤ ١١٤٥

٤ – محمد بن أحمد بن سعد بن مردنيش ، (للمرة الثانية) ٥٤٢ ١١٤٧

٥ – المظفر عيسى بن المنصور بن عبد العزيز الناصربن أبى عامر — —

٦ – محمد بن أحمد (للمرة الثانية) ٥٥٥ ١١٦٠

٢ – قرطبـــة

١ – حمدين بن محمد ، المنصور ٥٣٨ ١١٤٣

٢ – أحمد [الثالث] سيف الدولة المستنصر . (من بنى هود ، توفى فى شعبان سنة ٥٤٠) ٥٣٩ ١١٤٤

٣ - حمدين (للمرة الثانية)	٥٤٠	١١٤٥
خلعه ابن غانية	٥٤١	١١٤٦

٣ - مُرسيَــة

١ - أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن ، الطاهر (أربعة أشهر)		
٢ - المستعين بن هود (وزيره)		
٣ - الأمير عبد الله بن عياض	٥٤٠	١١٤٥
٤ - الرئيس عبد الله بن فرج	٥٤٠	١١٤٥
٥ - الأمير عبد الله (للمرة الثانية)	٥٤١	١١٤٦
٦ - محمد بن أحمد بن سعد بن مردنيش البلنسى (حتى سنة ٥٦٦)	٥٤٢	١١٤٧

٤ - مارتلة (بطليوس وباجه) عمال حَمْدين صاحب قرطبة

١ - أحمد بن قاسى	٥٣٩	١١٤٤
٢ - سدراى بن وزير (عزله الموحدون سنة	٥٤٦	١١٥١



الفترة الأخيرة من السيادة الإسلامية – (العهد الثالث)

١ – مرسية (بنـو هـود)

١ – العادل بن المنصور (الثائر)	سنة ٦٢٠ هـ	١٢٢٣
٢ – محمد بن يوسف بن هود ، المتوكل	٦٢١	١٢٢٤
٣ – أبو بكر محمد الواثق بن محمد	٦٣٥	١٢٣٧
٤ – ضياء الدولة العزيز بن عبد الملك بن خطاب	٦٣٦	١٢٣٨
٥ – أبو شمَيل زيان بن مردنيش البلنسى	٦٣٦	١٢٣٨
٦ – محمد بهاء الدولة بن هود (عم المتوكل)	٦٣٨	١٢٤٠
٧ – محمد بن أبى جعفر (ابنه)	٦٦٠	١٢٦١
٨ – محمد الواثق (للمرة الثانية)	٦٦٢	١٢٦٣
٩ – عبد الله بن على بن أشقيلوله		
١٠ – الواثق (للمرة الثانية)		
استولى الفرنجة على مرسية	٦٦٨	١٢٦٩

٢ - نبلـة (Niebla)

١ - ابن محفوظ : موسى بن محمد بن نصير بن محفوظ	٦٥٠	١٢٥٢

٣ - بلنســية

١ - محمد بن يوسف بن هود (بمرسية سنة ٦٢٦ هـ - ١٢٢٨)		
٢ - أبو جميل زيان بن فلان بن سعد بن مردنيش		-
إستولى الفرنجة عليها	٦٣٦	١٢٣٨

٤ - بنو نصر بغرناطة

١ - أبو عبد الله محمد [الأول] الغالب بن يوسف بن نصر	٦٢٩	١٢٣١
٢ - أبو عبد الله محمد [الثانى] الفقيه بن محمد [الأول]	٦٧١	١٢٧٢
٣ - أبو عبد الله محمد [الثالث] المخلوع بن محمد [الثانى]	٧٠١	١٣٠١
٤ - أبو الجيوش نصر بن محمد [الثانى]	٧٠٨	١٣٠٨
٥ - أبو الوليد إسماعيل [الأول] بن فرج	٧١٣	١٣١٣
٦ - محمد [الرابع] بن إسماعيل	٧٢٥	١٣٢٤
٧ - أبو الحجاج يوسف [الأول] النيار بن إسماعيل	٧٣٣	١٣٣٢
٨ - محمد [الخامس] الغنى (بالله) بن يوسف	٧٥٥	١٣٥٤
٩ - أبو الوليد إسماعيل [الثانى] بن يوسف	٧٦٠	١٣٥٨
١٠ - أبو سعيد محمود [السادس] بن إسماعيل	٧٦١	١٣٥٩

محمد [الخامس] (للمرة الثانية) ١٣٦١

١١ - أبو الحجاج يوسف [الثانى] بن محمد [الخامس] ٧٩٢ ١٣٩٠

١٢ - محمد [السابع] المستعين بن [illegible] [الثانى] ٧٩٧ هـ ١٣٩٤

١٣ - أبو الحجاج يوسف [الثالث] [illegible] الناصر بن يوسف [الثانى] ٨١٠ ١٤٠٧

١٤ - محمد [الثامن] المتمسك بن يوسف [الثالث] ٨٢٠ ١٤١٧

١٥ - محمد [التاسع] الصغير بن نصر ٨٣١ ١٤٢٧

محمد [الثامن] (للمرة الثانية) ٨٣٣ ١٤٢٩

١٦ - أبو الحجاج يوسف [الرابع] بن محمد [السادس] ٨٣٥ ١٤٣١

محمد [الثامن] (للمرة الثالثة) ٨٣٥ ١٤٣١

١٧ - محمد [العاشر] الأحنف بن عثمان ٨٤٨ ١٤٤٤

١٨ - سعد المستعين بن على ٨٤٩ ١٤٤٥

محمد [العاشر] (للمرة الثانية) ٨٥٠ ١٤٤٦

سعد (للمرة الثانية) ٨٥٧ ١٤٥٣

١٩ - أبو الحسن على بن سعد ٨٦٦ ١٤٦١

٢٠ - أبو عبد الله محمد [الحادى عشر] بن على ٨٨٧ ١٤٨٢

على (للمرة الثانية) ٨٨٨ ١٤٨٣

٢١ - محمد [الثانى عشر] بن سعد الزَّغَل ٨٩٠ ١٤٨٥

محمد [الحادى عشر] (للمرة الثانية) ٨٩٢ ١٤٨٦

استيلاء فرديناند وايزابيلا على غرناطة ٨٩٧ ١٤٩٢

حكام الدويلات والممالك النصرانية
إبان وجود المسلمين

أشتورش وليون

بلاى الذى فر بعد انهزام رودريك من معركة وادى لكة واحتمى فى صخرة كافادونجا ، وكان معه مجموعه صغيرة من الأتباع كون بهم نواة مملكته ، وجاء بعده ابنه ڤافيلا ، وزوجت أخته من ألفونسو ابن زعيم شمالى آخر هو بيترو فكان أول حاكم حقيقى لدويلة شمالية .

مملكة ليون :	هـ	م
١ - ألفونسو الأول	١٢١ - ١٤٠	٧٣٩ - ٧٥٧
٢ - فرويلا الأول	١٤٠ - ١٥٩	٧٥٧ - ٧٧٥
٣ - ألفونسو الثانى	١٧٥ - ٢٢٧	٧٩١ - ٨٤٢
٤ - رودمير الأول	٢٢٧ - ٢٣٦	٨٤٢ - ٨٥٠
٥ - أردون الأول	٢٣٦ - ٢٥٢	٨٥٠ - ٨٦٦
٦ - ألفونسو الثالث	٢٥٢ - ٢٩٧	٨٦٦ - ٩١٠
٧ - غرسيه الأول	٢٩٧ - ٣٠١	٩١٠ - ٩١٤
٨ - أردون الثانى	٣٠١ - ٣١٢	٩١٣ - ٩٢٣

٩ - رُدمير الثانى	٣٢٠ - ٣٣٩	٩٣٢ - ٩٥٠
١٠ - رُدمير الثالث	٣٥٥ - ٣٧٥	٩٦٦ - ٩٨٥
١١ - ألفونسو الخامس	٣٨٩ - ٤١٨	٩٩٩ - ١٠٢٧

نافار :

إحدى مملكتين لليون ثانيتهما قشتالة وأهم ملوكها

١ - سانشو غرسيه الأول	٢٩٣ - ٣٥٩	٩٠٥ - ٩٢٦
٢ - سانشو غرسيه الثانى	٣٥٩ - ٣٨٥	٩٧٠ - ٩٩٣
٣ - سانشو غرسيه الكبير الثالث	٣٩٠ - ٤٤٦	١٠٠٠ - ١٠٣٥

قشـــتالة :

	هـ	م
١ - فرناندو الأول	٤٢٦ - ٤٥٨	١٠٣٥ - ١٠٦٥
٢ - ألفونسو السادس	٤٦٥ - ٥٠٢	١٠٧٢ - ١١٠٩
٣ - ألفونسو السابع	٥٢٠ - ٥٥٢	١١٢٦ - ١١٥٧
٤ - ألفونسو الثامن	٥٥٣ - ٦١١	١١٥٨ - ١٢١٤
٥ - فرناندو الثالث (القديس)	٦١٤ - ٦٥٠	١٢١٧ - ١٢٥٢
٦ - ألفونسو العالم	٦٥٠ - ٦٨١	١٢٥٢ - ١٢٨٤
٧ - ألفونسو الحادى عشر	٧١٢ - ٧٥١	١٣١٢ - ١٣٥٠
٨ - إيزابيلا	٨٧٩ - ٩١٠	١٤٧٤ - ١٥٠٤

أراجـون :

١ - سانشو رُدمير	٤٨٧	١٠٩٤
٢ - ألفونسو المحارب	٤٩٧ - ٥٢٨	١١٠٤ - ١١٣٤
٣ - رامون برنجير	٥٢٥ - ٥٥٨	١١٣١ - ١١٦٢
٤ - ألفونسو الثانى	٥٥٨ - ٥٩٢	١١٦٢ - ١١٩٦
٥ - بدرو الثانى	٥٩٣ - ٦١٠	١١٩٦ - ١٢١٣
٦ - خايمى الأول	٦١٠ - ٦٧٥	١٢١٣ - ١٢٧٦
٧ - فرناندو الخامس	٨٨٤ - ٩٢٢	١٤٧٩ - ١٥١٦

البرتغـال :

انفصلت عن قشتالة سنة ١٠٩٤ م واستقلت سنة ١١٢٨ م

أشهر ملوكها :

١ - الفونسو إنريكيث	٥٣٣ - ٥٨١	١١٣٩ - ١١٨٥
٢ - سانشو الأول	٥٨١ - ٦٠٨	١١٨٥ - ١٢١١
٣ - ألفونسو الثانى	٦٠٨ - ٦٢٠	١٢١١ - ١٢٢٣

إسـبانيا :

١ - كارلوس الخامس (الإمبراطور)	٩٢٥ - ٩٦٣	١٥١٩ - ١٥٥٦
٢ فيليب الثانى	٩٦٣ - ١٠٠٦	١٥٥٦ - ١٥٩٨
٣ فيليب الثالث	١٠٠٦ - ١٠٣٠	١٥٩٨ - ١٦٢١

ثبـــت المراجـــع

- **الآثار الأندلسية الباقية فى إسبانيا والبرتغال**

محمد عبد الله عنان – لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة الأولى القاهرة . ١٩٦١

- **الإحاطة فى أخبار غرناطة**

ابن الخطيب . تحقيق محمد عبد الله عنان مكتبة الخانجى بالقاهرة

الطبعة الثانية ١٩٧٣ م

- **أخبار مجموعة فى فتح الأندلس**

مجهول المؤلف وحققه إبراهيم الابيارى . دار الكتاب المصرى ودار الكتاب اللبنانى

الطبعة الأولى ١٩٨١ م

- **الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة .**

د . أحمد هيكل . دار المعارف القاهرة ١٩٧٩ م

- **أسنى المتاجر فيمن غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر**

أبو العباس أحمد التلمسانى الونشريش طبعة مدريد ١٩٥٧ م

- **أصول التاريخ الأوربى الحديث من النهضة الأوربية حتى الثورة الفرنسية**

هـ – فيشر ترجمة د . زينب عصمت راشد وآخرين . دار المعارف القاهرة ،

الطبعة الثالثة ١٩٧١ م

● أعلام المغرب والأندلس
الأمير أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر . حققه د . محمد رضوان الداية
مؤسسة الرسالة ببيروت الطبعة الأولى 1976

● الأندلسيون الموارك‍ة
عادل سعيد بشتاوى القاهرة – مطبعة إنترناشيونال برس 1983 م

● البداية والنهاية
لابن كثير . مكتبة المعارف ببيروت ، الطبعة الثانية 1977 م

● البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب
ابن عذارى المراكشى – دار الثقافة الطبعة الثانية 1980 م

● تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى
د . حسن ابراهيم حسن – دار الأندلس ببيروت الطبعة السابعة 1964 م

● تاريخ الدولة العثمانية . من تأليف يلماز أوزتونا (بالتركية)
ترجمة عدنان محمود سليمان (لم ينشر بعد)
أطلعنى على الجزء الخاص بالعلاقات بين العثمانيين والأندلس قبل السقوط
الأخ الدكتور محمود الأنصارى الأمين العام المساعد لاتحاد البنوك الإسلامية بالقاهرة.

● **تاريخ الدولة العلية العثمانية**
محمد فريد بك تحقيق د . إحسان حقى دار النفائس ببيروت
الطبعة الأولى ١٩٨١ م

● **تاريخ افتتـاح الأندلـس**
ابن القوطية وحققه إبراهيم الابيارى دار الكتاب المصرى ودار الكتاب اللبنانى
ودار الكتب الإسلامية الطبعة الأولى ١٩٨٢ م

● **التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنكية والقبطية**
اللواء محمد مختار باشا . دراسة وتحقيق وتكملة د . محمد عمارة
المؤسسة العربية للدراسات والنشر الطبعة الأولى ١٩٨٠ م

● **حضـارة العـرب**
جوستاف لوبون . ترجمة عادل زعيتر . عيسى البابى الحلبى بالقاهرة ١٩٦٩ م

● **الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية**
الأمير شكيب أرسلان

● **دائرة المعارف اليهودية (باللغة الإنجليزية)**
١٩٧٨

● **دولة الإسلام فى الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر**
محمد عبد الله عنان – مكتبة الخانجى بالقاهرة الطبعة الرابعة ١٩٦٩ م

• دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى
محمد عبد الله عنان - مكتبة الخانجى بالقاهرة الطبعة الثانية ١٩٦٩ م

• الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة
ابن بسام الشنتريني تحقيق د . إحسان عباس . دار الثقافة ببيروت ١٩٧٩ م

• رحلة الأندلس
د . حسين مؤنس . الدار السعودية بجدة الطبعة الثانية . ١٩٨٥ م

• الاستقصاء فى أخبار دول المغرب الأقصى
أبو العباس الناصرى - دار الكتاب - الدار البيضاء ١٩٥٤ م

• ظهر الإسلام
أحمد أمين . مطبعة خلف بالقاهرة . ١٩٥٨ م

• العبر وديوان المبتدأ والخبر .(تاريخ ابن خلدون)
ابن خلدون . مؤسسة الأعلمى ببيروت ١٩٧١ م

• العرب فى إسبانيا . ستانلى لين بول
ترجمة على الجارم . طبعة دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٠ م

• عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس
محمد عبد الله عنان - لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة الأولى القاهرة . ١٩٦٤ م

● **العقـد الفريـد**
ابن عبد ربه الأندلسى تحقيق أحمد أمين ، إبراهيم الإبيارى وعبد السلام هارون
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٤٩
(الطبعة المزورة ببيروت)

● **فجــر الأندلــس**
د . حسين مؤنس – الدار السعودية بجدة الطبعة الثانية ١٩٨٥ م

● **قصة الحضارة – عصر الإيمان . الجزء الخامس من المجلد الرابع**
ول ديورانت ترجمة محمد بدران – لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة
الطبعة الثانية ١٩٦٥ م

● **قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام**
د . توفيق الطويل . دار الكتاب العربى ، طبعة أولى ١٩٤٧ م

● **الكامل فى التاريخ**
ابن الأثير . دار صادر ودار بيروت ١٩٦٥ م

● **محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية**
الشيخ محمد الخضرى بك . المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ١٩٦٩ م

● **مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين**
تحقيق ليفى بروفنسال طبعة القاهرة ١٩٥٥ م

- **معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى من وضع زامباور المستشرق**
أخرجه زكى حسن بك وآخرون . دار الرائد العربى ببيروت ١٩٨٠ م

- **معجم البلدان**
ياقوت الحموى – دار صادر ببيروت بلا تاريخ

- **معارك العرب فى الأندلس**
بطرس البستانى . دار مارون عبود ببيروت ١٩٨٠ م

- **مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام**
محمد عبد الله عنان – مكتبة الخانجى بالقاهرة الطبعة الرابعة ١٩٦٢ م

- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**
أحمد بن محمد المقرى التلمسانى تحقيق د . إحسان عباس.دار صادر بيروت ١٩٦٨ م

- **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين**
محمد عبد الله عنان – لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة الثالثة القاهرة . ١٩٦٦

- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**
ابن خلكان . حققه د . إحسان عباس دار صادر ببيروت ١٩٧٨

محتويـــات الكتـــاب

الموضوع	الصفحة



أنجز طبعه على مطابع

ديوان المطبوعات الجامعية

الساحة المركزية - بن عكنون

الجزائر

ورقة ثقافية : ندوة مفتوحة بيننا وبين القارىء ، منضبطة على أنفاس الشارع الإسلامى : تملأ رئتيها بشهيقه الفورى الآنى وتزفر معه ، لحظة بلحظة ، زفراته : وماأكثر مايمتلىء به الصدر الإسلامى من شهيق وزفير

رسالة فكرية غير دورية

© ديوان المطبوعات الجامعية

رقم النشر: 4.16.2884

السعر: 99,00 دج